
القافلة
مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • مايو - يونيو 2007
الإعلام والنفط
لماذا تفشل
حملات التوعية المرورية؟
ملف العدد
البستان
العدد 3
المجلد 56

قافلة الأبحاث



تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً الهدف منه إشراك الباحثين الراغبين، خاصة طلاب وطالبات الجامعات، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. والهدف من هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمولية و الإحاطة بكافة زوايا الموضوع المطروح، ليتم تقديمها في النهاية على شكل موادٍ صحفية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تحديد الفترة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستتم مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتَّابها.

صورة الغلاف

لأن استمرار النزف من جرَّاء حوادث السير، لا سيما في صفوف الشبان لا يتوقف، ولأن هذه الحوادث تكاد أن تكون كلها من جرَّاء أخطاء بشرية، تسأل القافلة في هذا العدد: لماذا تفشل حملات التوعية المرورية، وكيف يمكن أن تنجح في تقليص وتيرة الحوادث؟

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
زياد محمد الشيحة

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوَا

سكرتير التحرير
عبود عطية

فريق التحرير
فاطمة الجفري
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
أمين نجيب
رولان قطان (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

مايو - يونيو 2007
ربيع الآخر - جمادى الأولى 1428

توزع مجاناً للمشتركين

- **العنوان:** أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa

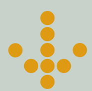
- **الهواتف:** رئيس التحرير 7321 874 3 966+
فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

قضايا

1 مواكبة منها لأسبوع المرور العالمي الذي أقيم في شهر أبريل، تستهل القافلة رحلتها لهذا العدد بتناول جانب محدد من جوانب السلامة المرورية يتمثل في الدور الذي يفترض أن تلعبه حملات التوعية في هذا المجال، وتركِّز قضية العدد اهتمامها هنا على الحملات الإعلانية التي، وللأسف الشديد، لم تثمر حتى اليوم ماهو مفترض منها عملياً، أي تخفيض نسبة حوادث السير والمخالفات، رغم الجهود الضخمة المبذولة في هذا المجال، وتكاليفها المادية الباهظة.





أما باب «قول في مقال» فيسعى إلى تقديم جواب جديد عن سؤال قديم «كيف تبني ثقافة علمية؟» ويعدد المصادر الحديثة لهذه الثقافة، مبيِّناً أن المسألة هي أولاً وأخيراً مسألة إرادة.

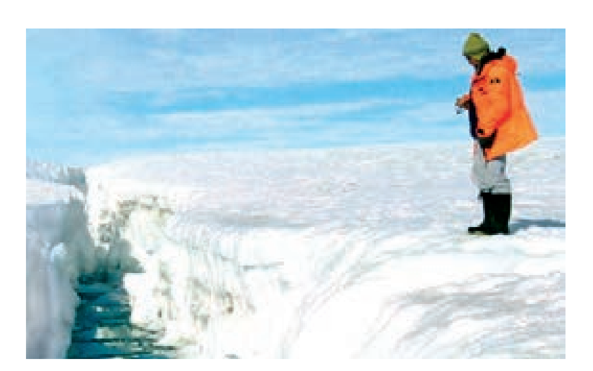
طاقة واقتصاد

2 أما مناخ الطاقة والاقتصاد فيتضمن أولاً بحثاً في أشكال تعامل الإعلام العالمي مع النفط.. هذا التعامل الذي يتسم في معظم الأحيان بتقديم صورة سلبية مجافية للحقيقة عن النفط وعالمه ودوره في حياتنا المعاصرة.





أما الموضوع الثاني فيتناول الدور المتعاظم للعلامات التجارية في الاقتصاد، ويعدد الدوافع التي تحمل الشركات والمؤسسات على إيلاء مثل هذا الاهتمام الكبير، بحيث أصبحت العلامة التجارية صناعة قائمة بحد ذاتها.

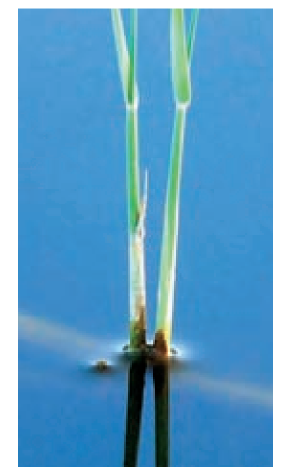


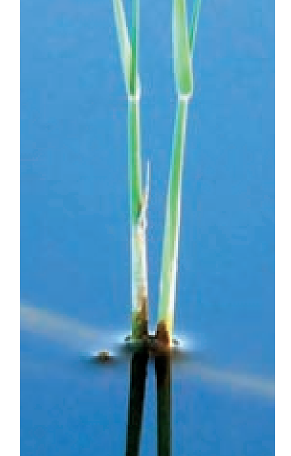
علوم وبيئة

3 أما مناخ العلوم والبيئة فينفرد به لهذا العدد عرض لكتاب نائب الرئيس الأمريكي السابق آل غور «حقيقة غير ملائمة»، هذا الكتاب الذي أثار ضجة عالمية، وصوِّر للسينما، ووصل مؤخراً إلى مكتباتنا. وقد تدعم عرض هذا الكتاب بمجموعة واسعة من الصور الفوتوغرافية والرسوم البيانية التي يتضمنها نظراً لدورها الكبير في إيضاح حجم القضية وجديتها.

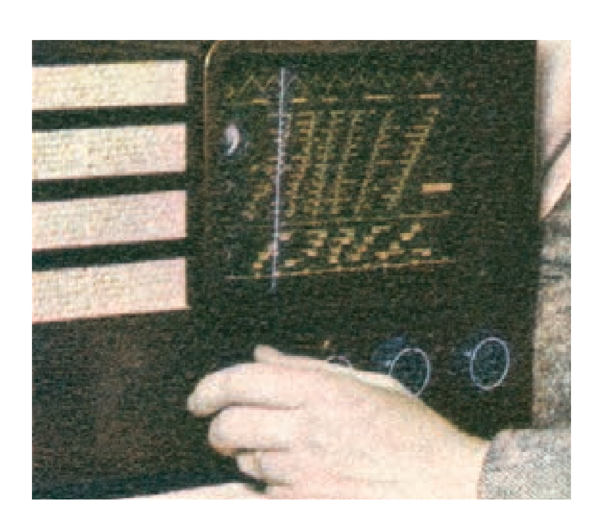
الفاصل المصور

ويستضيف الفاصل المصور لهذا العدد المصور السعودي مصلح جميل من خلال عيِّنة من أعماله تعبِّر عن شغفه بالحياة.. سواءً أكان الموضوع المصور إنساناً أم حيواناً أم نباتاً، أم مجرد زخرف صغير من زخارف الحياة الكبيرة.





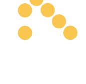




4 الحياة اليومية

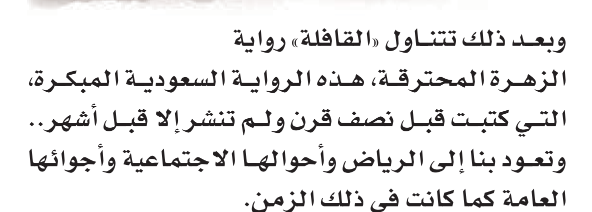
ويتضمن مناخ الحياة اليومية مساهمتين تتناولان ما بقي للراديو من مكان في حياتنا اليوم، مقارنةً مع وسائل الاتصال التي اكتسحت الساحة بعد عصره الذهبي وأبرزها ولا شك كان التلفزيون ومن ثم الإنترنت. وتتيح هاتان المساهمتان الفرصة لإعادة «قراءة» دور الراديو، خاصة بالنسبة إلى الذين تخلوا عنه.



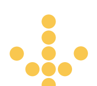


5 الثقافة والأدب

وفي المناخ الثقافي مساهمتان أيضاً تسعيان إلى رسم الصورة العامة للمشهد الثقافي السعودي كما يبدو اليوم. وفيما تركِّز المساهمة الأولى على موضوع الرواية السعودية بوصفها المجال الثقافي الأكثر إثارة للصخب على الساحة، تتناول المساهمة الثانية معظم أشكال التعبير الثقافي والفني إضافة إلى الرواية طبعاً.



وبعد ذلك تتناول «القافلة» رواية الزهرة المحترقة، هذه الرواية السعودية المبكرة، التي كتبت قبل نصف قرن ولم تنشر إلا قبل أشهر.. وتعود بنا إلى الرياض وأحوالها الاجتماعية وأجوائها العامة كما كانت في ذلك الزمن.



6 ملف العدد

والختام في ظلال البستان.. البستان الذي يختلف عن باقي الأراضي الزراعية بشخصية فريدة لم تعرف إلا في الشرق، فكان عنواناً للخير والحياة الجميلة ومكاناً للعيش ومصدراً للإبداع الفني والثقافي في صيغ ومجالات لا تعد ولا تحصى.



المحرر

الرحلة معاً

قافلة الأبحاث

منذ عام طرحت «القافلة» على قرَّائها برنامج «قافلة الأبحاث» وَدَعَت من خلاله الكتَّاب والباحثين إلى المشاركة بإسهام أوسع في جهود المجلة الكتابية. ولم يكن دافع هذه المبادرة الأول فسح المجال لعدد أكبر من المشاركات وحسب، بل كان الدافع في الحقيقة مختلفاً.

فالقافلة حاولت في الإصدار الجديد الذي انطلق منذ أربع سنوات، أن تشق لمسيرة التحرير فيها درباً طموحاً شرحناه سابقاً، وكان سلوكه يواجه مصاعب تطلب تجاوزها جهوداً دؤوبة. فسعى فريق التحرير في أن «يصطاد» موضوعات إما يندر تناولها في المطبوعات الدورية المختلفة، على الرغم من طرح المواطن العربي القارئ أسئلة في شأنها، أو محاولة تناول موضوعات معروفة من زوايا خاصة، لا تعتمد على سياق التناول المعهود في الدوريات.

ولم يكن هدف فريق التحرير من هذا مجرد «الاختلاف» أو التجديد للتجديد. وإنما الاقتناع بأن فائدة طرح أي موضوع تتضاعف إذا نجح الطرح في دفع القارئ إلى إعادة التفكير بما استقر في ذهنه من مسلَّمات أو انطباعات. فالمفاجأة الذهنية التي تنشأ عند قراءة عنوان يغيِّر زاوية النظر إلى أي موضوع، أو ينفض الغبار عنها، هي في ذاتها هدف مهم لأي جهد ثقافي يبذل. فالمفاجأة لا تجدد التفكير بالموضوع نفسه وتحسِّن إدراك القارئ لماهيته فحسب، وإنما تعوِّد القارئ على ممارسة التجديد نفسه في موضوعات أخرى كذلك.

ويعني هذا بادئ ذي بدء، أن القافلة نادراً ما كانت على استعداد لاستقبال موضوعات جاهزة أرسلها كتَّاب، كما هي عادة المجلات الشهرية، بل كانت تعتمد سياسة أخرى، هي أن يخطط فريق التحرير لتناول موضوعات شيقة تستحق الكتابة. ويتولى مكتب التحرير صياغة الموضوع المطلوب وشرح متطلباته وحيثياته من الزاوية المنشودة، ثم يرسل الموضوع مشروحاً فيما يقارب صفحة إلى الكاتب أو الكتَّاب المرشحين لتناوله، ويحدث تداول مع الكاتب الذي يبدي استعداده، للتيقن من وضوح زاوية التناول المطلوبة.



وعلى الرغم من هذا الجهد المتكامل، كانت محاولات كثيرة تفشل. فأحياناً يصل الموضوع جيداً ولكن خارج «الإشكالية» المطروحة، إذا جاز التعبير، وبالتالي ربما يوافق فريق التحرير على نشره، وأحياناً أخرى، يكون مفتقداً الجودة والتزام هذه «الإشكالية» معاً فيعتذر فريق التحرير عن عدم نشره.

وفي كل الأحوال، لم تكن هذه المسألة سهلة قط، لا سيما أن المتخصصين في بعض الموضوعات أو القادرين على الأقل على أن يضعوا أبحاثاً قيِّمة قلة. وبالتالي، كانت نسبة من الموضوعات إما يكتبها فريق التحرير أو تكتبها دائرة ضيقة من المتعاونين الجادين، الذين يمكن أن يلاحظ القارئ المتابع تكرار أسمائهم في نسبة غير قليلة من أعداد المجلة. ولذا، فإن الدافع الأول لفكرة «قافلة الأبحاث» هو توسيع دائرة العرض على كتَّاب وباحثين أكثر، مع إتاحة الفرصة لهم ليطلعوا على قائمة طويلة من الموضوعات التي يرغب فريق التحرير في تناولها. وبدل أن نقصد كاتباً واحداً بموضوع واحد، فإننا نضع أمام عشرات الكتَّاب عشرات الموضوعات.

ولم يكن بوسعنا، حين طرح برنامج «قافلة الأبحاث»، تقدير إمكان نجاح المحاولة. وكان التشاؤم طبعاً أقرب لأن يكون سيد الموقف في البداية، لا سيما ونحن فيما نحن فيه على مستوى القراءة، فما بالك بمستوى الكتابة.

وما إن مرَّ عددان أو ثلاثة على طرح «قافلة الأبحاث» حتى بدأت غيمة التشاؤم في الانقشاع، وبدأت وتيرة المشاركة تزداد ازدياداً لافتاً. وأخذ الإسهام من داخل المملكة وخارجها في التعاظم، حتى أنه ما من عدد من القافلة بات يخلو من ثلاثة أو أربعة موضوعات أساسية جاءت من طريق «قافلة الأبحاث».

وفيما كان فريق التحرير يراقب بترحاب هذه الظاهرة، كانت هناك ظاهرة «تجاوب» أخرى تحدث على خط متواز، ولكن من دون دعوة من المجلة. إذ لاحظنا بدء ورود مقالات وأبحاث إلى المجلة، لم يكن فريق التحرير قد طرحها أو فكَّر بها، إلا أنها تلبي نوع الطموح نفسه الذي رسمه لمسيرة التحرير، وتنطلق فعلاً من زوايا شيقة شبيهة بتلك التي كنا نرغب في معالجتها. وكان واضحاً من عناوين بعض هذه المقالات -أو هذا ما بدا لنا- أن أصحابها لاحظوا أسلوب تناول موضوعات المجلة وتجاوبوا معه ورغبوا في مجاراته.

ومع اتساع دائرة هذين المصدرين، ازداد تنوع الموضوعات التي تتناولها القافلة في مناخاتها الستة، كذلك تنوعت أسماء الكتَّاب أيضاً والأقطار العربية التي يكتبون منها. ولفتنا أيضاً أن نسبة المشاركة من داخل المملكة ازدادت أيضاً ازدياداً ملحوظاً. ولا شك في أن الوسائل الإلكترونية، من بريد إلكتروني ومواقع على الإنترنت، كان لها دور ملموس في نجاح هذه المساعي المختلفة، سواء ضمن قافلة الأبحاث أو في سياق البحث العام عن كتَّاب وموضوعات.

وتعترف القافلة على الرغم مما تلقاه من ترحاب واسع وثناء على جهودها من قرَّاء على مختلف دروب الحياة ومشاربها، بقصور ما في تفاعلها مع القرَّاء، إلا أنها ستظل دوماً معنية ليس فقط بتقديم مجلة تحوز اهتمام القارئ العربي المثقَّف، بل بتقديم أسلوب صحافي يحفز القرَّاء والكتَّاب على السواء على الاستمتاع بالقراءة، ثم بالكتابة، ليزيد ثراءُ التجربة ثراءً.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى..
رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

الأرقام القياسية

طالعت بشغف التحقيق المعمَّق عن «الأرقام القياسية إلى متى تحطم؟» المنشور في العدد 5 (سبتمبر-أكتوبر 2006) من مجلتكم الغرَّاء.. والذي عالج كاتبه الموضوع بالتفصيل، معززاً بالأمثلة ونتائج دراسات وأبحاث عديدة. ومن دون مبالغة، فقد سجلتم في نشره سبقاً وخطوة لافتة على غرار مبادراتكم دائماً إلى معالجة أفكار غير مطروقة. وأحيي بالمناسبة هذا الجهد، خصوصاً وأني قد قرأت في الأسبوع الأخير من العام الميلادي المنصرم تحقيقاً موجزاً نشرته وكالة الأنباء الألمانية عن نظريات علمية خاصة بالأرقام القياسية في الجري تحديداً، استناداً إلى دراسة أجراها أستاذ للرياضيات في جامعة تيبرغ الهولندية، وأظهرت بعض فقراته ما كنتم نشرتموه في التحقيق «الأرقام القياسية إلى متى تحطم؟». لذا سررت كثيراً بهذا الطرح الذي عالجته القافلة.

سامر مولى
لبنان

الملف المصور

يسرني إعلامكم أنني من المواظبين على قراءة «القافلة» فور صدورها، وأود الإشارة إلى أنكم نشرتم في العدد 1 المجلد 56 يناير-فبراير 2007 موضوعاً عن أعمال الفنانة السعودية هيفاء المطوع في باب :الفاصل المصور». لقد كان بحق موضوعاً شيقاً وممتعاً في جمالية اختيار الصورة والكلمة القصيرة المرافقة، ليظهر من على صفحات المجلة ذات الطباعة والإخراج الأنيقين.

ليث رافع آل جعفر
بغداد

غذاء وصحة

يسعدني دائماً تواصلكم معنا من خلال هذه المجلة ذات المحطات المتنوعة والمشوقة، التي يجد القارئ فيها المتعة والفائدة، وهذا بفضل الله ثم بفضل جهودكم الموفقة أنتم وسائر فريق العمل. ولدي اقتراح عسى أن يجد القبول وهو أن يكون ضمن محطة (بيئة وعلوم) أو أية محطة أخرى (غذاء وصحة) لما لهذا الموضوع من أهمية وحيوية.

بخيت عبدالله الغامدي
الطائف

انطباعات مشتركة جديدة

وصلني العدد الأول من المجلد 56، وهو أول عدد من القافلة يقع بين يدي، بعدما كان أحد الأصدقاء قد أرسل لكم اسمي وعنواني، وكان وصوله مفاجأة، لأني لا أعرف مجلة أخرى تهتم بتوزيعها مجاناً كما هو حال القافلة.
بداية، اسمحوا لي أن أسجِّل إعجابي بأسلوب إخراج هذه المجلة، وإنتاجها على هذا الورق الفاخر اللمَّاع والطباعة الجيدة والصور الواضحة والتجليد المميز.. إنها تحفة فنية رائعة إلى جانب كونها واحدة من رسائل الثقافة والمعرفة، لدرجة جعلتني أقف منبهرة أمامها، وأقضي بعض الوقت وأنا أتأمل جمالها، وأتلمسها، قبل أن أملأ عيني بما كتبه المبدعون فيها.
أعجبتني صفحة «زاد العلوم» وقصة ابتكار «الباركود».. وأسجِّل قمة إعجابي وتصفيقي الحار للفنانة المصورة هيفاء المطوع. أما باب صورة شخصية فقد أثَّر بي كثيراً بقصة السيدة سلطانة رضا التي كانت مثالاً للشخصية القوية المكافحة التي لا تهزّها الأزمات.. أقدم لهذه السيدة كل الأماني الطيبة بالتوفيق فيما تسعى إليه بعملها الدؤوب في مجال فعل الخير ومساعدة المحتاجين.
وأحيي كذلك من كتب حول رواية «الدخول إلى زرقانة». استمتعت بقراءة كل ما جاء في هذه المقتطفات من تحليل وحكايات حول هذه المدينة الأسطورية.
ولو قمت بالحديث عن كل صفحة في القافلة، لطالت الحكاية وطالت معها رسالتي، لذا أكتفي بتوجيه تحياتي لكم، وخالص شكري وتقديري لأنكم راسلتموني فلا تنسوني لاحقاً.

نادية محمد كشاكة
طرابلس - ليبيا



توضيح..
البيت للحزين الكافي

وردتنا رسائل عديدة من قرَّاء علَّقوا على بعض ما جاء في ديوان الأمس المنشور في العدد السابق من القافلة، وأوردت فيه الكاتبة نجاح طلعت بيتاً من الشعر على أنه قيل في بعض من بني أمية، وهو:

يُغْضي حَيَاءً ويُغْضَى من مَهَابَتِه   فَمـا يُكَلَّـمُ إلاّ حيـن يَبْتَسِـمُ

ويقول أصحاب هذه الرسائل إن هذا البيت هو للفرزدق وأنه قد جاء ضمن قصيدته الشهيرة «هذا الذي تعرف البطحاء وطأته» التي يمتدح فيها الإمام زين العابدين رضي الله عنه.
وبإحالة هذه الرسائل إلى الكاتبة، أكدت أن مصدرها فيما كتبت كان كتاب «الشعر والشعراء» لابن قتيبة المتوفى سنة 276هـ.
وتقول الكاتبة إن ابن قتيبة لم يكن وحده في ذلك. إذ إن الآمدي في كتابه الموثوق «المؤتلف والمختلف» يقول إن هذا البيت، وبيتاً يسبقه يقول:

في كفِّـهِ خيـزرانٌ ريحـه عَبِــقٌ   من كفِّ أروع في عِرنينه شمـمُ

هما للحزين الكناني، وليسا للفرزدق. كما أن أبا الفرج الأصفهاني افتتح أخبار الحزين في كتاب «الأغاني» بهذين البيتين، وقال: «وقد رُوي هذان البيتان للفرزدق في الأبيات التي مدح بها زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، وهو غلط».
ويحدد الأصفهاني في كتابه المقصود بـ «بعض بني أمية» الوارد عند ابن قتيبة، فيقول إنه عبدالله بن عبدالملك بن مروان، ويروي المناسبة التي قال فيها الحزين هذين البيتين.

عسل التلوث النانوي

قرأت موضوع «التلوث النانوي» الذي كتبه عبود عطية في العدد 1 من المجلد 56، ولكن الموضوع رغم أهميته، لم يشبع نهمي، ولم يجب عن كل الأسئلة التي أثارها في عقلي. ولذلك بحثت، ووصلت إلى ما قد يهم أصدقائي قرَّاء القافلة:

ومن دون الغوص في تاريخ اكتشاف هذه التكنولوجيا الجديدة، أقول إن لكل شيء في هذه الدنيا فوائده وأضراره ومحاسنه ومساوئه، وهذا حال تكنولوجيا النانو التي لها فوائدها ومخاطرها.

وقد أوضح عطية بعض أنواع وأشكال التلوث النانوي، وأنا أؤيده ضد كل ما يضر ببيئة الإنسان وصحته. ولكنني أيضاً، وبالقوة نفسها، أؤيد كل ما من شأنه تطوير حياة الإنسان إلى الأفضل، ودعوة العلماء إلى الاهتمام في تجاربهم العلمية، وعلى كل المستويات، بالتركيز على الاستخدامات المفيدة، ومحاولة تقليل الأضرار والمخاطر حتى أدنى حد ممكن.

وأرى أن من حق الإنسانية على العلماء في كل مكان وزمان أن يبذل هؤلاء كل ما في وسعهم لجعل المستقبل أفضل، وسبل المعيشة أسهل، والبيئة المحيطة به أحسن وأجمل. وفي سبيل ذلك، لا بد للبشرية من تحمل بعض المتاعب وبعض التضحيات، إذا وضعت أمامها المثل القائل: لا بد لمن يجني العسل من بعض لسعات إبر النحل.

ملاك ميخائيل شنوده عبدالله

الاسكندرية، مصر

الهندسة الوراثية والملكية الفكرية

أثار انتباهي ما نشر في العدد 1 المجلد 56 الصادر في شهري يناير/فبراير 2007 حول «الملكية الفكرية في عصر التكنولوجيا» وأود أن أبعث بهذه الكلمة التي لها صلة بالموضوع وتحمل عنوان «الهندسة الوراثية والملكية الفكرية» واقتبست جزءاً كبيراً منها من مجلة العلوم الفنلندية.

كيف بدأت القضية؟

عام 1967م، رفع أطباء جامعة كاليفورنيا الأمريكية خلايا من نوع نادر من أنواع السرطان هو سرطان خلايا الدم الشعري، من طحال رجل الأعمال الأمريكي «جون مور»، ومن هذه الخلايا التي تم زرعها وإدامتها مختبرياً فيما بعد، تم إنتاج عدد من البروتينات المضادة للبكتيريا ولبعض أنواع السرطانات.

وقت إجراء العملية، وكما تقتضي القوانين فإن جون مور قد وقَّع إقراراً باستخدام ما يرفع من أنسجة للأغراض البحثية. لكن في عام 1984م، تقدم الأطباء والباحثون الذين شاركوا بتلك العملية بطلب لبراءات ملكية لنسيج من خلايا جسده تمكنوا من زرعه وإدامته كل هذه السنين، وأطلقوا عليه اسم (mo cell lieu). وعند سماعه بالخبر رفع مور دعوى قضائية مطالباً بأحقيته ولو بنسبة قليلة من أرباح بيع هذه البروتينات «تصل إلى الملايين من الدولارات، مستنداً في دعواه إلى أن للفرد حقاً في استثمار أجزاء جسده».

في عام 1990م قررت محكمة كاليفورنيا العليا أن لا حق للمدعي في براءة ملكية النسيج المذكور لعدم وجود قانون بهذا الشأن، ولكنها قررت حقه بمقاضاته لأطبائه لأنهم لم يعلموه بالأهمية التجارية لخلايا جسده التي تم رفعها.

وفي الأول من مارس 1995م، وفي قرار تاريخي رفض البرلمان الأوروبي بأغلبية كبيرة 240 صوتاً ضد 188 صوتاً مشروع براءة ملكية الإنسان أو لأجزاء من جسده.

لكن في الولايات المتحدة الأمريكية، كان الوضع مختلفاً منذ زمن طويل. ففي عام 1971م حينما تقدمت شركة جنرال إلكتريك وأحد علمائها الشباب وقتها، وهو أناند شاكر أبارتي، وهو أمريكي من أصل هندي، بطلب براءة لاختراع أو ملكية البكتيريا (كائن حي ابتدائي وحيد الخلية) لها قابلية على هضم الهيدروكربونات في النفط. وتم رفض الطلب أول الأمر، لكن الشركة رفعت شكوى للقضاء الذي قرر أن «البكتيريا آكلة النفط»، ليست طبيعية بل إنها مطورة من قبل هذا الباحث. أما كونها كائناً حياً أم غير حي، فلا يكون ذلك مهماً بقدر ما هي منتج يمكن أن يستثمر تدريجياً.

وفي عام 1985م قررت دائرة براءة الاختراع أنه بالإمكان إصدار براءة ملكية للنباتات والبذور والأنسجة النباتية. لكن هذا القرار لم يقترب من الإنسان لأن هناك اعتبارات أخلاقية مختلفة تماماً، ومذكرة بأن الفقرة الثالثة عشرة من الدستور المتعلقة بتحريم الرق تحول دون الولوج إلى مضمار الإنسان لأن براءات ملكية من هذا النوع عبودية بكل بساطة.

أحمد عدنان

تامبير - فنلندا

المشتركون الجدد

علي سليمان الوابل، الرياض - محمد ناجي الحرز، الأحساء - أحمد بن سليمان بن فهد الحراصي، سلطنة عُمان - كوليبالي سياكا، ساحل العاج - مريم عيسى العمران، الأحساء - عبدالله ناصر السريعي، أبها - فاضل بن يوسف الحمادة وخالد أحمد العكروش وعلي بن أحمد الصفار وصالح بن منصور العريني وعلي بن مبارك الدوسري، المؤسسة العامة للخطوط الحديدية - محمد عبدالله المسباح، تاروت - محمد بلقزيني، الجزائر - طواهري عبدالنور، الجزائر - عبدالقادر علي حسان، اليمن - خالد بن بدر أبو سعيدي، سلطنة عُمان - عباس أحمد القرين، الأحساء - راضي دخيل الله الدخيل الله، الأحساء - عبدالرحمن عبدالله الظافري، الرياض - محمد بكر مسلم، جزر القمر - حبيب الله شفيق عبدالجبار، مكة المكرمة - حسين رضا ياسين، أبو ظبي - سلمان بن صالح السلمان، القويعية - زيدي النذير بن محمد، الجزائر - نايف علي الداوود، الأحساء - سلطان فهد الغنيم، القصيم - جنان منصور أحمد، البحرين - عثمان محمد الزهراني، الباحة - يوسف أحمد الموسى وعلي أحمد الموسى وصلاح الفرحان، الدمام - صالح بن عبدالعزيزالزامل، الرياض - سعيد عبدالله وزنه، مكة المكرمة - محمد علي سعيد الغامدي، الباحة - ليلى محمد علي محمد، مصر - ماجد دخيل الله الحارثي، الطائف - إحسان العبيسي، الجبيل الصناعية - خديجة السالك، المغرب - عوض ناصر الحمدان، الأحساء - موسى العليان، جدة - إبراهيم حمزة نور، المدينة المنورة - خلف محمد الحربي، الرس - زيد بن سعد البركاتي، مكة المكرمة - سامي بن عاطف الشهري، تنومة - هادي بن علي الجمل، مكة المكرمة - مبارك عطا الله الجهني، ينبع البحر - محمد بن سيف الشعيلي، سلطنة عُمان - بركات محمد مهدي، الجزائر.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديلات، ونرحِّب بكم أصدقاء للقافلة التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قراء القافلة مدعوون للمساهمة في هذه المناقشات على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و 600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة لذلك.



«مبارزة»، رصد لتحولات اجتماعية وليس مجرد صراع بين الخير والشر

ورد في ملف «الشاحنة» المنشور في العدد الماضي من القافلة تعليقٌ للأستاذ إبراهيم العريس عن فِلم «مبارزة» الذي تكاد تقتصر أحداثه على محاولة انقضاض مستغرب لشاحنة ضخمة مجهولة السائق على سيارة أمريكية صغيرة، وتنتهي بسقوط مروِّع للشاحنة في وادٍ سحيق. واعتبر الكاتب أن هذا الفيلم يمثل صراعاً بين الخير والشر.

إن الكثير مما أورده الأستاذ إبراهيم كان صحيحاً وموفقاً من دون شك، وينقل صورة حية عن هذا الفيلم الفريد من نوعه. وربما تكون هناك قراءات مختلفة لما يمثله الصراع الذي دار طوال الفلم، لكني أرى أن هذا الصراع يتجاوز مسألة الخير والشر، ويعبِّر عن ظاهرة اجتماعية مختلفة تماماً.

فالفيلم من وجهة نظري لايكاد يكون صراعاً بين طرفين، بل خطراً من مصدرٍ مجهول يتهدد طرفاً معروفاً. والمجهول بطبيعة الحال هو «الشاحنة»، التي لاً نتعرف على سائقها طوال الفيلم، بل لا نراه بتاتاً. وليس في الفلم أي تلميح إلى سبب انقضاضه على السيارة الصغيرة، وهذا العزم الذي لا يلين على تحطيمها. ولم يترك لنا الفيلم أي مؤشر يساعدنا على اكتشاف ماهية هذه العدوانية، ولا ان نسبر أغوار هذا الخطر الداهم المجهول الدافع. فهو يبقى غامضاً مجهولاً، حتى بعد أن ينتهي تلك النهاية المأساوية التي وُفق الأستاذ إبراهيم في وصفها. ولهذا، فإن إبقاء المعتدي مجهولاً يجعله قابلاً لأن يكون مصادر مختلفة للخطر وليس مصدر خطر واحد ومحدد. الشيء الوحيد المعروف حوله هو أنه عدواني وقوي ولا يأبهً لأن «يشرح أسبابه» أو أن يعرِّف عن نفسه. لقد قرر أن يحطم السيارة الصغيرة وسائقها وحسب. ويصبح سبيلنا الوحيد لفهم ما يجري أمامنا هو أن نفهم أكثر وأكثر ماذا يمثل الطرف المعروف: صاحب السيارة الصغيرة وسيارته الحمراء، وردود فعله وأسلوبه في مواجهة «العدوان القائم».

يمثل هذا الرجل نمطاً معروفاً من الناس برز بشكل واسع في الساحة الاجتماعية الاقتصادية الأمريكية خاصةً في الستينيات، وهو البائع المتجول. وكانت هذه المهنة ملجأ لنسبة كبيرة من الأمريكيين الذين كانوا يطمحون إلى رفع مستوى معيشتهم وزيادة دخلهم بسرعة تسمح لهم بامتلاك «اللائحة المعروفة» وأسباب الحياة الرغيدة مثل تملك البيت بما يحويه من أثاث متوسط وأوانٍ وأدوات مطبخ حديثة تلح عليها الزوجة، وسيارة متوسطة، وقدرة على قضاء إجازة سنوية وغيرها. وكانت زيادة الدخل التي تسمح بها هذه المهنة التي تقوم على العمولة المتزايدة مع زيادة البيع، تعتمد على مدى نشاط البائع، الذي كان يُطالب بأن يحقق حجماً معيناً من المبيعات وإلا فقد فرصته. ولكنها



كمهنة تتيح جني مداخيل مفاجئة عالية، بقدر ما قد تسمح بانهيار مفاجئ في الدخل خاصة وأنها تقوم على كفاءة واحدة، وهي النشاط والإلحاح في السعي للبيع. وفي كل الأحوال، كانت هذه المهنة تمثل عملاً يحتاج إلى بذل نشاط لا يهدأ، وإلى جهد إقناعي ومسايرة لا تتوقف. وكلاهما منهك، ويحوِّل البائع إلى شخص هش يعاني من خواء داخلي رغم ما قد يحيط به نفسه من بريق في الملبس وغيره. وغالب الظن أن صاحبنا هذا -صاحب السيارة الصغيرة- هو من هذا النوع. وإلى جانب بذلته الأنيقة التي تبدأ في الاضمحلال مع السفر الطويل الذي يقوم به بين الولايات، نلاحظ أن سيارته سيارة متوسطة حمراء. وأظن أن في هذا دلالة. فهو مع زيادة دخله، حاول أن يقتني سيارة جديدة نوعاً ما، ولكن لم يكن بمقدوره اقتناء سيارة كبيرة، فاستعاض عن الحجم باللون الجذاب الذي يزيد من مظهر «نجاحه المهني».

لكن الأهم من هذا بالنسبة لفيلم «مبارزة» هو أن هذا النوع من الناس، مهما كان تقييمنا له على المستوى الإنساني، إنما يمثل نتاجاً لتطور اقتصادي اجتماعي، أهم وجوهه أنه غادر صفوف العمال العاديين الموظفين الراسخين، وانتقل اجتماعياً ونفسياً إلى شريحة اجتماعية جديدة غير منتمية، وتفتقر إلى التماسك. لقد غادر الحي الأصلي إلى الضاحية الجديدة المعروفة في الولايات المتحدة بـ «suburb» أو شيء من هذا القبيل. وهناك، يعتمد على نفسه وحسب. وقد «تمدَّن»، بمعنى أنه اكتسب تكويناً أملاه نمط الحياة الاجتماعية الجديد، وفقد بسبب هذا استعداداته القتالية نفسياً وجسدياً، وأصبح سهل التعرض للاعتداء، ولا يمتلك أدوات الدفاع عن النفس، بل هو يميل إلى تفادي الخصومات والمواجهات قدر المستطاع خوفاً من أن تعرقل مجهوداته اللاهثة خلف تأمين مستوى الدخل الذي يسعى إليه.

وإذا استحضرنا هنا مشهداً لحي من أحياء إحدى المدن الأمريكية، نستطيع أن نرى هذا الإنسان -الذي تظهر عليه من دون داعٍ في أحيان كثيرة، مظاهر الرفاهية المتزايدة- وهو يخرج من بيته كل صباح. نستطيع أن نرى كيف أنه «مكشوف» لأن يتعرض لمضايقات مختلفة من شباب الحي العاطلين من العمل كمثال، أو حتى العاملين في مجالات تتطلب جهداً «غير مترف» مثل مجرد البيع الجوال الذي يمكن من خلاله جني دخل وفير وسريع.

بل وربما نستطيع أن نتجاوز هذا النموذج المحدد، ونقول إن هذا الرجل صاحب السيارة الحمراء المتوسطة يمثل شريحة أوسع من مجرد شريحة

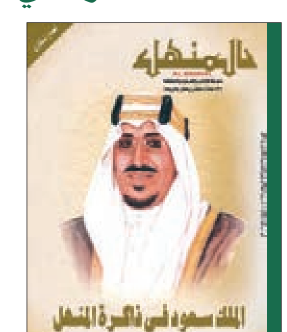
الباعة المتجولين الأمريكيين. شريحة «مدينية» فقدت العادات والقدرات التي تؤهلها لمواجهة اعتداءات عنيفة تتعرض لها بشكل عادةً ما يكون غير متوقع، من عناصر ناقمة عليها اجتماعياً لسبب أو لآخر. ونلاحظ صاحب السيارة الصغيرة يشعر بالدهشة، ولا يحاول أن يواجه صاحب الشاحنة بقدر ما يحاول تفاديه، أو أن يجد سبيلاً لأن يتخلص من هذا التهديد المفاجئ والغامض. وفقط حين ييأس من هذه المحاولة، نجده وقد أخذ يستجمع قواه وتفكيره ليواجه التهديد الذي يلاحقه من دون هوادة. ولابد هناك من مغزى لانتصاره في النهاية، وهو الذي أمضى الجزء الأول من «المنازلة» كالطرف الأضعف -بطبيعة الحال- والذي تهدد الشاحنة العملاقة سيارته الحمراء الصغيرة، إلا أنه كي يحقق هذا النصر فقد ضحَّى بسيارته هذه. هل لهذا معنىً رمزي أيضاً؟ لقد ضحَّى بالسيارة التي تمثل «الرفاهية السطحية» التي كان يزهو بالاستمتاع بها، واستعاد إنسانية كانت مطمورة تحت شخصية البائع «المصطنعة»، مستعيداً ثقته بكينونته كإنسان يدافع عن نفسه ضد اعتداء -وإن كان له مبرر أو تفسير أو لم يكن- إلا أنه اعتداء ظالم في نهاية المطاف.

كميل حوا

تعقيباً على ملف «الشاحنة»، القافلة عدد مارس-أبريل 2007

وردنا

• «الملك سعود في ذاكرة المنهل»

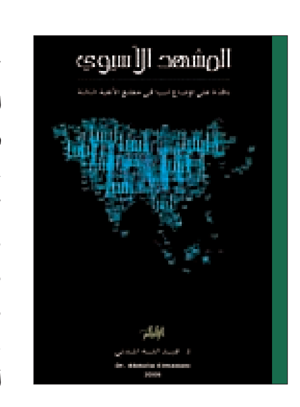


أصدرت مجلة «المنهل» لشهري أبريل ومايو من العام الجاري عدداً خاصاً إحياءً لذكرى جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود -يرحمه الله- بعنوان «الملك سعود في ذاكرة المنهل».

وتضمن هذا الإصدار التذكاري محاور عديدة تضفي عليه بعداً وثائقياً ومرجعياً، وهي: الملك سعود طفولته ونشأته، أحداث في ذاكرة التاريخ، إنسانيات ومآثر الملك سعود، كلمات للوطن (الخطب الملكية)، المراسيم الملكية والإنجازات، رحلات وجولات الملك سعود داخل الوطن وخارجه، الملك سعود بأقلام الروَّاد والأدباء والعلماء، مواقف في حياة الملك سعود (ملك ومواقف)، سعود الوالد، إنشاء مدارس تعليم البنات بالمملكة، الملك سعود في عيون الشعراء، الحركة الأدبية في عهد الملك سعود.

وقد كتب صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سعود بن عبدالعزيز افتتاحية العدد، ومما قاله فيها: «إن المنهل لم تتأخر يوماً منذ صدورها عن أداء رسالتها الإعلامية، حيث كانت مواكبة للأحداث التنموية في الداخل والجهود الدولية في الخارج لقادة بلادنا.. لذلك فإني لا أستغرب ما سيتضمنه هذا الإصدار التذكاري للمجلة من معلومات وصور أرشيفية موثقة سبق للمجلة نشرها في أعدادها القديمة، وهذا ما سيعطي القارئ فرصة للتعرف من خلال هذا الإصدار إلى إنجازات الملك سعود وكثير من جوانبه الإنسانية وخصاله الحميدة وحجم التضحيات التي قدَّمها من أجل خدمة وطنه وشعبه..».

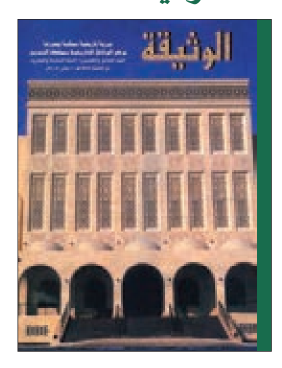
• «المشهد الآسيوي»



كتاب جديد للدكتور عبدالله المدني المحاضر الجامعي المعروف والمختص بالشؤون الآسيوية، يشكِّل فعلاً «نافذة على أوضاع آسيا في مطلع الألفية الثالثة» كما جاء تحت عنوانه الرئيس.

يقع هذا الكتاب الذي صدر مؤخراً في البحرين في 180 صفحة، وتتوزع فصوله على موضوعات عديدة أبرزها: مصادر الصراعات والأزمات في آسيا، أهم القضايا الإقليمية والصراعات الداخلية المسلحة، الأزمة المالية الآسيوية، القوى الآسيوية الكبرى: الهند والصين واليابان، السباق نحو القمة بين الهند والصين، ورؤية حول العلاقات العربية-الآسيوية.

• «الوثيقة»

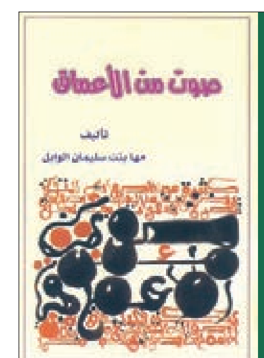


العدد الحادي والخمسون من الدورية التاريخية المحكمة التي يصدرها مركز الوثائق التاريخية بمملكة البحرين، ويرأس تحريرها الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة.

تضمن القسم العربي من هذا العدد سبعة موضوعات هي: مكتبة البحرين والمعنى الكبير، العلاقات السعودية البحرينية في عهد الملك سعود ابن عبدالعزيز، مغاص اللؤلؤ في البحرين، التنافس الأوروبي لاستعمار منطقة الخليج العربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، الامتيازات النفطية في سلطنة عُمان (القسم الثاني)، العلاقات القطرية-الفرنسية، ونخيل البحرين قديماً وحديثاً.

أما القسم الإنجليزي من العدد فتضمن ترجمة موضوع مكتبة البحرين والمعنى الكبير، إضافة إلى موضوعين آخرين هما: الحرف اليدوية القديمة فيما قبل الإسلام في شرق الجزيرة العربية، والصفوة الإسلامية في روسيا القيصرية.

• «وميض» و «صوت من الأعماق»



كتابان صدرا في وقت واحد للكاتبة مها بنت سليمان الوابل. ويتضمنان مجموعتين من المقالات التي سبق للكاتبة أن نشرتها في مجلة «الشقائق» وجريدة «اليوم»، وتتناول موضوعات شتى ما بين الثقافة والأدب والمجتمع والخواطر..

يقع وميض في 121 صفحة ويتضمن 41 مقالة (المجموعة المنشورة في جريدة «اليوم»).

أما كتاب «صوت من الأعماق» فيتضمن 33 مقالة في 100 صفحة (مجموعة مجلة «الشقائق»).

لماذا تفشل حملات التوعية المرورية..



ومتى تنجح؟






على الرغم من ضخامة الجهود المبذولة في مجال التوعية المرورية، إلا أن نسبة المخالفات والحوادث والوفيات الناجمة عن حوادث السير تكاد تقول بفشلها كلها تقريباً في العالم بأسره، وفي المملكة أيضاً حيث لا تزال نسبة الوفيات في هذا المجال تثير الخوف والحزن.

ومع العلم أن السلامة المرورية تتطلب تضافر عوامل ومؤثرات عديدة تشمل القوانين وتطبيقها وحال المركبات والطرقات وما إلى ذلك، تركز هدى صالح*، بمشاركة فريق التحرير، البحث هنا عن الدور المأمول من حملات التوعية الهادفة إلى تغيير السلوك كجزء من منظومة عوامل السلامة المرورية، وتبحث في جملة الأسباب التي أبقت تأثير هذه الحملات دون المستوى الذي يستحق الذكر، مواكبةً أسبوع المرور العالمي الأول بين 23 و 29 من إبريل، والذي ركَّز على سلامة الطرق لصغار السن حتى الرابعة والعشرين من العمر.

* باحثة اجتماعية

من ضمن الحملات الإعلانية، هناك مجموعة مميزة بمهمتها تهدف إلى توعية عامة الناس من خلال لفت انتباههم إلى خطر ما، أو دعوتهم إلى تغيير سلوك معين قد يضر بهم. إنها مجموعة «الإعلانات الصحية»، التي تندرج في إطارها حملة التوعية المرورية.

ولعل أفضل مدخل للحديث عن حملات التوعية المرورية قد يكون في مكان آخر، في حملة لقيت أصداءً واسعة، وحظيت بإجماع على أنها حققت حيزاً عريضاً من النجاح المرجو منها. فكثيرون يتذكرون الإعلان الذي بثته القنوات الفضائية للمرة الأولى عام 2001م، وعرف بخاتمته الشهيرة: «أقم صلاتك، قبل مماتك». كان هذا الإعلان التوعوي الأول من نوعه في الوطن العربي الذي وجد صدىً ورواجاً تجاوز المتوقع له. وقد ردَّ البعض نجاحه إلى معرفة منتجيه بطبيعة الجمهور الذي يتوجه إليه الإعلان، وقدرته على ملامسة أوتار حساسة في شخصية المشاهد العربي عامة والسعودي خاصة.

لندع التفاؤل، جانباً!

نستطيع أن نردِّد العبارة الشهيرة «الوقاية خيرٌ من العلاج» إلى أن تبح أصواتنا. وكلنا نقولها باقتناع، ذلك أنها بديهية عقلية لا يمكننا أن نجد سبباً منطقياً للاعتراض عليها.. إلا أن علماء النفس يحدثوننا عن «قناعة» أخرى، تعيش في الخفاء، تقضي على إيماننا بهذه العبارة. هذه القناعة هي وسيلة نفسية دفاعية، يسميها علماء النفس -كما ذكر الدكتور أحمد النابلسي في ورقة مقدمة إلى مؤتمر حوادث السير في دول الخليج للعام 2002م- بالتفاؤلية الدفاعية (Optimistic Bias)، وتدفعنا إلى التعرض للأخطار المختلفة، بدءاً بالسمنة، ومروراً بالتدخين، وانتهاءً بالحوادث المرورية، حيث نعتقد في قرارة أنفسنا أن كل الحوادث والأخطار تصيب الجميع، ما عدانا!

هذا الاعتقاد هو ما أطلق عليه عالم النفس رالف شفاتسر اسم «خطأ مونت كارلو»، حيث يظن الرابح في ألعاب الحظ والقمار، أن احتمال ربحه في المرات التالية لفوزه قد انخفض، وهذا غير صحيح بالطبع، إذ إن احتمال الربح يبقى وارداً نظرياً بغض النظر عن عدد مرات الربح والخسارة. ولا سبيل لمقاومة هذه التفاؤلية، إلا بمزجها بقليل من التشاؤم العقلاني إن جاز لنا التعبير، حيث لا يتَّبع المتفائلون الدفاعيون سلوكاً وقائياً سليماً إلا بعد أن يدركوا الخطر الذي يتهددهم، ويثقوا بقدرتهم على التصرف بنضج ووعي، وبالتالي بقدرتهم على تفادي هذه الأخطار واتقائها. وفي هذه الحال، قد تلعب وسائل الإعلام المختلفة دوراً فاعلاً في تفعيل وعي هذه الشريحة وغيرها من الشرائح المستهدفة، بالمخاطر التي تشكلها الحوادث المرورية على حياتهم ونوعيتها.. ومن هنا، أتت أهمية الحملات الإعلانية للتوعية المرورية، خاصةً مع تنامي دور الإعلام كمصدر للمعلومات، ومن ثم قبوله -بدرجات متفاوتة- كمهندس لمنظومة القيم الشخصية، في مقابل تراجع دور الأسرة التي كانت القائم الأساس على هذا البناء.

القاتل الكبير: سوء التصرف

تشير الدراسات المرورية، ومن أولاها دراسة أجريت في سبعينيات القرن الماضي إلى أن 94% من حوادث الطريق تعود أسبابها إلى سوء تصرف مستخدمي الطرق، وتعود النسبة الباقية إلى عوامل خارجية كحالة السيارة أو ظروف المناخ. ومراقبة رجال المرور للطرق منعاً للمخالفات المرورية أمر مهم ومثمر. ولكن من المستحيل عملياً مراقبة كل سيارة على الطريق. لذلك، كان من المهم أن يكون كل سائق رقيب نفسه، باتخاذه القرارات الصائبة فيما يتعلق بأبسط قواعد المرور. فإن لم يكن السائق كذلك، يكون من بجانبه أو مرافقه في السيارة حسيباً عليه، وعلى الأمانة التي ائتمنه المجتمع عليها بالسماح له بالقيادة. إذ يبدو للعاقل أن من العبث أن تتحول منظومة مبتكرة عظيمة كمنظومة المواصلات البرية إلى سلاح يقتل ويؤذي وبأعداد مخيفة يكشف عنها تقرير صادر عن الإدارة العامة للمرور للعام 1427هـ، ويشير إلى أن ستة عشر شخصاً، أغلبيتهم من الشبان، يُقتلون بسبب الحوادث المرورية في المملكة كل يوم على مدار العام، أي بمعدل شخصين كل ثلاث



ساعات. والسبب؟ إساءة استخدامنا لهذه المنظومة. وهنا يمكن أن يتأتى لحملات التوعية المرورية الناجحة إصابة الهدف، ورفع مستوى الوعي بأهمية قضية السلامة المرورية لتصبح هماً عاماً يتسلل إلى مناقشاتنا في حياتنا اليومية مع أفراد الأسرة والأصدقاء، ويغير من مدى الأهمية التي نقيِّم بها سلوكياتنا على الطريق.

خطوات صغيرة تغيِّر الكثير

صممت منظمة الصحة العامة الكندية (CPHA) في أواخر العام 2005م مشروعاً بعنوان «الحشيش والقيادة» للقيام بحملة إعلانية توعوية ضد تدخين الحشيش قبل وأثناء القيادة. إذ إن الشبان الكنديين يتوهمون أن الحشيش مخدرٌ من دون أضرارٍ جانبية.

الخطأ البشري هو السبب الأول بلا منازع في حوادث السير. والراكب قرب السائق صاحب مصلحة ومسؤول عن حسن سير الأمور

ولتحقيق هدف المشروع، طبَّقت المنظمة عدداً من استراتيجيات التسويق التي تقوم بها الشركات التجارية عند تخطيطها لحملة دعائية لمنتج جديد. فقد دعت مجموعة من الخبراء في مختلف التخصصات كعلماء الاجتماع والنفس والتسويق وهندسة المرور للقيام بأبحاث ودراسات تستخدمها الحملة كأساس نظري لتحدد رسالتها والشريحة المستهدفة بالإعلان، بالإضافة إلى الطرق الملائمة للوصول إلى الهدف. وتضمَّنت الأبحاث دراسات حول إدمان الشباب الحشيش والكحول وتدخين التبغ، والشريحة العمرية التي تستخدم الحشيش تحديداً، وخطر الاصطدام تحت تأثير الحشيش، والضرر الواقع، ووسائل النقل المستخدمة من قبل هذه الشريحة، وما إلى ذلك من تفاصيل.. بعد ذلك، أجرت المنظمة مجموعة من اللقاءات مع الشبان المدمنين من طلبة الجامعة والمدارس الثانوية، للوصول إلى واقع تدخينهم لهذا المخدر وآرائهم حول القيادة تحت تأثير الحشيش. وبالنظر إلى نتائج الدراسات، وملخصات اللقاءات مع الشباب اتضح للجنة المنظِمة أن السبب الأساس وراء ممارسة الشباب للقيادة تحت تأثيره هو الوهم أن تدخين الحشيش لا يؤثر على تركيز ومهارة قائد السيارة، عكس الكحول مثلاً التي يقر الشباب أنها تؤثر على قدراتهم أثناء القيادة. وبتحديد أهداف الحملة، والاستجابة المطلوبة التي بواسطتها يدرك القائمون عليها أن الرسالة قد وصلت إلى الشرائح المستهدفة، كلفت المنظمة وكالة إعلانية مشهود لها بالكفاءة بتنفيذ الحملة.

قدمت الوكالة الإعلانية أربع أفكار رئيسة لإعلانات تلفزيونية عرضتها على اللجنة المنظمة. وكان من بين الأفكار الأربع إعلانٌ لقي اهتمام وإعجاب الشرائح السبع، وهو الإعلان المسمى «بلا عقل!» (Senseless!) حيث يظهر طياران في قمرة قيادة الطائرة، وهما يدخنان الحشيش، مع عبارة تتساءل: «إن لم يكن هذا منطقياً هنا، ما الذي يجعله منطقياً لك حينما تقود السيارة؟!». وتشير الإحصاءات إلى أن الحملة استطاعت أن تقلص عدد الشباب الذين يقبلون على تدخين الحشيش بنسبة 9% من مجموع نسبة الشباب البالغة35%.

ساعد اعتماد حملة «بلا عقل!» على الأساس النظري على النجاح في تغيير سلوك الشباب، حيث إن تحديد الأساس النظري (من نظريات علم النفس والاجتماع والتسويق وغيرها) صاغ الحملة بحيث التقطت الدافع الرئيس إلى قيام الشباب بالقيادة أثناء تدخينهم الحشيش. وبمراجعة مراحل تصميم هذه الحملة، يمكننا صياغة أركان تصميم الحملات التوعوية المرورية، وهي تكمن أولاً في تحديد السلوك الذي تهدف إلى تغييره، وماهي أكثر الشرائح العمرية قياماً به، ومن ثم القيام بالأبحاث والدراسات المعمقة لمعرفة النظم الاجتماعية والنفسية والمرورية وحتى التسويقية الحالية التي قد تمنع أو تشجِّع هذا السلوك.



وانتقاء الوسيلة الإعلامية كالتلفزيون مثلاً لا ينتهي باختيارها فقط، وإنما يمر بمراحل عديدة منها الوقت الذي يستغرقه الإعلان، وعادةً ما يكون أقل من دقيقة كبقية الإعلانات التجارية، والوقت الذي يبث فيه.. فبعض الحملات يعتمد بث إعلاناتها على النوايا «الطيبة» لمعدي البرامج التلفزيونية، فيبث الإعلان الموجه إلى شريحة الآباء مثلاً في البرامج الصباحية، وهي الفترة التي يتواجد فيها الآباء في العمل! وبينما ترتفع شعبية القنوات التلفزيونية الأرضية في بعض الدول ويصبح من المنطقي إدراج إعلانات الحملة في هذه القنوات، ينبغي على مصممي الحملة تحديد القنوات الأرضية والفضائية التي تصل إلى الشريحة المستهدفة بالإعلان لإدراجه فيها، فعلى سبيل المثال، أشارت دراسة أجرتها د. سهام الصويغ الأستاذة في جامعة الملك سعود، إلى أن القنوات التابعة للقمر الصناعي عربسات حازت على أعلى نسبة مشاهدة بين السعوديين (72%) وتأتي بعدها بفارق كبير القنوات الحكومية.

أهمية التعبير عن الرسالة

أما أهم ملامح الحملة على الإطلاق، فهو قدرتها على التعبير عن رسالتها بطريقة خلاَّقة. فقد قدمت وزارة الصحة الأسترالية في عام 1996م حملةً إعلانية للتشجيع على الامتناع عن التدخين بعنوان «أعذار»، حيث أظهر إعلان الحملة التلفزيوني شخصاً يجلس باسترخاء على أريكة، ويعدد أعذاره التي تمنعه من ترك التدخين: «تأخرت كثيراً على ترك التدخين»، «سأصبح بديناً»، «عندما أدخن أشعر بالاسترخاء».. وغيرها من الأعذار، وأمام كل عذر، يرد الشخص المقابل له، والذي لا نستطيع رؤيته بما ينقض عذره كأن يقول: «يمكنك الاستفادة من ترك التدخين حتى وإن كنت مدخناً لأربعين سنة». كانت نتائج الحملة مخيبة للآمال للغاية، ولم ينتج عنها تقريباً أي نتائج إيجابية. والسبب؟!

تشير دراسة إحصائية أجريت عبر الهاتف مع مشاهدي هذه الحملة إلى أن الإعلانات كانت «مفيدة» أكثر من اللازم! الإعلانات خاطبت عقولهم من دون أن تستثير مخيلتهم، أو أن تقدم معلومات جديدة لم يعرفوها من قبل.. وعند سؤالهم عما إن كانوا يتذكرون إعلاناً آخر للوقاية من التدخين، أجاب أغلب المشاركين في الإحصاء أنهم يتذكرون إعلاناً قدمته حملة التبغ الوطنية، حيث تظهر رئة مدخن في الإعلان وكأنها إسفنجة تعصرها يد، فيتصبب منها القطران الأسود.

تتطلب إعلانات التوعية العامة من المستهلك تغيير سلوكه، عكس الإعلانات التجارية التي تشجِّع المستهلك على الاستمرار في أكل البرجر مثلاً، ولكن تقنعه بأكل برجر من ماركة معينة بدلاً من ماركة أخرى. لذلك نجد أن تحقيق هدف هذه الإعلانات لا يتأتى برسائل إعلانية مبهجة أو مثيرة للضحك والابتسام كالرسائل التي ترسلها الإعلانات التجارية، أو رسائل عقلانية مليئة بالمعلومات التوعوية التي تناسب فكرتنا التقليدية عن فعاليات كفعالية «أسبوع المرور» على سبيل المثال. بل أثبتت التجارب أن الإعلانات التوعوية الناجحة، ومنها إعلانات حملات التوعية المرورية، تقوم على مخاطبة عاطفة المشاهد أولاً، وإثارة الخوف في نفسه من خطر ما ثانياً، وتطمينه في الإعلان نفسه وتقديم الأساليب التي تنفي أو تقلل من احتمالية حدوث هذا الخطر ثالثاً، بالإضافة إلى التأكيد على قدرته على تلافي الخطر. إلا أن هذه التجارب أيضاً أشارت إلى أن نوعية الإثارة ومداها تختلف من مرحلة عمرية إلى أخرى، فبالنسبة إلى بعض الشرائح العمرية قد



يكون مجرد الإشارة إلى احتمال حدوث الخطر كافياً لإثارة خوفها. أما البعض الآخر، فينبغي أن تكون جرعة الإثارة عالية كي يجذب الإعلان انتباهها.

وقد أشارت بعض الدراسات إلى أن طبيعة المعلومات الإرشادية قد تؤثر في نجاح الحملة بشكل كبير إن كانت المعلومات الواردة تتميز بالجدة واللماحية. فعلى سبيل المثال، قامت حملة حوادث النقل الفيكتورية (TAC) في أواخر ثمانينيات القرن الماضي وحتى عام 2001م بخمس وستين حملة توعوية ناجحة غيرت من شكل الكثير من الحملات الإعلانية بعدها. وهدفت الحملة إلى جعل أمن الطرق قضية اجتماعية بالدرجة الأولى، فتضاعفت الميزانية المخصصة للسلامة المرورية، وترافقت الحملة مع تقديم نظامين جديدين لضبط المرور أولهما يتعلق بمنع السرعة، والآخر باختبار القيادة تحت تأثير الكحول. كما تميزت الحملة، بالإضافة إلى مرافقتها للأنظمة المرورية الجديدة، باستخدام جميع الوسائل الإعلامية المتاحة كالتلفزيون، الراديو، الصحف وإعلانات السينما. واعتمدت على الأسلوب العاطفي المثير للخوف في التوجه إلى جمهورها، ولكن في الوقت نفسه، خلطت بعضاً من المعلومات الجديدة على الجمهور في هذه الإعلانات. فمثلاً، تخاطب عبارات بعض هذه الإعلانات الجمهور قائلة: «15 دقيقة للقيلولة، قد تنقذ حياتك بأكلمها»، «كل 5 كيلومترات أعلى من السرعة المحددة لك، تضاعف خطر إصابتك في حادث... السرعة ليست آمنة أبداً».

الفشل الذي لا يقتلني.. بالتأكيد يضرني

هناك ازدياد في استخدام حملات التوعية لبرامج السلامة المرورية بمختلف فروعها، ولكن الكثير منها يفتقر إلى دراسة واضحة وأساسية يعتمد عليها. وقد يقول البعض إن الحملة التي لا تصيب الهدف، لن تضره أيضاً، ولكن تتابع الأمور المنطقي يؤكد العكس. فالرسالة التي لا يقبلها المشاهد أو المستمع تدفعه إلى تعزيز سلوكه غير المرغوب فيه، وتجعله أعصى على التغيير، وأكثر مناعة أمام رسالة أخرى في السياق نفسه. فالرسائل الإعلانية التي توحي بانتشار ما يحذر منه الإعلان، ولنقل السرعة في القيادة كمثال، هو خطأ يقع فيه العاملون في مجال التوعية المرورية. حيث تلاحظ الدراسات أن جمهور الشباب مثلاً لا يتعامل بالجدية الكافية مع مثل هذه الإحصاءات. بل يؤدي الإعلان عن تفشيها إلى استسهالها وقبولها من قبل الجمهور. من ناحية أخرى، تضيع مثل هذه الحملات الاهتمام الجمعي الذي يمكن لرسالة ناجحة الحصول عليه. وهذا الاهتمام فائق القيمة كونه يوجه المجتمع بشكل عام إلى قضية السلامة المرورية ويجعلها من أولويات الرأي العام. وتقلل الحملات الإعلانية الفاشلة أيضاً من المصداقية والثقة التي يمنحها الناس للجهة المرسلة. فإن فقدت لجنة السلامة المرورية مثلاً صدقيتها في أعين الجمهور، فكيف يمكن لأية جهة أخرى أن تحل محلها، وأن تتولى أمراً مثل هذه الحملات؟

بالإضافة إلى ذلك، تتطلب حملات التوعية المرورية، خاصة الطويلة منها، مبالغ لا يستهان بها. فالحملة الإعلانية التي أقامتها الحكومة النيوزيلندية مثلاً تجاوزت كلفتها تسعة ملايين دولار في السنة، وتتراوح تكاليف الإعلان الواحد بين 50 و80 ألف دولار في العادة، ويمكن أن تصل إلى 270 ألف دولار في بعض الحالات.

«فكِّر!».. دعوة بريئة وماكرة في الوقت نفسه!

ربما تابع البعض منا باستغراب إعلانات تبثها قناة فضائية خليجية تخصصت ببث الأفلام والبرامج الترفيهية الغربية.



ركَّزت هـذه الإعلانات علـى السلامـة المرورية، وكانت معنونـة بكلمة « فكِّـر!» (THINK!) كعلامـة تجارية لها. والحقيقـة أن الكثير منَّا اعتقد أن هـذه الإعلانات كانت مـن تصميم وإنتـاج القناة. واستغـرب بعضنا استخدام القنـاة للغة الإنجليزية وحدها لغةً للإعلان، إلا أننا أثناء البحـث في موضوع الحملات المرورية، وجدنا أن «فكِّر!» هي حملة السلامة المرورية البريطانية التي انطلقت في عام 2000م.

تهدف الحملـة المتفائلـة الجريئة إلـى أن يتقلص عدد الحوادث المرورية حتى يصبح أقل بنسبة 40% في العام 2010م، وهـي نسبة جريئـة نظراً لأن بعض الدراسات تشيـر إلى أن نتائـج الحملـة الناجحة للغاية قد تحقق تراجعـاً فـي نسبة الحـوادث يقدَّر بـ 20% فقط. ولكن القائميـن على حملـة «فكِّر!» يعتمدون فـي مطلبهم هذا علـى أسس منطقية منها تحقيق قسم السلامة المرورية في بريطانيـا انخفاضاً في نسبة الوفيـات يقدَّر بـ 39% بين السنـوات 1987م وحتى العـام 2000م، ومنها طول مدة الحملة واستمراريتها على مدى أعوام عشرة، ومنها أيضـاً اعتمـاد الحملة علـى تقديم قوانيـن جديدة كلما استدعـت الحاجة لضبط السلامة المرورية. إذ أظهرت الدراسـات أن الحمـلات الناجحـة هي التـي توفق بين التوعيـة المرورية، وبين الرقابة المرورية الصارمة على سلوك الجمهـور. ويتضح ذلك في تراجع نسبة الحوادث فـي منطقة الرياض تحديـداً مع انطـلاق حملة «يكفي» للتوعيـة المرورية في مايـو 2006م، حيث رافقها تطبيق صارم لكل القوانين والأنظمة المرورية.

نجاح يقظ.. على مدار الساعة

لا يعود نجاح «فكِّر!» إلى تميز إعلاناتها فقط. وإنما أيضاً إلـى قدرتها على التنكر والتحول من لجنة حكومية مملة، إلـى هيئـة ناشطة خـارج الإطار في الإعـلام البريطاني والعالمي، فقـد أكد 86% من المشاركيـن في الاستفتاء السنـوي لعـام 2006م أنهم يثقون بأي إعـلان أو معلومة عليها شعار حملة «فكِّر!».

وقد وصلـت العلامة المسجلة المرحة إذا جـاز لنا التعبير «فكِّر!» إلـى الشباب والمراهقين كدعـوة بريئة وخالية من المواعظ، ولكنها بالتأكيد مليئة بالحس الإنساني، والتقرب إلـى المتابـع.. آملـةً أن يكون هذا هـو الطريق إلـى التأمل والتفكير، ومن ثم اتخاذ القرار الصائب.





google

واستطاعـت «فكِّـر!» أيضـاً أن تحقـق هذا النجـاح عبر متابعة يقظة لـكل ما يجد من متغيـرات فـي سـوق الاستهـلاك المروري علـى حـد تعبيرهـا. وبمتابعة آخـر إعلان صممتـه اللجنـة، نستطيع أن نـرى ملامح هذه اليقظة. الإعـلان صوره بالكامل شاب تحـت العشريـن بواسطـة كاميـرا الفيديو لهاتفه المحمـول، وهي المـرة الأولى التي يتم فيهـا تصوير إعـلان بأكملـه بواسطة الهاتـف المحمـول. ويظهـر فـي الإعـلان مراهق يستمتع بالحديث مع أصدقائه بينما



يمشـون عائدين من المدرسة، وعندمـا يحاول بطل الإعلان عبـور الشارع، يتشتـت انتباهه بمداعبـة أصدقائه، ثم يعود لينظـر في اتجـاه ليتأكد من خلـوه من السيـارات، فتفاجئه سيارة قادمة من الاتجاه الآخر.

متابعـة «فكّـر!» للمسائـل الصغيـرة التـي تطـرأ علـى ساحة السلامـة المروريـة أشـارت إلـى أن نسبة كبيرة مـن حوادث المراهقين سببهـا انهماكهم بالأحاديث الجانبية مع زملائهم أو عبـر هواتفهم المحمولة أثنـاء عبورهم للشارع، ولذلك كان هـذا الإعلان. ونلاحظ في هذا الإعـلان أيضاً ملمحاً آخر من نجـاح الحملـة، وهـو أن إعلانـات الحملة تصور أبطالاً ينتمون إلى الشريحة العمرية التي يستهدفها الإعـلان، وتتواجد في كثير مـن الفعاليـات الموجهـة إلـى الشريحـة المستهدفة، فهي راعٍ رسمي لبطولة الركبي البريطانية، والدوري البريطاني.

لا بدَّ من مخاطبة السائق في أسباب عدم التزامه بأنظمة السلامة، لا في سلوكه الظاهر فقط

ويحرص القائمـون علـى الحملـة في حال انتقاء أحد المشاهيـر ليمثل هذه الشريحة علـى ألا يكـون طبيباً يـداوي الناس وهو عليـل، فيدعوهم إلى سلوك ما، ويخالف دعوته في حياته الشخصية.

ويتوقع المراقبون أن تُحدث خطـوة «فكِّر!» القادمة نقلة نوعية فـي ساحة التوعية المروريـة. إذ أدى نجـاح الإعلان المصور بكاميـرا الهاتف المحمول، والذي شارك في تصويره مجموعة مـن المراهقين، إلى تقديـم مسابقة جديـدة برعاية الحملة، وبمشاركـة «إم تـي فـي» (MTV)، القنـاة الأكثـر شعبية بين الشباب. تدعو هذه المسابقة المراهقين بين عمر 12 و16 سنة إلى تقديـم أفكار إعلاناتهم الخاصة عـن السلامة المرورية. وستقـوم لجنة مـن القناة والحملة، باختيـار 18 فكرة من هذه الأفـكار، ودعـوة أصحابها إلى لقـاء تعده القنـاة و «فكِّر!» مع شركتـي الإعلانات الشهيرتين «كارات» (Carat) و «ليو برنت» (Leo Burnett)، حيث سيطور الشباب مع الخبراء أفكارهم، وتُحكَّـم النصوص والأفكار لاختيـار أفضل ثلاثة. وسوف يقوم الثلاثـة الأوائـل بتصوير إعلاناتهـم، ومن ثـم ستعرض على القناة، ليصوِّت أقرانهم لاختيار أفضل إعلان.

«يكفي».. هل تكفي؟

وفي المملكة العربية السعودية، تشكلت اللجنة الوطنية لسلامة المرور بمدينـة الملك عبدالعزيز للعلـوم والتقنية لتكون هيئة بحـث علمـي ميدانـي تقـوم بمعاونـة الإدارة العامـة للمرور، وذلك من خلال إجراء أبحاث فـي الجوانب المختلفة لسلامة المـرور. ومن هذه الأبحـاث، رعت الجهة بحثـاً لتقويم برامج التوعية المرورية في العام 1410هـ قدمه الدكتور خالد السيف كباحـث رئيس، مع مجموعة من الباحثيـن المشاركين، أجري علـى عينة مـن الجمهور مكونـة من 1550 شخصـاً من خمس مـدن رئيسـة هي تبـوك والدمـام وجـدة والرياض وأبها من بين طـلاب المدارس المتوسطة والثانوية وطـلاب الجامعة. وأظهـر البحث أن 80% من العينـة لا تسترعي برامج التوعية المروريـة اهتمامهـم، أما النسبة الباقيـة (20%) فاسترعت انتباههـم البرامج التلفزيونية مثـل برنامج (قف/ سلامتك/ احـذر تسلم)، وأظهر البحث أن عـدم اهتمام العينة بالبرامج التوعويـة يعود إلى اقتناع عام لدى السعوديين بمفهوم القضاء والقدر، مع عـدم ربطه بقوله -صلى الله عليه وسلم- (اعقلها وتوكل) والأخذ بالأسباب.

وعندمـا طلب الباحثـون من عينـة البحث تقديـم اقتراحات لتفادي الحـوادث المرورية، احتل التركيز على برامج التوعية المروريـة قاع التوصيات. أما الاستبانـة التي قدمها الباحثون إلى الجهات القائمة على برامج التوعية المرورية، فقد قدمت نتائـج مثيـرة للدهشة، فـ 60% مـن الإجابات عـن الاستبانة أشـارت إلـى أن برامج التوعيـة الحالية كافية لإثـارة اهتمام

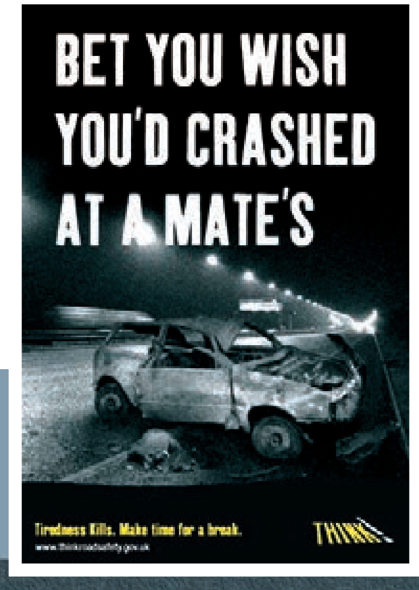


الجمهور بالتوعية المرورية، وأجاب 80% بأنه لا توجد برامج توعوية مرورية أخرى يودون تقديمها. وفي نفس الوقت، عندما سئلت هذه الجهات عما إذا كانت هناك أهداف محددة لبرامج التوعية المرورية التي تقوم عليها، لم يجب أكثر من 60% عن هذا السؤال، أو قرر أن الأهداف غير واضحة، بينما قرر الآخرون أن الهدف هو «رفع مستوى التوعية المرورية». وهذا الهدف كما أشار البحث، وكما تشير الدراسات، عام وغير محدد.. عكس الحملات المرورية التي توالت بعد ذلك، كحملة «حزام السلامة» التي انطلقت في عام 2000م لمدة تسعين يوماً، واستهدفت تحديداً ربط حزام الأمان، أو الحملات التي تلتها بعنوان «اعقلها وتوكل» و «اللبيب بالإشارة» وأخيراً حملة «يكفي» التي ركزت على قطع الإشارة، والسرعة الزائدة.

وأظهرت الدراسة أيضاً أن فعاليات أسبوع المرور، التي تشارك فيها دول مجلس التعاون الخليجي، لم تأتِ بنتيجة على الإطلاق. أما عن متابعة الجمهور للإعلام المروري إذا جاز لنا التعبير، فأظهرت الدراسة أن 7% فقط من الجمهور يهتم بمتابعته. ومن أسباب ضعف اهتمام الجمهور بمثل هذه البرامج ضعف المادة الإعلامية المرورية شكلاً ومضموناً، وهي نتيجة طبيعية لعدم وجود مخططين استراتيجيين لمثل هذه الحملات (حتى العام الذي أجريت فيه الدراسة 1410هـ)، وضعف الميزانيات المخصصة لهذا الغرض.

وأظهرت الدراسة أيضاً أن البرامج التلفزيونية التي قدمت في تلك الفترة للتوعية المرورية، ومن أهمها برنامج (قف!) كان يهتم بالسلوك الظاهر أكثر من اهتمامه بالنواحي الداخلية لهذا السلوك. فعلى المواطن ربط الحزام، وعلى المواطن تجنب السرعة الزائدة مثلاً. ولكن البرنامج لم يخاطب المواطن ويتجاوز الأسباب التي تجعله لا يربط الحزام أو يتجاوز السرعة المحددة. وأيضاً، كانت هذه البرامج تركِّز على «السلوك الحسن» وتحاول تنميته، من دون أن تركِّز على أن المواطن قد لا يكون أساساً ممارساً لهذا السلوك الحسن.

أضف إلى ذلك أن تأثير هذه الحملات، كما تشير الدراسات، لا يتجاوز تقليص عدد حوادث المرور في العادة خلال إجرائها 8.5%، وقد ترتفع النسبة بعد انتهاء الحملة لتصل إلى 14.8%. وقد تبدو نسب كهذه من بعيد ضئيلة وغير فاعلة بشكل حقيقي.. ولكن إن اقتربنا أكثر لنعرف ما وراء هذه الأرقام، فسنعرف أنها فرصة لا يستهان بها ليحتفظ أحد منا بعزيز له إلى جانبه. حملة «يكفي» للتوعية المرورية، والتي أقامتها لجنة السلامة المرورية السعودية في ربيع الآخر من العام 1427هـ، والتي استمرت لمدة شهر حفظت للمملكة 99 عزيزاً، أي أنها خفضت نسبة الوفيات بمعدل 4.2% عن العام السابق للحملة 1426هـ. هؤلاء الأعزاء الذين لن يقدر لنا أن نعرف من هم ولله الحمد، يستحقون منا الفرح لأجلهم ولأجلنا، والرغبة في مواصلة حملات التوعية على مدار العام وتحسين أدائها ونوعيتها.





google

قول في مقال

الثقافة العلمية.. مسألة واردة

بموازاة الانتقادات الكثيرة الموجهة إلى حال البحث العلمي في الوطن العربي، وحال العلوم العربية عموماً، هناك غياب ملحوظ للاهتمام بقضية نشر الثقافة العلمية الذاتية والحض عليها. وهذا ما يتناوله هنا عبدالرحمن بن يحيى المحيا*، مشيراً إلى مكانة الثقافة العلمية الذاتية، ومصادرها المتوافرة أمام الجميع.

عندما سافر الأديب الكولومبي جابريال جارسيا ماركيز من لوس أنجلوس الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الأحد، ليصل طوكيو الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الإثنين، في رحلة استمرت 11 ساعة من النهار المتواصل، اكتشف بأن ليلة ضاعت من عمره إلى الأبد متحسراً على حلم تلك الليلة الضائعة. وقد تساءل كيف يسافر الإنسان بالكونكورد من باريس عند الساعة الحادية عشرة ويصل نيويورك عند الساعة الثامنة صباح اليوم نفسه، وبعد أن يتناول الإفطار في باريس يعود فيتناول إفطاره في نيويورك في اليوم والساعة نفسيهما.. هذه هي عجائب الفيزياء التي قال عنها ماركيز إنه لم يفهمها، رغم شروح زملائه العلماء بكل وسائل الإيضاح.

تلك المفارقات اللطيفة التي نتقبلها بشكل تلقائي تذكرني دوماً بدور الثقافة العلمية الحيوي في حياتنا. وقد برز في الآونة الأخيرة موضوع نشر الوعي العلمي كمحور في الخطط التنموية، وكموضوع العديد من الندوات والنشاط الثقافي بالسعودية والخليج.

لكن من المثقف وما الثقافة العلمية؟ لا يوجد هنالك إنسان مثقف وآخر غير ذلك فالكل يحمل ثقافة بيئته. إن الثقافة كما يشرحها مالك بن نبي هي الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معين وسلوك الفرد فيه بطابع خاص، يختلف عن الطابع الذي نجده في حياة مجتمع آخر.

أما الثقافة العلمية فهي مزية إضافية لفكر وسلوك الفرد، ونقصد بها معرفة طرائق ونتائج العلوم الأساسية والإلمام بالتقنيات المرتبطة بحياة الفرد والمجتمع والقدرة على فهم ومتابعة المستجدات وممارسة منهج التفكير العلمي في الحياة اليومية، ومجال كل ذلك هو الذهن والسلوك الفعلي. ويشمل مفهوم الثقافة العلمية المعارف البينية التي تربط العلوم الطبيعية بالإنسانية باعتبارها أدوات ضرورية لوصف العلم بصورته الواقعية، من دون الحصر في ضيق التخصصات.

وتنشئ الثقافة العلمية في البيئة والمجتمع حافزاً للنشاط العلمي. وقد بدأت الحركة العلمية المرتبطة بالعلوم والتقنية الحديثة في بلاد العرب بعد غزو نابليون لمصر، ومع انتشار المطابع في مصر وبيروت. إلا أنه قد شاع في تلك الفترة (أثناء ضعف الدولة العثمانية وبعد زوالها) الخرافات والشعوذة والبدع التي كانت معاول هدم للمنهج العلمي، بالإضافة إلى انتشار الجهل والأمية، مما جعل الحركات العلمية نخبوية وفي نطاقات ضيقة وما زال الوطن العربي فاقداً للأمان العلمي والتقني، منذ غزوة نابليون وحتى غزوة بوش الابن، رغم الجهود التي ظهرت بعد منتصف القرن العشرين إلا أن جذور الضعف العلمي تبقى قائمة.

وقد صار الحديث عن قلة الإنفاق العربي على البحث والتطوير وندرة مصادر التمويل وارتباطها بالحكومات موضة دارجة، وهي حقيقة واقعة. غير أن الحديث عن الحلول نادر جداً. وأعتقد أن جزءاً من الحل يكمن في شريعة الوقف الإسلامي المعطلة حالياً والتي تكفل مشاركة المجتمع بالإنفاق المباشر والعمل التطوعي في مراكز الأبحاث، وتحرر الباحثين من الاتكالية السقيمة على الموازنات الحكومية.

إن عوامل الضعف الذي يعتري العلم في الوطن العربي يرجع لأسباب ثقافية في الدرجة الأولى مع أن الإسلام يشمل كنوزاً من المحفزات الداعية للعلم والبحث، لكن المسلمين يبقون مترددين في مجال البحث، متجاهلين الدعوة الإلهية والتوجيهات النبوية التي جعلت من العلم فريضة وليس ترفاً كمالياً.

مصادر الثقافة العلمية

ليس هنالك من منهج محدد لبناء الثقافة العلمية، لارتباطها بالرغبات الذاتية للفرد، ولتأثير التخصصات العلمية والإنسانية في

* مهندس إنتاج طاقة

تشتيت القولبة الهيكلية، وهذا اختلاف سنني إيجابي لأهمية كل فرع علمي. وسأعرض هنا بعض المصادر التي كان لها أثر في تغذية الثقافة العلمية عموماً.

أول مصادر المعرفة العلمية هي الكتب. ولاشك في أن الكتاب المدرسي له تأثير بنائي مهم، والجميع يدرك سلبيات مناهج العلوم والرياضيات العربية ولا مجال للخوض فيها الآن. ويكفي أن نعرف أن مناهج العلوم هي أداة لتكوين منهج عقلاني لدى الفرد، وليس المنهج المدرسي وحده كفيل بخلق ثقافة علمية، لكنه يؤسس قاعدة لوجود مجتمع علمي عريض يملك ثقافة تولد حراكاً فاعلاً يسهم في المسيرة الحضارية.

ولفهم الكتاب العلمي، لابد من مفاتيح، وكلما ملكت مفاتيح أكثر حصلت على معرفة أكبر. واللغة هي المفتاح الأول. فلو أتقنت اللغة الإنجليزية مثلاً، فتح لك باب واسع من المعرفة. والرياضيات هي ثاني المفاتيح التي تدخلك عالم المنطق والتفكير المجرد.. عالم مجاله الذهن وأبعاده لا حدود لها، تستطيع وصفه على الورق بالأرقام والرموز والرسوم وهو من آيات الأنفس التي جعلها الله في العقل البشري. وثالث المفاتيح هي مهارات البحث والاتصال، ومن ذلك مهارات البحث على الإنترنت ومهارات القراءة السريعة التي باتت ضرورة في خضم هذا الانفجار المعلوماتي، بالإضافة إلى تكوين علاقات مع المجتمع العلمي. وربما امتلك البعض هذه المفاتيح ولكنه فاقد للرغبة المعرفية.. إن الإرادة هي المحرك الحقيقي لبناء المعرفة الذاتية والقراءة وقودها والكتابة قيدها.

لكن ماذا تقرأ؟ المجالات عديدة وشيقة فهنالك كتب لتبسيط المفاهيم العلمية وهذه المداخل تعطي معرفة مختصرة، وهي من أساسيات الثقافة العلمية. أذكر منها كتاب «الفيزياء للأدباء» للعالم السعودي خضر الشيباني وهو ناشط في مجال تبسيط العلوم. وهنالك كتب فلسفة العلم التي قد تتطلب قراءة عميقة وأذكر منها كتاب صلاح الجابري بعنوان «فلسفة العلم»، وكتاب الفيزيائي السعودي جاسم العليوي بعنوان «العالم بين العلم والفلسفة». والثقافة العلمية تقتضي معرفة تاريخ تطور العلوم كإرث إنساني شاركت فيه كل الحضارات. ومن المهم الاطلاع على كتب المستقبليات التي أبدعها الأمريكي ألفين توفلر والياباني ياما جوشى. كما أن التقنية لها تأثير مباشر على الاقتصاد، ويبين ذلك كتاب موجز مثل «تاريخ الفكر الاقتصادي: الماضي صورة الحاضر». أما كتب الخيال العلمي فيمتزج فيها العلم بالأدب، وتكشف جوانب الخطر لبعض الأبحاث العلمية وتحوي تنبؤات للمستقبل العلمي بطريقة منهجية.

والمصدر الثاني للمعرفة العلمية هو الدوريات العلمية والتقنية التي تتميز بإيضاح الجديد من المكتشفات والأبحاث، وتعَرف الجمهور بالعلماء والمخترعين وتسهم في إيجاز وتبسيط العلوم. ونذكر منها مجلة «نيوساينتست» (Newscientist). أما الدوريات العربية فلمجلة العربي وقع خاص لدى المثقفين العرب لمحتواها الأدبي والعلمي. وقد اكتسبت مقالات الدكتور أحمد زكي شهرة واسعة، وقد كان رحمه الله رائداً في تبسيط العلوم. وهنالك أيضاً مجلة الفيصل العلمي، ومجلة العلم المصرية، والعلوم الكويتية، ومجلة القافلة الصادرة عن أرامكو السعودية. والجدير بالذكر أن عدد المجلات العربية ذات التوجه العلمي لا يتجاوز عشرين مجلة، كما أن مجلات المنظمات المهنية تقدِّم أحياناً مادة علمية وتقنية لا بأس بها، لكن ينقصها الاحترافية والاستمرار.

والمصدر الثالث هو البرامج الإعلامية الوثائقية مثل القنوات التلفزيونية كقناة ديسكفري ووثائقيات بي بي سي المتميزة والتي كان يعلق على مقاطع مختارة منها الدكتور مصطفى محمود في برنامج العلم والإيمان، وكان تعليقه بسيطاً ومباشراً.

والمصدر الرابع والأهم هو الإنترنت التي أصبحت متنفساً حقيقياً ومصدراً لا غنى عنه لأي مثقف، لما تحتويه من مواد كان الحصول عليها سابقاً غاية في الصعوبة والكلفة. إنها منحة علمية مجانية لمن يعرف استغلالها.

فتصور أنك تستطيع حضور درس في معهد MIT لأفضل العقول المتخصصة، ولو فات وقت الدرس بإمكانك تحميل الملف الصوتي أو الفيديو، وقد تقرأ النص لتنتقل بعدها بين صفحات أفضل معاهد وجامعات العالم وشركات التكنولوجيا ودور النشر والجمعيات والمنظمات غير الربحية التي تزودك بالكتب والمجلات المجانية. ليس ذلك فحسب، فقد أصبح العلماء والمفكرون ينشرون أبحاثهم مباشرة على مواقعهم الشخصية أو في مدوناتهم والأهم من ذلك إمكانية التفاعل والتحديث، حيث تستطيع أن تسأل وتعلِّق على ما بدا لك، إلا أن المستخدم هنا عليه أن يفحص المواد بنفسه ويتأكد من منفعتها وصدقها فلا رقيب سوى الذات. وخدمات الشبكة في تطور متسارع، فهنالك المجموعات البريدية والمنتديات والمدونات والموسوعات والمنشورات الإلكترونية مما يجعل المتابع في حيرة. عندها، لابد من تحديد الهدف وإدارة الوقت للوصول لمحتوى ذي قيمة نافعة.

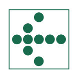
ختاماً أقدِّم خلاصة لأفكار قد تفيد في بناء وعي علمي ذاتي:

1. الحرص على امتلاك مفاتيح المصادر المعرفية.
2. طلب المصادر العلمية ومتابعة جديدها.
3. الوعي بالعملية الهندسية التي تبدأ من حاجات الناس الحياتية، التي توجه البحث العلمي المؤدي للتطبيق التقني والتسويق فالاستهلاك، ثم العودة للبحث والتحسين من جديد. إن المثقف علمياً يدرك أهمية تفاعله مع حلقات العملية الهندسية والتي هي مفككة عربياً نظراً لانفصال البحث الأكاديمي عن حاجات المجتمع، ولاستيراد تقنيات الثقافات الأخرى دون مواءمتها واستيعابها في العملية الهندسية المحلية. مما يؤدي إلى استمرار الاستهلاك بلا إنتاج فاعل.
4. تمثل السلوك العلمي بفهم التقنيات التي نتعامل معها يومياً.. أليس من الغريب أن نستخدم الفاكس وآلة التصوير والمايكروويف من دون وعي لمبادئ عملها؟ ثم نتسلق المنابر لإلقاء الخطب عن العلم والتقانة!

الأزمات تلعب دوراً في رسمها..

صورة البترول في الإعلام العالمي

البترول سلعة استراتيجية لها أهميتها الكبرى على الساحة الدولية، كما أنه سلعة استهلاكية تهم المواطن العادي في كافة دول العالم لجهة توافرها وسعرها وتقلب هذا السعر باستمرار. ولذا، كان من الطبيعي أن يلقى البترول اهتماماً إعلامياً متواصلاً بشكل يومي منذ عقود طويلة، خاصة خلال الأزمات. ولكن، كيف يتعامل الإعلام العالمي مع البترول إخباراً وتحليلاً؟ وكيف تظهر وسائل الإعلام صورة هذا المنتج الحيوي بالنسبة إلى الإنسانية جمعاء؟ وما مدى أمانتها وحفظها للحقيقة في ذلك؟ الدكتور إبراهيم بن عبدالعزيز المهنا* يجيب عن عدد كبير من هذه الأسئلة في دراسة قدَّمها إلى المنتدى الإعلامي السنوي الذي عقدته الجمعية السعودية للإعلام والاتصال مؤخراً في الرياض، وهنا ملخص عنها.



يعود الارتباط الوثيق بين البترول والإعلام إلى بداية القرن العشرين، عندما أصبح البترول سلعة مهمة وبالذات في الولايات المتحدة، حيث قادت بعض الصحف الأمريكية حملة إعلامية قوية ضد شركة ستاندرد أويل، التي يملكها جون روكفلر، متهمة إياها باحتكار السوق الأمريكية والتلاعب بالأسعار، مما أدى آنذاك إلى صدور أمر قضائي بتفكيك شركة ستاندرد أويل إلى أكثر من ثلاثين شركة مستقلة.

كانت تلك الحملة الإعلامية بداية النظرة السلبية لدى وسائل الإعلام والرأي العام الغربي، وبالذات الأمريكي، تجاه البترول وصناعته وملكيته، مع ربطه بنظرية المؤامرة (اقتصادياً وسياسياً)، وربطه كذلك بالثراء الفاحش السهل للأفراد العاملين والمالكين لهذه الصناعة والدول والولايات المنتجة. وخلال الستينيات الميلادية بدأت حملة إعلامية ضد شركات البترول العالمية، التي عرفت فيما بعد بالأخوات السبع، متهمة إياها بالتحكم في السوق العالمية واحتكار الإنتاج والأسعار. وخلال السبعينيات وأوائل الثمانينيات، اشتدت الحملة الإعلامية الغربية السلبية ضد البترول وكانت موجهة ضد دول الأوبك، وبالذات الدول العربية المنتجة للبترول. وكانت دوافع تلك الحملة سياسية، نتيجة للمقاطعة العربية لتصدير البترول إلى بعض الدول الغربية التي ساندت بشكل مباشر إسرائيل في حرب أكتوبر 1973م، وارتفاع أسعار البترول بأكثر من ثلاثة أضعاف، أعقب ذلك قيام الدول الصناعية الغربية بإنشاء وكالة الطاقة الدولية في عام 1974م كمنظمة تمثِّل الدول المستهلكة ومضادة لمنظمة الأوبك.

وخلال السبعينيات، عادت إلى الظهور بقوة فكرة قرب نضوب البترول، كما أن الثورة الإيرانية في عام

* مستشار بمكتب معالي وزير البترول والثروة المعدنية بالمملكة العربية السعودية



1979م، أدت إلى انخفاض إنتاج إيران من البترول من ستة ملايين في اليوم إلى ثلاثة ملايين، وتلتها بعام الحرب العراقية/الإيرانية التي أدت كذلك إلى انخفاض الصادرات البترولية العراقية، مما أسهم في ارتفاع أسعار البترول ثلاثة أضعاف. وخلال تلك التطورات، كان البترول يأخذ موقعاً متميزاً واهتماماً إعلامياً واضحاً في الإعلام الغربي. وقد قام الإعلام آنذاك بإعطاء صورة سلبية، وأظهر عداءً واضحاً للبترول وشركاته والدول المنتجة له، منادياً بعدم الاعتماد على هذه الدولة كمصدر للبترول.

السياسة ومواسم الانتخابات تحرِّك الإعلام فتحرِّك الكتابة في النفط.. فيكتب المتخصصون وغير المتخصصين

ومع انهيار الأسعار في عام 1986م انحسر الاهتمام الإعلامي الغربي بالبترول، وهدأت كذلك الحملة السلبية ضده. إلا أن هذا الاهتمام عاد مرة أخرى وبقوة بعد الغزو العراقي للكويت وتوقف الصادرات من كلا البلدين. ومع انهيار الاتحاد السوفياتي، بدأت بعض وسائل الإعلام التركيز على فكرة أن بإمكان الغرب الاستغناء عن بترول الشرق الأوسط من خلال الحصول على حاجة الدول الغربية من روسيا ودول بحر قزوين، وبواسطة شركات البترول الغربية التي سيُفتح لها المجال للعمل هناك.

دور السوق الآجلة في ربط الإعلام بالبترول

من أهم عوامل رفع درجة الارتباط مابين البترول والإعلام، ظهور السوق البترولية الآجلة (المستقبلية) في أوائل الثمانينيات في نيويورك ولندن، وتحولها إلى الأساس الذي يتم عن طريقه تسعير البترول حول العالم. وتعمل هذه السوق على مدار الساعة، ويعتمد المتعاملون فيها في عمليات البيع والشراء على المعلومة والخبر المباشر والسريع (البترولي، والسياسي، والعسكري، والاقتصادي). والواضح أن ظهور هذه السوق، والدور الرئيس للإعلام فيها، زاد حدة التنافس بين وكالات الأنباء لنقل الأخبار إلى هذه السوق، لدرجة أن للثانية الواحدة قيمتها في بث الخبر.

وتزامن ظهور السوق (المستقبلية) مع ظهور الإعلام التلفزيوني الإخباري، والذي يعمل على مدار الساعة وحول العالم، ويعتمد على التقنية العالية (سي إن إن، بلومبرج، سي إن بي سي). كما أنشأت وكالات الأنباء العالمية أقساماً مختصة بالطاقة، وظهرت وكالتان إخباريتان متخصصتان في البترول، (بلاتس، وبتروليوم آرقوس)، وبدأت بعض النشرات البترولية اليومية والأسبوعية باستخدام الفاكس لنقل الأخبار المهمة مباشرة وبشكل عاجل للمشتركين فيها.

هذه التطورات -بالإضافة إلى ظهور الإنترنت- أسهمت في زيادة الارتباط بين البترول والإعلام، وزيادة كمية الأخبار البترولية. إلا أن المنافسة الحادة من ناحية والتركيز في سرعة نقل الخبر، أضعفا جودة وعمق الأخبار والمعلومات والتحليلات البترولية التي تنقلها وسائل الإعلام المختلفة.

ولاشك في أن دور الإعلام (سلباً وإيجاباً) يتضح بشكل تام خلال الأزمات البترولية أو الأزمات السياسية أو الكوارث الطبيعية في المناطق الرئيسة المستهلكة أو المنتجة للبترول. ومن الممكن تعريف الأزمات البترولية بأنها حالة وجود شح طبيعي أو مصطنع في الإمدادات البترولية، تؤدي إلى ارتفاع أسعار البترول بشكل سريع وحاد، أو زيادة العرض بشكل كبير يحدث فائضاً ليس هناك حاجة له ومن الصعب تصريفه، والذي يؤدي بدوره إلى انخفاض حاد في الأسعار يؤثر في دخل الدول المنتجة، وفي صناعة البترول واستثماره في المستقبل.

وخلال الأزمات البترولية، أو خلال الأزمات السياسية في المناطق المنتجة أو المستهلكة الرئيسة للبترول، يصبح البترول قضية إعلامية رئيسة تأخذ حيزاً كبيراً في الصفحات الأولى من الصحف اليومية وأغلفة المجلات العامة. يكتب فيها المتخصصون وغير المتخصصين، ويصبح -حينئذ- كل محلل أو كاتب سياسي محللاً بترولياً.

مواسم الأحاديث غير العلمية

وخلال الأزمات البترولية يتحدث السياسيون بشكل غير واقعي وغير علمي عن البترول، حيث يتم الحديث عن الأفكار التي تعكس توجهاتهم الخاصة سواءً أكانت أيديولوجية أم سياسية، أم انتخابية. وتحظى هذه الأقوال بتغطية إعلامية كبيرة، وتسهم في إعطاء صورة سلبية عن الصناعة والسوق البترولية، وبالأخص على المديين المتوسط والطويل.

وخلال الأزمات البترولية أو السياسية يتم الابتعاد عن الواقعية والمنطق العلمي، حيث يتم التركيز على الإثارة الإعلامية التي قد تلقى قبولاً شعبياً أو سياسياً. فبدلاً من أن يسعى المسؤول السياسي أو الإعلامي إلى الرقي بالمستوى العلمي والمعلوماتي للقارىء من خلال إعطاء المعلومات البترولية الصحيحة، نجد أن العكس هو الصحيح.

تركيز على السياسة وإغفال الباقي

ومنذ نهاية الحرب الثانية في عام 1945م وإلى الآن، من الممكن الحديث عن ثماني أزمات بترولية رئيسة:



reuters

لهفة الإعلام إلى المعلومات النفطية كبيرة

1 - **حرب أكتوبر 1973م** حين أوقفت بعض الدول العربية الإمدادات البترولية إلى بعض الدول الغربية المتحالفة مع إسرائيل من أجل أن تضغط تلك الدول على إسرائيل للانسحاب من الأراضي العربية التي تحتلها. وقد صاحب هذا ارتفاع أسعار البترول، مع وجود أزمات في إمدادات البنزين، تأثر بها المواطن العادي في دول مثل الولايات المتحدة وهولندا. (طوابير الانتظار في محطات البنزين).
وبالرغم من أن السبب الفعلي لارتفاع الأسعار هو وجود أزمة في الإمدادات نتيجة لارتفاع الطلب خلال الستينيات وانخفاض الاستثمارات نتيجة لانخفاض الأسعار في تلك الفترة، وقيام الحكومة الأمريكية في تحديد الأسعار والإمدادات من المنتجات البترولية مع عدم إعطاء السوق حرية تحديد الأسعار، إلا أن حقائق السوق هذه وعلاقتها بارتفاع الأسعار لا تتم الإشارة إليها، حيث ينصب التركيز على الجانب السياسي فقط (وهو قيام العرب بقطع الإمدادات وبخفض الإنتاج).

2 - **الثورة الإيرانية في عام 1979م**، وإضراب عمال البترول هناك الذي صاحبه توقف أغلب الإمدادات الإيرانية وارتفاع الأسعار في الأسواق العالمية. وتلي ذلك بعام اندلاع الحرب العراقية الإيرانية والتي أسهمت في توقف جزء كبير من الإمدادات من كلا البلدين، ثم تضاعفت الأسعار مرة ثانية مع وجود شح في توافر البنزين في الولايات المتحدة (ظهور طوابير الانتظار لدى محطات البنزين مرة ثانية).

3 - **سياسات رفع كفاءة استهلاك الطاقة** في العربات والمنشآت من أجل انخفاض استخدام البترول في الدول الصناعية التي صاحبها زيادة الإنتاج من خارج الأوبك في النصف الأول من الثمانينيات. هذه التطورات أدت إلى انهيار السوق في عام 1986م وانخفاض الأسعار أربع مرات، وأدى ذلك بدوره إلى تدهور الأوضاع المالية لدى أغلب الدول المنتجة، وفقدانها لأهميتها الدولية.

4 - **الغزو العراقي للكويت صيف 1990م** وتوقف الإمدادات من البلدين بمقدار خمسة ملايين برميل يومياً فتضاعفت الأسعار وحدثت حالة من الخوف عالمياً من التأثيرات المحتملة على إنتاج وتصدير البترول من منطقة الخليج جرَّاء حرب تحرير الكويت.

5 - **ارتفاع الإمدادات البترولية وعدم الالتزام بحصص الأوبك في عام 1997م** وتزامن ذلك مع الأزمة الاقتصادية المالية الآسيوية، مما أدى إلى انهيار أسعار البترول وبحوالي النصف في عام 1998م.

6 - **الأزمات السياسية والبترولية المتتالية في أواخر عام 2003م والنصف الأول من عام 2004م**، نتيجة لنقص الإنتاج من فنزويلا ونيجيريا نظراً للاضطرابات السياسية، والغزو الأمريكي للعراق وتوقف صادراته. وقد تزامنت تلك المشكلات مع أزمة نقص الطاقة النووية في اليابان، وبرودة فصل الشتاء في الدول الصناعية. إلا أن وجود طاقة فائضة لدى بعض الدول المنتجة وطبيعة سوق البترول الدولية، قللت من آثار تلك الأزمة بالرغم من أهميتها، حيث لم تشهد أسعار البترول قفزات كبيرة كما حدثت خلال الأزمات الأخرى. هذه الحقائق وتلك المواقف الإيجابية يتم تجاهلها من قبل أغلب وسائل الإعلام الغربية آنذاك وإلى اليوم.



corbis

ارتباط رفاهية الإنسان المعاصر بالنفط.. هل يأخذها الإعلام بالحسبان

7 - **إعصارا كاترينا وأريتا في صيف 2005م**، اللذان أديا إلى انخفاض إنتاج خليج المكسيك من البترول الخام بمقدار مليوني برميل يومياً، وتعطل العديد من مصافي تكرير البترول في المنطقة بمقدار ثلاثة ملايين برميل يومياً. ونتيجة لذلك عادت ولأول مرة منذ الثمانينيات أزمة الانتظار في محطات البنزين في بعض الولايات الجنوبية. وهي مشكلة يتم التركيز الإعلامي عليها، مع اتهام شركات البترول الرئيسة بهذه المشكلة، مع أن الأزمة كانت محدودة جداً وفي عدد محدود من المصافي في ولاية نيو أورلينز، علماً بأن مصافي البترول التي رفعت الأسعار هي مصاف محلية يملكها مستثمرون محليون، وليست شركات البترول الكبرى. وبالرغم من شدة تلك الأزمات إلا أنه سرعان ماتم تعويض النقص، مما يدل على قدرة صناعة البترول العالمية على مواجهة أزمات كبيرة دون التأثير على الإنتاج والطاقة التكريرية، وهذه الصورة الإيجابية لم يتم تداولها لدى وسائل الإعلام.

لعب الإعلام دوراً في تكوين المواقف من النفط.. بل أسهم في رفع الأسعار وخفضها!

8 - خلال النصف الأول من عام 2006م، بدأ ينتشر عالمياً **شعور سلبي تجاه الإمدادات العالمية وتوافرها**، نتيجة للتطورات السياسية الخاصة بالعراق وإيران والحرب الإسرائيلية اللبنانية، والتخوف من محدودية الطاقة الإنتاجية العالمية الفائضة والحديث عن وصول الاحتياطي البترولي العالمي إلى ذروته وبداية انحدار الإنتاج. وقد أدت هذه الأفكار والتطورات السلبية إلى ارتفاع أسعار البترول إلى أكثر من سبعين دولاراً في صيف 2006م مع الاعتقاد بأن هذا المستوى المرتفع من الأسعار قد يستمر ليصل إلى أكثر من 100 دولار للبرميل.

نماذج من مواقف الإعلام تجاه هذه الأزمات

من خلال هذا الاستعراض لهذه الأزمات الثماني، يتبين لنا أن الاعلام لعب دوراً مهماً ومؤثراً في صياغة صورة عامة تجاه تلك الأزمات والشعور العالمي حولها، وسياسات البترول الخاصة بها. كما أسهم الإعلام بالتأثير في اتجاه الأسعار صعوداً أو انخفاضاً. وهذا الدور شمل كافة وسائل الإعلام، ومن ضمنها وسائل الإعلام الجماهيرية ووكالات الأنباء، ووسائل الإعلام المتخصص اقتصادياً وبترولياً. ومن الملاحظ أن دور أغلب وسائل الإعلام يميل إلى السلبية والتأجيج أو الاستفادة من الأزمات بدلاً من العمل على التخفيف منها، مع عدم إعطاء صورة موضوعية ومتوازنة للتطورات المختلفة والتركيز على الأفكار أو التطورات المتطرفة، أو من خلال صياغة الخبر أو التحليل بشكل مثير.. ومن الممكن الإشارة كمثال للدور السلبي الذي ركزت عليه العديد من وسائل الإعلام إلى القضايا التاليه:

أولاً: اتجاه أسعار البترول

الوضع المثالي الذي يفضله المستهلكون والمنتجون وصناعة الطاقة أن تبقى أسعار البترول مستقرة عند مستوى معقول من التذبذب، إلا أنه يحدث أحياناً -وخاصة خلال الأزمات البترولية- أن ترتفع أو تنخفض الأسعار بمستويات قد تصل إلى 50% أو أكثر خلال شهر أو ربما أسبوع واحد.. ومن المثير للاهتمام أن بعض وسائل الإعلام وبعض المحللين الذين يرغبون في بروز أسمائهم يركزون على قضية استمرار اتجاه السوق انخفاضاً أو ارتفاعاً مما يسهم في تفاقم هذا أو ذاك الاتجاه، ولعل آخر مثال على ذلك هو ماحدث في صيف عام 2006م عندما وصلت أسعار البترول 75 دولاراً وظهرت دراسة لإحدى المؤسسات الاستشارية المعروفة تتوقع استمرار ارتفاع الأسعار إلى أكثر من مئة دولار، وقد حظيت تلك الدراسة بتغطية إعلامية كثيفة، بالرغم من أنها مجرد اجتهاد، يقابله عشرات بل مئات من الاجتهادات الأخرى التي لم تعتقد ذلك، إلا أنها لم تحظ بنفس التغطية الإعلامية. فمن الواضح أن الآراء المتطرفة حول الأسعار تحظى بتغطية إعلامية واسعة.

ثانياً: محدودية الاحتياطي البترولي العالمي والوصول إلى ذروة الإنتاج

قضية وصول البترول إلى ذروته الإنتاجية نظرية لها أصولها العلمية، إلا أن الموضوع يصبح أحياناً موضوعاً سياسياً ذا إثارة صحفية أكثر من كونه نظرية علمية. ففي بداية عام 2006م، ومع ارتفاع أسعار البترول والحديث عن محدودية الطاقة الإنتاجية واستمرارية ارتفاع الطلب، بدأت هذه النظرية تأخذ حيزاً متميزاً من التغطية الإعلامية، وكان أكثر المؤيدين لها السيد/مات سمنز، الذي ركَّز في كتابته



الأزمات النفطية.. مكبّر صوت الإعلام البترولي

على أن احتياطي المملكة وصل إلى ذروته ليبدأ إنتاجها من البترول في الانخفاض. وقد حظيت أفكاره بتغطية إعلامية واسعة، بالرغم من أنه رئيس شركة مالية استثمارية وليس جيولوجياً أو خبيراً في المكامن النفطية. والأسوأ من ذلك أن العديد من وسائل الإعلام انحازت إلى فكرة ذروة الإنتاج بشكل متعجل وبدون معلومات مؤكدة أو تحليل منطقي علمي.

كتّاب غير متخصصين يتنبؤون بقرب نضوب البترول، من دون الاستناد إلى أية مؤسسة أو دراسة علمية

فعلى سبيل المثال نشرت صحيفة «النيويورك تايمز» في مجلتها الصادرة في (2005/8/22م)، مقالة مطولة حول الموضوع كتبها صحافي غير متخصص في القضايا البترولية هو بيتر ماس، تؤيد وجهة نظر قرب نضوب البترول السعودي، وخلال «التحقيق» الصحفي المطول، لم يستشهد الكاتب برأي أي من المؤسسات العلمية والجيولوجية المتخصصة في قضايا المكامن والاحتياطيات البترولية مثل الهيئة الجيولوجية الأمريكية، أو منظمة مهندسي البترول، بل ركّز على آراء غير علمية، ليصل إلى أن البترول السعودي في طريقه إلى النضوب، وأنه من غير المناسب الاعتماد على المملكة كمصدر مستقبلي للبترول، الأمر الذي يبين أن الكاتب كان له هدف سياسي وليس علمي. ولو لم تكن الظروف مؤاتية من حيث وجود «أزمة بترولية» آنذاك فمن غير المتوقع أن يتم إعداد ذلك التقرير أو يتم نشره.

ثالثاً : الطاقة الإنتاجية الاحتياطية الفائضة

تبرز خلال الأزمات البترولية المختلفة، قضية الطاقة الإنتاجية كموضوع رئيس مؤثر على السوق. ولاشك في أن هناك اختلافات كبيرة في تقدير الطاقة الإنتاجية الفائضة لكل دولة منتجة، إذ إن هناك أربعة مصادر لذلك:

أولاً: تقدير كل دولة لطاقتها الإنتاجية؛

ثانياً: تقديرات المنظمات الدولية مثل الأوبك ووكالة الطاقة الدولية؛

ثالثاً: تقديرات الشركات الاستشارية البترولية؛

والمصدر الرابع: هو تقديرات وسائل الإعلام، وخاصة وسائل الإعلام البترولية المتخصصة.

ودائماً ما يتم تدوير المعلومات مابين المصادر الثلاثة الأخيرة مع اختلافات بسيطة، حيث تميل هذه المصادر، وبالأخص خلال الأزمات البترولية المرتبطة بالإنتاج، إلى تقليل كميات الطاقة الإنتاجية الفائضة، مع تقليل قيمة مايصدر من معلومات في هذا الخصوص من الدول المنتجة، مما يسهم في تفاقم الأزمات. فعلى سبيل المثال بعد الغزو العراقي للكويت، كانت أغلب وسائل الإعلام تشكك في قدرة المملكة على الوصول بإنتاجها إلى 8.5 مليون برميل يومياً (ما عدا صحافي واحد، هو نيكلس مور من وكالة رويترز)، وثبتت صحة ماقالته المملكة بعد شهرين من الغزو العراقي. وكمثال آخر في عام 2006م، كانت وكالة الطاقة الدولية والعديد من وسائل الإعلام تُشكك في أن طاقة المملكة الإنتاجية تصل إلى 10.5 مليون برميل يومياً. وهي شكوك ليست صحيحة ولا تستند إلى معلومات داخلية حقيقية، إلا أن بعض وسائل الإعلام رددها لمجرد كونها صدرت من وكالة الطاقة الدولية، وهي منظمة تضم الدول الغربية الصناعية وتخدم مصالحها بالدرجة الأولى.

رابعاً : العلاقة ما بين البترول والسياسة

يتم النظر إلى هذه العلاقة بشكل سلبي في الغالب مع ربطها في كثير من الأحيان بنظرية المؤامرة. فالبترول


reuters


corbis

مع كل أزمة أو حرب تتكرر أزمات البترول.. وصورته السلبية في الإعلام أيضاً

بدون أدنى شك سلعة استراتيجية لها أهميتها السياسية والاقتصادية، إلا أن هناك سلعاً وصناعات أخرى كالغذاء والدواء قد تتفوق على البترول في الأهمية الاستراتيجية، إلا أنها لا تحظى بنفس الاهتمام الإعلامي وبالذات فيما يخص ربطها بالسياسة.

فخلال الأزمات البترولية، أو خلال الأزمات السياسية في المناطق المنتجة للبترول، خاصة في الشرق الأوسط، يزداد الاهتمام الإعلامي بالبترول وربطه بالتطورات السياسية، حيث تبرز حملة إعلامية غربية تتحدث عن أهمية تقليص الاعتماد على البترول، خاصة البترول المستورد من الشرق الأوسط. هذه الحملة السلبية، لا تأخذ في الاعتبار حقائق السوق البترولية العالمية من حيث عالميتها ووحدتها وتكامل كافة عملياتها، بل تركِّز على منطق القطبية والاختلافات السياسية (طرف مصدر للبترول قوي ومسيطر ولا يعتمد عليه، وطرف مستورد ضعيف مدمن على البترول وتحت رحمة الطرف الأول). هذه الحملة السلبية، يشعلها بعض السياسيين، وتروِّجها وسائل الإعلام، وكتَّاب الأعمدة الصحافية. غير أن هؤلاء يغفلون الدور الذي لعبه اكتشاف البترول في منطقة الشرق الأوسط في رخاء دولهم الاقتصادي.

قدَّم الإعلام خلال المئة عام الأخيرة صورة سلبية عن البترول ومالكيه.. وتزداد هذه النظرة السلبية قتامة خلال الأزمات البترولية

ومن أبرز الأمثلة على الحملات الإعلامية السلبية ذات الطابع السياسي خلال الأزمات البترولية، هو ما يقوم به الصحافي الأمريكي «توماس فريدمان» من خلال عموده الأسبوعي في صحيفة «نيويورك تايمز» والعديد من الصحف الأمريكية والعالمية. هذا الصحافي كان يطمح في شبابه إلى ردم الهوة بين العرب والإسرائيليين، ثم تحوَّل في منتصف عمره إلى تحليل العولمة كمنطق اقتصادي سليم وصحيح في عالم اليوم، إلا أنه انحرف مؤخراً عن فكرتي التوفيقية السياسية وعولمة الاقتصاد العالمي ليتبنى حملة عداء ضد استخدام البترول، مع الإيعاز إلى أن المشكلات التي تواجهها الولايات المتحدة (السياسية والاقتصادية) تعود إلى اعتمادها على البترول المستورد وبالأخص البترول العربي، علماً بأنه لا يوجد فارق بين البترول العربي والأمريكي عندما يتم إنتاجهما وبيعهما في السوق العالمية التي لا تفرق بين هذا وذاك.

فبشكل عام، قدَّم الإعلام خلال المئة عام الأخيرة، صورة سلبية عن البترول ومالكيه.. وتزداد هذه النظرة السلبية قتامة خلال الأزمات البترولية.. ويعود هذا إلى تطورات تاريخية مختلفة تمت الإشارة إلى بعضها. إضافة إلى ذلك، فإن وسائل الإعلام بما فيها من الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية غير المتخصصة، والقنوات التلفزيونية تعاني من أزمة عدم وجود إعلاميين متخصصين في المجال البترولي، وهي أزمة تعود إلى سياسات هذه الوسائل الهادفة نحو انخفاض التكلفة المالية من حيث عدم وجود المتخصصين المتفرغين ذوي الخبرة الطويلة للعمل الصحفي في مجال واحد مثل البترول، ولفترة طويلة. فعلى سبيل المثال، ماعدا صحيفة الوول ستريت جورنال، فإنه لا توجد صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية أو محطة أخبار تلفزيونية لديها صحافي بترولي متخصص قضى أكثر من سنوات خمس متواصلة في تغطية الصناعة والسوق البترولية.

أما وكالات الأنباء العالمية، وبالرغم من وجود متخصصين بتروليين لديها، إلا أن تركيزها على سرعة نشر الخبر، والإثارة وجذب الاهتمام، خاصة اهتمام المتعاملين في السوق الآجلة من حيث صياغة الخبر يُضعف من عمق وموضوعية أخبارها. وبالنسبة إلى الإعلام البترولي المتخصص، خاصة النشرات الأسبوعية، فإن هناك اختلافات واضحة في تغطيتها وموضوعيتها، ومصداقية أخبارها، وذلك تبعاً لمقدرة الصحفيين والمحررين العاملين فيها.

وقد قامت شركات البتـرول العالمية والوطنية والمنظمات والتجمعـات البترولية مثل منظمة الأوبـك ومعهد البترول الأمريكـي الـذي يضـم الشـركات البتروليـة الأمريكيـة الرئيسـة، بحملات إعلامية مكثفة مـن أجل إعطاء صورة إيجابيـة عن البتـرول. غير أن تأثير تلـك الحملات مازال محدوداً لعـدة أسباب، أهمهـا عمق النظـرة السلبية ضد البتـرول والمتكونة عبـر تراكمات زمنية تمتـد إلى حوالي مئـة عام. فعلى سبيـل المثال ، فإن منظمـة الأوبك قامت بدراسة عـن اتجاه الرأي العام حول البتـرول، فوجدت أن أكثـر الشعوب سلبية تجاه البترول هـي الولايات المتحدة، ثم أوروبا، أمـا أقلها من حيث النظرة السلبية فكانت آسيا وخاصة الصين والهند.

المطلوب: تركيز على الإيجابيات بدل الدفاع

ومـن المناسـب إعـادة النظـر فـي الحمـلات الإعلاميـة البتروليـة. فبـدلاً مـن الدفاع عـن البتـرول وصناعته يتم التركيـز علـى إيجابيات البتـرول، والدور الـذي تلعبه هذه الصناعـة في نمو ورخاء العالم، وعملهـا من أجل استقرار السوق. كمـا أنه من المهم توعية الصحفيين الاقتصاديين بـدور البتـرول، فهم في النهايـة حملة الرسالـة الإعلامية بسلبياتها وإيجابياتها.

والنظرة الإعلامية السلبية تجاه البترول في الوقت الحاضر تُركز على موضوعين رئيسين الأول: عدم مصداقية الاعتماد علـى البترول نظراً لأن مصدره منطقة الشرق الأوسط غير المستقـرة، أمـا الموضوع الثاني: فهـو أن البترول من أهم أسباب تلوث البيئة والاحتباس الحراري.

مـن الممكن تفنيـد هذين القوليـن، في حالـة وجود حملة إعلاميـة مضادة مكثفة وعلمية. ففـي الموضوع الأول، فإن السـوق البترولية هي سوق عالمية واحـدة، بحيث أصبحت عمليـة مصدر الإنتـاج والاستيـراد ليسـت ذات أهمية في اتجـاه السوق، علماً بأن دول الشرق الأوسط وخلال الستين عاماً الماضية، دائماً مـا تعوض النقص الحاصل منها، بل ومن مناطق أخرى حول العالم.

أمـا الموضوع الثانـي، فهو أن كميـة ثاني أكسيـد الكربون الصـادرة من البترول أقـل من كمية ثانـي أكسيد الكربون الصادرة من عوادم الفحم، والذي يحصل على دعم مادي في بعض الدول الصناعية. إضافة إلى ذلك، فإن الصناعة البترولية، ومن خلال التكنولوجيا الحديثة وليس من خلال ضرائـب إضافيـة أو أنظمـة تحد مـن استخـدام البترول، تستطيـع تقليـل العوادم المضـرة بالبيئة مثل ثانـي أكسيد الكربـون وبالأخص مع الدعم الحكومـي ومن خلال آليات التجميع والتخلص من ثانـي أكسيد الكربون.



دالاس.. أتذكرونه!

في بداية الثمانينيات الميلادية ظهر مسلسل تلفزيوني خيالي معادٍ للبترول باسم «دالاس» (Dallas) يتحدث عن عائلة أمريكية في تكساس تمتلك آباراً للبترول ولديها علاقات سياسية وتجارية داخل أمريكا وخارجها. وقد كانت تلك العائلة، حسب المسلسل التلفزيوني، تتميز بالفساد المالي والأخلاقي، وقد حظي المسلسل باهتمام جماهيري واسع داخل الولايات المتحدة وخارجها. كما كان من أكثر البرامج الجماهيرية عداءً للبترول.

أزمات بترولية.. لم ترفع الأسعار ولم تثر ضجيجاً

من المهم أن نشير إلى حدوث أزمات بترولية وأزمات سياسية في المناطق الرئيسة المنتجة للبترول خلال الخمسينيات والستينيات الميلادية مثل حركة مصدق في إيران وإيقاف إنتاج البترول، وتأميم قناة السويس في عام 1956م، والعدوان الثلاثي (بريطانيا، فرنسا، إسرائيل) على مصر في نفس العام، وحرب 1967م، إلا أن هذه الأزمات السياسية والبترولية، لم تؤدِ إلى ارتفاع أسعار البترول وذلك نتيجة لثلاثة عوامل رئيسة: أولها، الهيمنة الغربية التامة على صناعة وتجارة البترول؛ وثانيها، صغر السوق البترولية العالمية؛ وثالثها، استخدام نظام الأسعار المقررة مسبقاً وليس نظام السوق الحرة والمستقبلية كما هو حاصل حالياً.

الجهد المضاد يحتاج إلى المزيد

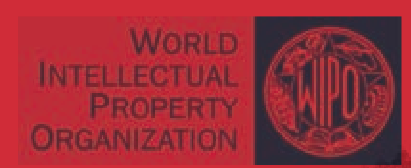
يقول الدكتور المهنا في دراسته هذه، إن وزارة البترول والثروة المعدنية في المملكة العربية السعودية، وشركة أرامكو السعودية، ومنظمة الأوبك، تقوم بحملات إعلامية كبيرة من خلال المشاركة في المؤتمرات الدولية ومن خلال العلاقات مع الصحافة الدولية والمحللين البتروليين. وقد نجحت هذه الحملات في تغيير بعض الأفكار السلبية عن البترول وعن المملكة ومنظمة الأوبك، إلا أن المهمة صعبة نظراً لوجود حملة مضادة قوية من ناحية، وعدم تعاون وتوحد آراء الشركات البترولية العالمية من ناحية أخرى. كما أن بعض التصريحات لاتسهم في تحسين صورة البترول وموثوقية الدول المنتجة، بل تؤدي أحياناً إلى العكس.

العلامة التجارية

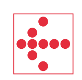
الفن الذي بات من أعمدة الاقتصاد

تحتل العلامات التجارية حيزاً كبيراً من اهتمام الشركات والعملاء على حد سواء. ويزداد هذا الاهتمام مع ازدياد معدلات الإنفاق وتعدد مظاهر الاستهلاك. وفي زمن العولمة وانفتاح التجارة والأسواق بشكل غير مسبوق، يصبح من الطبيعي أن يصل الاهتمام بالعلامة التجارية إلى ذروته، حتى أن البعض يراه هوساً..

الدكتور المعز بن مسعود* يعرض ماهية العلامة التجارية، والأدوار التي تلعبها والمكانة التي باتت تحتلها في اقتصاد اليوم.



* أستاذ الإعلام والإعلان والاتصال التسويقي بالجامعة التونسية



تعدّ العلامة التجارية أو الصورة البصرية واجهة الشركات على عدة مستويات. فهي تمكّن الشركة من تمييز منتجاتها أو خدماتها عن منتجات الشركات المنافسة أو خدماتها، وتساعد على توظيف أساليب التسويق على نحو أفضل. ولا تستعمل العلامة التجارية كأداة للتسويق فحسب، بل تعتبر أيضاً ضماناً للجودة.

فسلوك المستهلك -من خلال شرائه لمنتج أو خدمة معينة بصفة متكررة- قد يكون محكوماً بتأثير عنصر الجودة التي يتوقعها من العلامة التجارية التي يُقبل عليها. وهذا ما يدفع الشركات إلى اختيار العلامة التجارية المناسبة لها وتصميمها وحمايتها وتوخي الحيطة في استخدامها في الإعلان ومراقبة انتفاع الغير بقيمتها المضافة بطريقة مضللة أو غير سليمة.

ويوجد في العالم اليوم أكثر من أربعة ملايين من البراءات المسجلة السارية المفعول، إلى جانب أكثر من مليون من التصاميم الصناعية المسجلة.

تبدأ كل العلامات التجارية باعتبارها منتجات عادية لا فرق بينها وبين غيرها من المنتجات. ويعتمد نجاحها أو فشلها في السوق في هذه الحالة على جودتها وحجم استقطابها للجمهور المستهدف. وتتحقق القيمة المضافة للعلامة التجارية مقارنة بباقي العلامات، عند بلوغها درجة التميز التي لا نجدها في منتجات مماثلة لعلامات تجارية منافسة.

وتتعدد أنواع العلامات التجارية لتأخذ أشكالاً مختلفة. فمنها ما هو منفصل يرتبط بمنتج واحد أو خدمة واحدة، ومنها ما هو مرتبط بخط إنتاج كامل. فعلى سبيل المثال لا توجد علامة تجارية تسمى «بروكتر آند جامبل»، على الرغم من أنها شركة رائدة في إنتاج منتجات تحمل علامة تجارية شهيرة على مستوى العالم، ولكن يتم وضع علامة تجارية منفصلة لمنتجات هذه الشركة، مثل «فيري» أو «كريست» أو «بامبرز». وقد تكون هناك منتجات فرعية من كل منتج من هذه المنتجات، مثل «بوي بامبرز»... إلخ. أما بالنسبة للعلامة التجارية الخاصة بخط إنتاج كامل ففيها ترتبط مجموعة من المنتجات باسم محدد، مثل ميتسوبيشي اليابانية، وهي إحدى أكثر شركات العالم تنوعاً في إنتاجها الممتد من الأطعمة المعلبة إلى أجهزة الاستهلاك المنزلي والأدوات المكتبية إلى السيارات.

(1) المنظمة العالمية للملكية الفكرية هي منظمة دولية، مقرها جنيف بسويسرا، تهتم بتعزيز الاستفادة من إنجازات الفكر الإنساني وحمايتها.

ماهية العلامة التجارية وحدود اختيارها؟

وفقاً لتعريف «المنظمة العالمية للملكية الفكرية» (الوايبو WIPO)[1] فإن العلامة التجارية هي إشارة مميزة تحدِّد سلعاً أو خدمات معيَّنة على أنها تلك التي ينتجها شخص أو مشروع محدَّد أو يوفرها. ويرجع أصل العلامة التجارية إلى زمن بعيد، عندما كان أصحاب الحِرَف يوقِّعون على منتجاتهم الفنية أو المنفعية أو يضعون «علامات» عليها. وعلى مرّ السنين، تطورت تلك العلامات إلى نظام لتسجيل العلامات التجارية وحمايتها كما يعرف اليوم. ويساعد هذا النظام المستهلكين على تحديد المنتجات أو الخدمات وشرائها، لأن الطبيعة والنوعية اللتين تدل عليهما العلامة التجارية الفريدة تلبيان احتياجاتهم.



وتذهب بعض القوانين المنظمة للعلامات التجارية في البلدان الخليجية إلى تعريف العلامة التجارية بأنها «كل ما يأخذ شكلاً مميزاً من كلمات أو إمضاءات أو حروف أو أرقام أو رسوم أو رموز أو عناوين أو أختام أو تصاوير أو نقوش أو عناصر تصويرية وتشكيلات الألوان أو أية إشارة قابلة للإدراك بالنظر والعلامات السمعية والعلامات الخاصة بحاسة الشم أو أية علامة أخرى أو أي مجموع منها إذا كانت تستخدم أو يراد استخدامها في تمييز بضائع أو منتجات أو خدمات للدلالة على أنها تخص صاحب العلامة بسبب صنعها أو اختيارها أو الاتجار بها أو عرضها للبيع». فيما يعتبر القانون السعودي العلامة التجارية «كل شكل مميز يتخذ شعاراً لتمييز منتجات مشروع صناعي أو تجاري أو حرفي أو زراعي أو استغلال للغابات أو لثروة طبيعية، أو للدلالة على تأدية خدمة من الخدمات».



وتقـوم عملية اختيـار العلامة التجارية علـى إجراء دراسة دقيقـة وبحث مستمر للوصول إلـى مكونات العلامة الجيدة التي لم يسبـق استخدامها. ويخضع الاختيـار لعدة عوامل أبرزهـا التأكـد مـن توافـق العلامـة التجاريـة مـع جميع الشـروط والإجراءات القانونية، وعدم تشابهها أو تضاربها مـع غيرها من العلامـات التجارية الموجودة فـي الأسواق الخارجيـة، إلى جانـب سهولة كتابتهـا وقراءتها وحفظها، باعتبارها إحدى أدوات التسويق المهمة، وهي روح الارتباط بالمنتـج لدى المستهلك، وعامـل مساعد في تطوير الإنتاج وزيادة الاستثمار.

لا تبزغ الرموز الجيدة فجأة بل تتطلب الوقت الطويل والتفكير العميق والبحث لابتكار الرمز الذي يصوِّر الشركة

كما ينبغي التأكد -عند اختيار العلامة- من أن شـركات أخرى لم تسجِّـل العلامة التي وقـع عليها الاختيار أو العلامـات المشابهة لهـا بالنسبة إلى فئة المنتجات أو الخدمات والأسـواق المعنية. «ويمكـن الحصول على هـذه المعلومـات مـن خـلال إجـراء بحث فـي العلامات التجارية، علـى أن يكون هذا الإجراء مبكراً لتفادي أيـة منازعات قانونية وتأمين أفضل السبل لحماية العلامة التجارية».

بناء الصورة البصرية: فكر وفن وإبداع

«تقـوم العلامة التجارية أو الصـورة البصرية على أسس فنيـة كاملـة كأي فـن آخر، بل قـد تقدِّم لنـا جرعة فنية دسمـة مـن خلال حجمهـا الدقيـق علـى ورق الخطابات أو غيـره مـن المطبوعـات، إضافة إلى ما تثيـره فينا من تسـاؤلات وملاحظـات تحـرِّك خيالنـا وفكرنـا وبصرنا فـي كل الاتجاهـات، فلا نمل حتـى نفك شفرتهـا ونفهم رسالتها». ولا تبزغ الرموز الجيدة فجأة، بل تتطلب الوقت الطويـل، والتفكيـر العميـق والبحث لابتـكار الرمز الذي يصـوِّر ويصف بدقـة شخصية وخصائـص الشركة التي يعبِّر عنها.

إن إنشـاء علامة تجارية ليس بالأمـر الهيِّن إذاً، بل يتطلب وجـود شـركات متخصصـة أساسـاً فـي إبـداع العلامات الملائمـة لاحتياجات كل شركة بحسب مجال نشاطها. وقد يحمل تصميم العلامات التجارية معاني عديدة في مناطق مختلفة من العالم تبعاً للسوق ولأحكام وقواعد السوق الذي يجـري التعامل معه. وتكمن قوة تصميـم العلامة التجارية فـي ذلـك الأثر الذي تتركـه مكونات العلامة مـن رسوم أو كتابـات أو ألـوان...، فـي الإدراك الواعـي أو غيـر الواعي للمستهلك أو العميل. وقد يؤدي ذلك أحياناً إلى خلق علاقة عاطفيـة لا إرادية في ذهن المستهلك تبعث لديه الإحساس بالعلامة.

ولأن العلامة وليدة الابتكارات العقلية، فإنها غالباً ما تكون أقـرب إلـى شخصية المبتكـر، بل هناك مـن منح العلامة اسمـه أو لقبه على غرار العديد من العلامات المشهورة في مجالات الوجبات السريعة وصناعة السيارات.

وتقـوم الابتـكارات العقليـة للعلامـة التجارية علـى فصل عنصريـن أساسيين في تكوين العلامـة ولكنهما مرتبطان ارتبـاطاً وثيقاً، ومتكاملان يسيران معاً من دون أن يحيد الأول عن الثاني. ويتعلق الأمر هنا بـ «الصورة» و «التجربة».

فالصـورة تعتمد علـى التعبيرات الثنائيـة والثلاثية الأبعاد للعلامـة، في حين تتعلـق التجربة بتقديم مـا تعد الصورة بتقديمـه مـن خدمات ومنتجـات هي نتـاج نوعيـة وجودة التجربـة الكاملة للمؤسسة فـي مجال نشاط عملها. وبذلك يتحول الوعد (ما تعد بـه صورة العلامة) إلى واقع ملموس يعبِّر عن قـدرة العلامة، في مختلف أبعادهـا، على الإيفاء بوعودها».

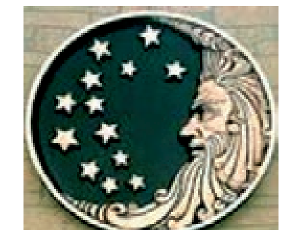
وعلـى الرغم من عدم وجود أية قواعد ثابتة وقاطعة لإنشاء علامـة تجاريـة أو تصميمهـا أو اختيارهـا، إلا أن هنـاك معاييـر ومبـادئ توجيهيـة مفيدة وجـب الالتـزام بها عند الشـروع في إنشـاء أو تصميم العلامـة، كأن تكون مكونات العلامـة سهلة القراءة والكتابـة والنطق والحفظ في جميع اللغات المعنية، وألا تحمل أي معنى سلبي في اللغة الدارجة أو أيـة دلالة غير مرغـوب فيها، وأن تكـون ملائمة لأسواق التصديـر دون أي معنى سلبي في اللغات الأجنبية، لا سيما

فــي حال تسويــق المنتج في الخــارج، وألا يترك أي غموض إزاء طبيعــة المنتــج، وأن تكون العلامــة ذات هوية واضحة وصيغــة مختصــرة قــادرة علــى التعبيــر عن خصوصيــات المنتج وصالحــة للاستخدام على جميع وسائل الإعلان.

وقد تشذ بعض العلامات التجارية عن قاعدة الالتــزام بالبعض مــن المعاييــر المذكورة آنفــاً، كأن تكــون العلامــة التجاريــة، علــى سبيل المثال، مبتكرة، اعتباطية أو إيحائية، ولكنها، على الرغم من ذلك ذائعة الصيت.

وتكمــن قيمــة الكلمــات المبتكــرة أو «الخياليــة» (كلمــات مخترعــة لا معنــى لها في أية لغــة مثل كــوداك أو إكسون) فــي سهولة حماية العلامة التجاريــة، حتى ولو تضمن ذلك أحياناً جانبــاً سلبياً يخص صعوبة حفــظ العلامة، مما قد يتطلب جهوداً جمة في الترويج للمنتج.

أمــا العلامات الاعتباطية فتتألف من كلمات لها معنى فعلي فــي لغة معيَّنــة، في حين لا تكــون لتلك الكلمــات معنى في علاقتهــا بالمنتج ولا بأية صفــة من صفاته (مثل الكمبيوتر «Apple»). وكما هو الحال بالنسبة إلى الكلمات المبتكرة، فإنــه من السهل توفير مستوى عــالٍ من الحماية لهذا النوع مــن العلامات. أمــا على مستوى الترويــج فقد يتطلب ذلك مجهوداً إضافياً في التخطيــط للحملات الترويجية لإيجاد ترابط في ذهن المستهلك بين المنتج والعلامة التجارية.



وأخيــراً، «تتجلــى منافع العلامات الإيحائية فــي أنها تؤدي عمــل الإعلانات وهي قــادرة على إحــداث ترابط في ذهن المستهلــك بيــن العلامــة التجاريــة وبعضــ الصفــات المطلوبــة فــي المنتــج. ومــن محاذيــر هذه العلامــات أنها قد توصف في بعضــ الأنظمة القضائية علــى أنها مفرطة فــي الوصــف أو أنهــا ليست مميَّــزة بدرجة تمكنها من استيفاء معايير حماية العلامات التجارية».

من مجرد صورة بصرية إلى أسطورة عابرة للقارات

تحاول بعض الشركات نقل سلعها إلى المستوى الدولي ومنه إلــى العالمية لتكون علامــة تجارية معروفة في العالم، غير أن الوصول إلى هذا المستــوى يستلزم وجود ميزة تنافسية محتملة، وضــرورة وجود قطاع تسويقــي ذي حجم مناسب فــي كل دولــة مستهدفــة. وقد اعتمــدت بعضــ المؤسسات الاقتصادية نظام «الفرنشايز» (كلمة فرنسية «Franchise» تعنــي «حرية التعامل») لتكتسح العديد من دول العالم. وقد مكَّــن هــذا النظام أو مــا يسمى بنظــام الامتيــاز التجاري العديد من العلامــات التجارية الذائعــة الصيت من حرية التنقل عبر العالم.

وتقــوم صناعــة «الفرنشايز» على أطــراف ثلاثة، هي مانح الامتيــاز، والمستفيــد منــه، وعقــد الامتيــاز. ويبــرم عقد الامتيــاز التجاري بين طرفين، فيعيــر على أساسه الطرف



الأول (مانح الامتياز) اسمه التجاري ونظام عمله للطرف الثاني المستفيد من التعاقد، مقابل نسبة من المبيعات، ويحقق هذا النمط من التعاقد مزايا عديدة أهمها انخفاض نسبة المخاطرة في المشروع.

وتحتل الولايات المتحدة الأمريكية المرتبة الأولى في هذا المجال. فمن بين كل 12 مشروعاً جديداً، ينشأ مشروع «فرنشايز»، كما أن لديها 1500 علامة تجارية يتم تداولها بنظام الفرنشايز، قدِّر إجمالي مبيعاتها بتريليون دولار عام 2005م، وتمكنت من خلق 10 ملايين فرصة عمل في العالم.

ويستحوذ نظام «الفرنشايز» على ثلث حجم السوق الأمريكي من السلع والخدمات، ويعمل به أكثر من نصف المليون من رجال الأعمال، ويغطي 75 صناعة وخدمة ما بين الوجبات السريعة، والمشروبات، والتعليم، والاتصالات، والصيانة، والترفيه...إلخ. وقد تحولت بعض العلامات التجارية إلى علامات أسطورية عابرة للقارات على غرار علامات بعض المشروبات الغازية المعروفة التي ظهرت خلال الأعوام 1885 و1890م بالولايات المتحدة الأمريكية، أو الوجبات السريعة التي ظهرت مع الأخوين موريس وريتشارد ماكدونالد، والتي أسهم في انتشارها لاحقاً «راي كروك» بعدما اشترى كل ما يملكه الأخوان ماكدونالد عام 1961م مقابل 2.7 مليون دولار. وتشير إحصاءات 2006م إلى وجود أكثر من 40 ألف مطعم من هذه العلامة التجارية في العالم، بطاقة تشغيلية تصل إلى أكثر من مليون موظف.

احتدم السجال بين العلامات التجارية من أجل هيمنة تقوم على بنية ورؤية معرفية ثقافية عقائدية سياسية اقتصادية منفعية

ويمثِّل نظام «الفرنشايز» حجم استثمارات كبيرة في العديد من البلدان العربية كالبلدان الخليجية وجمهورية مصر العربية التي وصل فيها الاستثمار في هذا المجال إلى أكثر من 5 بلايين دولار سنة 2006م. ويتيح هذا النظام للشركة المانحة التوسع السريع من دون الاحتياج لرأس مال كبير ولا أعباء إدارية كبيرة. كما يستفيد الممنوح من الخبرة الطويلة والسمعة الطيبة للعلامة التجارية بما يقلل نسبة المخاطرة في المشروع والعمل على مستوى تنافسي عالمي نتيجة تزويده ببرامج تسويقية وإجراءات تشغيل معيارية ومختبرة مسبقاً. كما يمكِّن، النظام نفسه، حامل الترخيص من الحصول على حقوق احتكار العمل داخل منطقة جغرافية معينة بمفرده.

ويلبِّي «الفرنشايز» رغبات المستهلك رغم تعقدها. إذ أصبح من السهل، على هذا الأخير، شراء المنتجات العالمية بأسعار وأذواق مناسبة للمجتمع الذي يعيش فيه. كما يعمل «الفرنشايز» على تحديث جودة الخدمات والمنتجات المقدمة للمستهلكين، وتقليل التكلفة النهائية للمنتج، وحماية المستهلك من تقليد العلامات التجارية وذلك بتوفيرها في الأسواق وتقريبها إليه.

وفي ذات الوقت، أوجد «الفرنشايز» في السوق العربية أنماطاً استهلاكية وإنتاجية جديدة. فمع ظهور سلسلة مطاعم أمريكية في الأسواق العربية منذ ما يزيد على عشرين عاماً تأثر المستهلك العربي، «وأعيد ترتيب احتياجات الأسواق العربية من السلع والخدمات ورافق ذلك إنشاء عدد من المصانع لتغذية هذه المنافذ بالبضائع بمختلف أنواعها. كما أدخلت نظماً حديثة في الإدارة والتدريب وأساليب التسوق ودراسات السوق لمواجهة تزايد المنافسة في هذا المجال» حسبما تقول انتصار سليمان في بحثها عن «الفرنشايز» المنشور على موقع إسلام أون لاين.

كما أسهم نظام «الفرنشايز» في بروز مفهوم جديد للشركة الوطنية التي أصبحت تسعى إلى إقامة علاقات شراكة مع علامات أجنبية تجنباً لاندثارها وتراجعها نتيجة للمنافسة القوية التي تمارسها عليها العلامة الأجنبية. هذه الشراكة إنما أريد بها تقديم قيمة متميزة للمستهلك، تختلف عما هو مطروح في الأسواق.

صعود العلامات الاستحواذية

يرى البعض أن نظام «الفرنشايز» سلاح ذو حدين: فهو على الرغم من مساعدته للعلامات التجارية على اكتساح الأسواق وتألقها، إلا أنه يكرِّس أيضاً صعود ما يسمى بالعلامات الاستحواذية مع تزايد الآثار الجانبية للعولمة.

فالتوازنات الجديدة التي تنشد وتؤسس لها مرحلة العولمة، زادت من حدة التنافس والصراع الاقتصادي المعولم من أجل صعود العلامات التجارية الاستحواذية على غرار مايكروسوفت، ماكدونالدز، كوكاكولا... إلخ. ومع تعدد المنابر الدولية (المنتدى الاجتماعي العالمي، مؤتمر المانحين، مجلس الدول الصناعية الكبرى، المنتدى الاقتصادي العالمي، منظمة التجارة العالمية...) احتدم السجال والنضال بين العلامات التجارية من أجل ممارسة هيمنة تقوم بالأساس على بنية ورؤية معرفية ثقافية عقائدية سياسية اقتصادية منفعية.

وقد فرضت هذه الرؤية معايير جديدة من أجل ازدهار السوق وزيادة حدة التدفقات الاستهلاكية، وصاغت في الوقت نفسه مفارقات مهمة وبارزة لتصعيد وتيرة حدة التنافس وفقاً لاشتراطات تنمو في أحضانها مفاهيم عنصرية جديدة، لا على مستوى الشارع الغربي فحسب

بـل تتجاوز ذلك إلـى منهجيات التفكيـر والتشريع، وتنبثق معهـا مؤسســات جديدة لـم يعرفها المجتمـع الغربي من قبـل، ولكنها جاءت كنتـاج للتغذية المضـادة التي حقنتها الليبرالية في الخطاب والمشاريع والتصديرات الإعلامية المتنوعة والمختلفة.

فـإن كان العالم يعيش اليوم مقولة روزفلت: «أمركة العالم هي مصير وقدر أمتنا»، فإن غزو علامات تجارية مختلفة للعديـد مـن بلـدان العالم قد أعـاد صياغة هـذه المقولة بسيطرتهـا علـى سـدة الخطـاب الجديـد والمتصاعـد: «أمركـة أمتنا هي مصيـر وقدر ليبرالـي»، وكأن كل ذلك وأكثـر يأخذنـا إلـى إعـادة كتابـة العبـارة التـي صاغها الفيلسوف والقاضـي أوليفر هولمز: «الحق يمتلكه الشعب القـادر على قهر الشعوب الأخرى». وقـد سعت الخطابات الليبراليـة الجديـدة لإعادة إنتـاج وتصدير هـذه الرؤية وتفعيل ممارستها وتتويجها لتعتلي عرش الأحداث، وتحتل قمة الوسائـط الإعلامية، وتضع مقاييـس جديدة لهيمنة العلامـات التجاريـة الغربيـة، وتكرِّس الاحتـكار العابر للحدود.

وعليه، قامت العديد من المجموعـات الاقتصادية العالمية المتعـددة الجنسيات باللجوء إلـى الاستحواذ على علامات تجاريـة معروفـة، بقصد قطـع الطريق أمامهـا لخوض أية منافســة. فكذلـك حاولت شركـة «نستلـه» الاستحواذ على مصنـع حلويـات بريطاني شهير، مما أدى إلـى ارتفاع سعر سهم العلامة التجارية في السوق ثلاثة أضعاف. وأصبح من الواضح أن «نستله» تحمَّلت دفع مبلغ كبير من أجل الحصول علـى القيمة التي كانت تتمتع بها العلامة التجارية للمصنع، التـي حولتها «نستله»، لاحقاً، إلى ماركـة أوروبية شهيرة مع زيادة كبيرة في نسبة المبيعات وفي إمكانات التوسع.

وسيلة للترويج، وأداة لتنشيط المبيعات

يمتـد التواصل الإعلاني من كونه جهوداً اتصالية وإعلامية لترويج سلعة ما، إلى تشكيل السلوك وتصدير المعنى الذي تحمله الرسالة. فارتباط شيء ما يَقْضي باستدعاء الصور المستبطَنة لهذا الشــيء، حينها يغدو أحد التصوُّرين سبباً لانتقال الذهن إلى تصوُّر الآخر.

ويُعَـدُّ المضمـون الإعلانـي وما يوحي بـه من معـانٍ المادة المحققة لعملية التواصل بين مُعِدّ الرسالة الإعلانية ومتلقيها. وتَشُـدّ هـذه الرسالة المتلقّـي وتجعله يربط هـذا المضمون بأفـكار كامنة في ذهنه، «فيحرص مُستقبِل الإعلان في هذه الحالة على محاكاة الأُنموذج الذي تسكبه الرسالة في نفسه، وفي هذا تغذية لدوافع مختزَنة راغبة في الظَّفَر بالأُنموذج أو القالـب الذي تعرضه الوسائل الإعلانية» كما يقول مصطفى حجـازي في كتاب «حصـاد الثقافة بين القنـوات الفضائية والدعـوة الأصولية». ويعتبر الإعلان من الأدوات الرئيسة في بناء العلامة التجارية وانتشارها لدى جماهير مختلفة. ولكن على نقيض هذا المعطى البديهي، تبين لنا أن بعض العلامات التجاريـة لا تقـوم بإعلانات وعلى الرغم مـن ذلك حافظت على مكانتها ضمن العلامات التجارية الذائعة الصيت. فقد اعتـادت «شركة مروجة للملابـس الجاهزة» على عدم إنفاق



google

أي مبالغ على الإعلانات. ومع ذلك، فقد حافظت العلامة التجارية لهذه الشركة على قوتها على مر السنين من خلال محلات التجزئة التي تمتلكها في بلدان عديدة، وأصبحت هذه المحلات تقوم مقام المضامين الإعلانية التي يفترض أن تبثها العلامة التجارية عبر وسائل الإعلام المختلفة. وقد أصبحت هذه المحلات أداة لترويج سلع العلامة التجارية دون الحاجة إلى استخدام إعلانات، في حين تبقى إمكانية توظيف هذه الأخيرة واردة فقط في حالة تعرض الشركة لأزمة حقيقية.



flickr

كما أصبحت العلامة التجارية في بعض المجالات الاقتصادية وسيلة مهمة لتنشيط المبيعات. فإذا أخذنا على سبيل الذكر لا الحصر مجال صناعة السيارات، فإن العديد من المؤسسات العاملة في هذا المجال أصبحت تعتمد العلامة التجارية كأداة لتنشيط المبيعات، حتى أن اختيار الزبون لسيارة ما أصبح قائماً على اسم العلامة التجارية التي تصنع تلك السيارة باعتبارها الضمان لسلامة السيارة وإتقان صناعتها. فاختيار الزبون للسيارة لم يعد محكوماً، في هذه الحالة، بوجود خصوصيات أو مميزات معينة بالسيارة بقدر ما هو مرتبط بثقته المسبقة في العلامة التجارية التي تروِّج لتلك السيارة.

أدوات حماية الشكل والهوية واحترام الخصوصيات المحلية

وأمام عالم يتجه لحماية إبداعاته الخاصة من تصنيع أو فكر، تبدو ضرورة الحفاظ على روح وجوهر منتجاتنا وصناعاتنا الوطنية معركة لا بد من خوضها تماماً، مثل ما هو الأمر بالنسبة لضرورة السعي إلى البحث عن الجودة والتميز، لتكوين علامات تجارية قادرة على المنافسة، وتتمتع بالشهرة التي تجعل منها علامات عابرة للقارات.

فمع ازدهار التجارة الدولية إثر التغير في هيكل النظام التجاري الدولي مع مطلع التسعينيات من القرن الماضي، وظهور منظمة التجارة العالمية، وانضمام معظم دول العالم لعضويتها، والتطور العلمي والتقني في عملية التسويق، تَعزَّز مفهوم العلامة التجارية «المشهورة» على مستوى الاتفاقيات الدولية، والتشريعات الوطنية، وعلى مستوى القضاء. «وتنافس أصحاب العلامات التجارية على إضفاء صفة «الشهرة» على علاماتهم لكي تتمتع بالحماية الاستثنائية التي توفرها هذه الصفة، كالحماية من استخدام الغير لعلامات مشابهة على سلع أوخدمات مماثلة أو غير مماثلة في نطاقها الإقليمي أو خارجه، حتى لو لم تسجل أو تستعمل في الأقاليم والمناطق الجغرافية الخارجية، وإنما استناداً لشهرتها فحسب، ولرسوخ معناها وقيمة المنتجات التي تمثلها في وجدان المستهلكين» كما يقول الدكتور محمد الشمري في مقالة نشرتها جريدة «الرياض» في نوفمبر 2006م، الذي يضيف أيضاً، بأنه وبحكم أن «العلامة في التجارة الدولية هي رمز معرف للتجارة، وهي بمثابة بائع متجول يتخطى الحدود الجغرافية، فإن ثقة المستهلكين في بعض العلامات التجارية تفوق ثقتهم بأصحاب الخبرة من البشر لذلك يحرص أصحاب العلامة على إحاطة علاماتهم التجارية بأسوار من الحماية القانونية لكي تبقى محصنة ضد أعمال التقليد والتعدي».

ولما كانت فكرة العلامة التجارية حلاً لمشكلات السرقة والاقتباس بعدما أبرمت الاتفاقية الدولية لحماية الملكية الصناعية والفكرية، سارعت دول عديدة للانضمام إلى هذه الاتفاقية سعياً منها لحماية صناعاتها من التقليد والاقتباس والسرقة. ولا تقتصر الحماية على الأصناف والسلع العالمية المشهورة، بل تتعداها إلى حقوق الملكية الفكرية والصناعية لا سيما في مجال البرمجيات والاختراعات...إلخ.

لذلك، حري بنا النظر إلى عملية تسجيل العلامات التجارية كثقافة اقتصادية تبدأ بمعرفة انعكاسها الضامن لحقوق المالك، وتترسخ عبر نقل هذا التسجيل إلى دول أخرى عبر منظمة «الوايبو». «فتبدأ منتجات البلد الوطنية تثبت قدرتها على التنافس، كونها تعرض لمواصفاتها بكثير من الوضوح والشفافية، بعيداً عن حالات التلاعب التي يقوم بها عدد من المغامرين» حسبما يرى فيصل المقداد في مدونة حديث الناس، يونيو 2005م.

لكن وعلى الرغم من الاهتمام الواضح بعملية تسجيل العلامات التجارية خلال السنوات الأخيرة، إلا أن العديد

مـن المشـكلات ما زالت ترافقهـا، إذ يسعـى البعض إلى تسجيـل علامات من دون أن يكـون منتجاً لها، الأمر الذي يحرم الراغب في دخـول مضمار الإنتاج من بعض حقوقه الطبيعيـة، ويضعـه تحت رحمـة مسجِّل امتيـاز العلامة. ويبقى احتـرام العلامـات الأجنبية أحد عوامـل الاختبار للقـدرة على طبع منتجات البلـد الوطنية بعلامات تجارية خاصة.

ولا تأتـي صفـة الشهرة إلى العلامة من فـراغ، بل لا بد من توافر بعض الشروط الموضوعية لاكتساب هذه الصفة، مثل العمـر الزمني للعلامة، وقيمتها في السوق، وحجم الدعاية والإعـلان للعلامة، وانتشار مبيعاتها في السـوق الدولية، وتسجيلها في أكثر مـن دولـة، ورعاية بعض المناسبات العالميـة مثـل الألعـاب الأولمبيـة، وكأسـ العالم، وسباقات الفورمولا...إلخ.

اختيار الزبون للسيارة مرتبط بثقته المسبقة في العلامة التجارية التي تروِّج لتلك السيارة

وفي هذا الإطار عايشت بعض البلدان العربية ظهور علامات تجاريـة واعدة على غرار المملكـة العربية السعودية التي بـرزت فيها علامات تتوافر بها صفة الشهرة في الحاضر أو المستقبـل، مثـل علامة (أرامكـو السعودية)، وعلامة (سابـك)، وعلامـة (المملكـة)، وغيرها مـن العلامات التجارية الواعدة في مجال الخدمات، والتجارة، وصناعة الألبـان، وصناعة البتروكيماويـات، والتي هي بحاجة إلى مزيد من الرعاية والحماية القانونية حتى تقف بقوة أمام المنافسة العالمية. وتتجسـم الحماية القانونية المطلوبة في ضـرورة تسجيل العلامة في الدول التـي تشكِّل أهمية لمنتجاتها، حتـى لا تصبح عرضة للتعـدي أو الاغتصاب مـن الغير عـن طريق واقعـة سبـق التسجيـل خاصة في الـدول التي تأخذ أنظمتها بواقعـة التسجيل كسند لملكية العلامـات التجاريـة ومنهـا نظـام العلامـات التجاريـة السعـودي. فما يحصل أحياناً مـن إهمال بعض المنشآت التجاريـة المحلية لمسألة تسجيـل العلامة في الداخل أو في الخارج، يجعلها عرضة للتعدي من الغير، وغالباً يكون التعـدي من بعض العناصر الأجنبيـة التي سبق لها العمل في المنشأة.

كما يمكن أن تتم الحماية عن طريق نشر التعريف بالعلامة فـي الأوساط التجارية واستغـلال وسائل الدعاية الممكنة، أو رعايـة بعضـ المناسبـات المحليـة أو الإقليميـة لزيادة الوعي بأهمية العلامة، أوعـن طريق زيادة حجم المبيعات واكتسـاب المزيـد مـن الحصص فـي الأسـواق التجارية العالميـة. ومع مرور الزمن يمكن أن تكتسب العلامة «صفة الشهـرة» ويتعـزَّز العلم بسبـق استعمالها ممـا يزيدها قوة وهيبة تحصنها ضد أعمال التعدي.

اقرأ للعلامة التجارية

NOLO
Trademark
Legal Care for Your Business & Product Name

العلامة التجارية: الحماية القانونية لاسم التجارة والمنتج الخاص بك

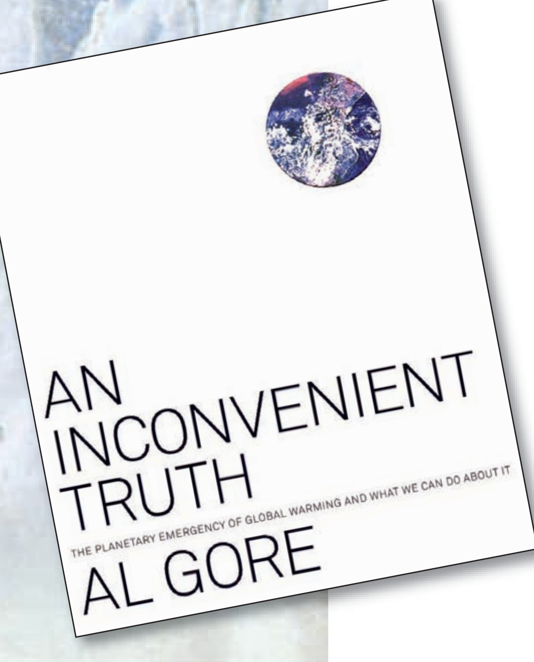
العلامة التجارية هي الاسم والرمز اللذان يعرِّفان ويميِّزان تجارتك أو شركتك عن باقي الشركات في سوق العمل. إذ تُعد العلامة التجارية من الأصول الأساسية لإقامة أية شركة أو تجارة فلذلك وجب اختيارها بعناية وحمايتها بكل احتراس.
يقع كتاب «العلامة التجارية: الحماية القانونية لاسم التجارة والمنتج الخاص بك»، الطبعة السابعة لعام 2005م، في 336 صفحة وهو للمؤلف ستيفن إلياس.
يستعرض الكاتب أحدث المعلومات المهمة التي يحتاجها القارئ ليحمي علامته التجارية. بالإضافة إلى كيفية اختيار علامة تجارية مميزة، وعمليات البحث عن العلامة التجارية، حل النزاعات بخصوص العلامة التجارية خارج قاعات المحاكم إلى جانب ما يعرضه لنا من قضايا العلامات التجارية عبر الإنترنت.
يتألف الكتاب من ثمانية فصول تجيب عن عشرين سؤالاً يختص بالعلامة التجارية. ففي الفصل الأول، يعرِّف الكتاب أهمية العلامة التجارية والأساسيات المهمة في قانون العلامة التجارية. وفي الفصل الثاني، يشرح كيفية اختيار وتسجيل اسم ليكون علامة تجارية وماذا نفعل إذا كان هذا الاسم مسجلاً من قبل عميل آخر. أما في الفصل الثالث فقد أجاب الكاتب عن أسئلة عديدة منها كيف نختار اسماً معيناً ليكون علامة تجارية مميزة. وفي الفصل الرابع والخامس والسادس يعرِّفنا الكاتب على ماهية عمليات البحث عن العلامات التجارية، ما أهميتها وما مصادرها وكيفية العمل بها وتقييم هذا البحث. أما في الفصل السابع فقد شرح الكاتب كيفية تسجيل العلامة التجارية فيدرالياً. وأخيراً استعرض الكاتب كيفية استخدام وحماية العلامة التجارية والعناية بها.

الحقيقة لا تلائم من؟

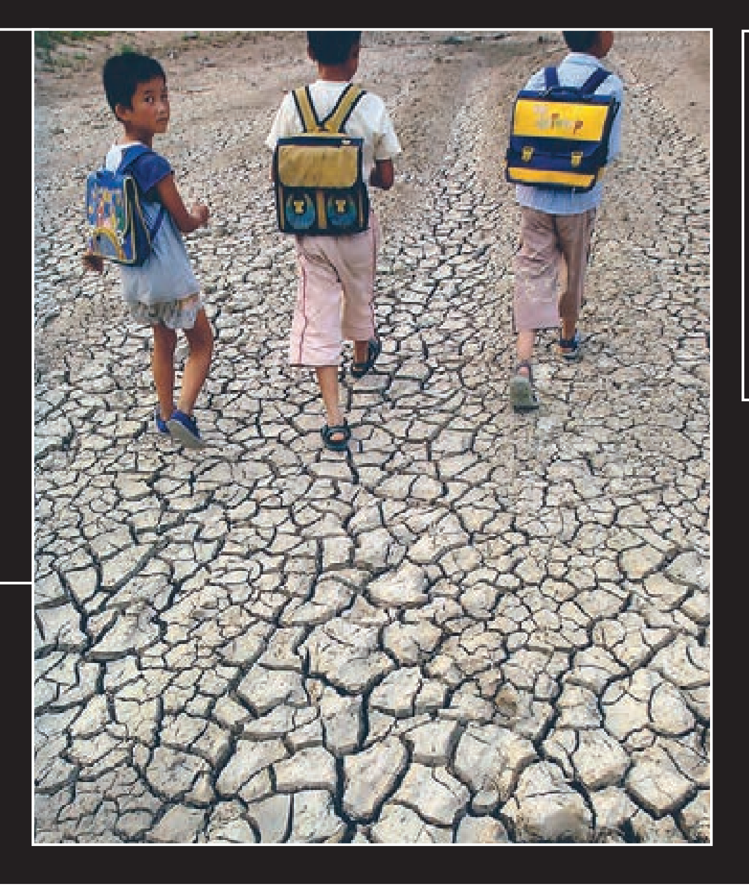
كي لا يزيد مناخ العالم سوءاً..

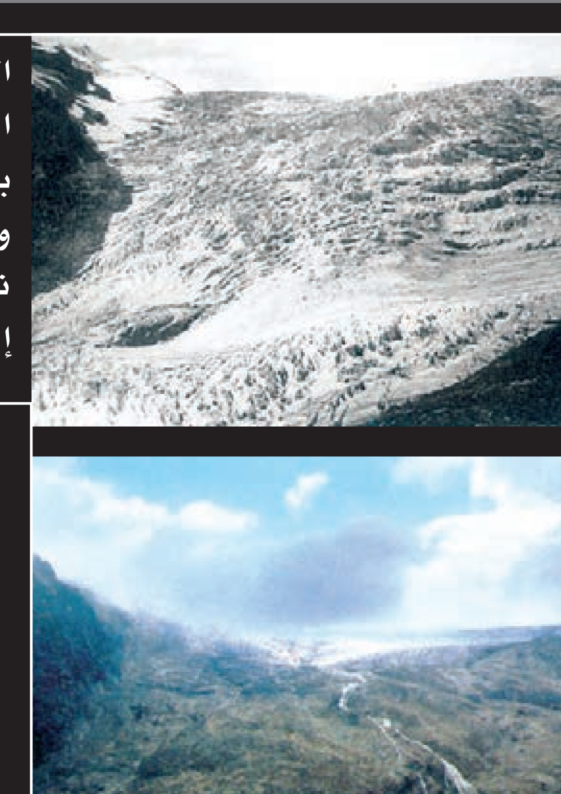
ارتفعت خلال الأشهر الأخيرة، وبشكل غير مسبوق، وتيرة الاهتمام السياسي والعلمي والإعلامي بقضية الاحتباس الحراري. وما ينجم أو قد ينجم عنه من متغيرات مناخية في العالم بأسره. وتزامنت الدعوة الأخيرة التي أطلقها الاجتماع الأوروبي الأمريكي في واشنطن إلى «تحرك عاجل» لمعالجة الاحتباس الحراري، مع وصول كتاب نائب الرئيس الأمريكي السابق آل غور «حقيقة غير ملائمة» إلى مكتباتنا، وهو الكتاب الذي تم تصويره سينمائياً، وحاز آل غور جائزة أوسكار لعمله عليه وظهوره فيه.

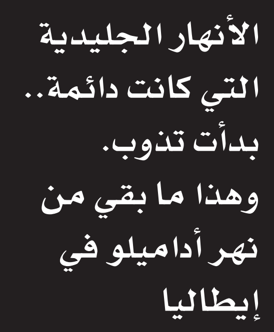
عبود عطية يتناول هنا قضية الاحتباس الحراري كما تظهر على صفحات هذا الكتاب.





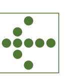






الأنهار الجليدية التي كانت دائمة.. بدأت تذوب. وهذا ما بقي من نهر أداميلو في إيطاليا





يعرف الذين تابعوا أخبار السياسة الأمريكية خلال عهد الرئيس بيل كلينتون، الاهتمام الذي أولاه نائبه آل غور للشأن البيئي عموماً وقضية سخونة الأرض على وجه التحديد. واهتمام الرجل بهذه القضية لم يكن وليد منصبه السياسي، بل العكس يكاد يكون صحيحاً. إذ إنه، قبل سنة من توليه نيابة رئاسة أمريكا، كان قد ألَّف كتابه الأول في مجال البيئة «الأرض في الميزان».

فماذا إذن عن الكتاب الذي يضعه بين أيدينا اليوم، بعدما أمضى ثماني سنوات في منصب يتيح له الاقتراب من الموضوع أكثر من أي شخص آخر؟

الواقع أن كتاب «حقيقة غير ملائمة» يتضمن عصارة المعلومات والدراسات والآراء الواردة من كل أصقاع الأرض حول ما تغيَّر في مناخ العالم، وما سيتغيَّر إذا ما استمر العالم في تجاهل قضية الاحتباس الحراري، ناهيك عن دعوة صارخة إلى العمل على درء هذا الخطر. فالمؤلف ليس مراقباً، بل أيضاً مناضل في سبيل هذه القضية.

صورة الكتاب المصور

والكتاب فريد من نوعه لجهة صيغته الشكلية. فهو لكثرة الصور الفوتوغرافية يكاد يبدو مجرد ألبوم مصور. ولكن اعتباره كذلك يتضمن إجحافاً بحقوق النصوص المكثفة والبليغة التي ترافق هذه الصور. فتعليقات الصور، والشروحات تقتصر فعلاً على كل ما قلَّ ودلَّ. ولتسليط الضوء على معلومة خطرة أو فكرة مهمة، لا يتوانى مخرج الكتاب في أن يفرد عشر كلمات على صفحتين. من دون أن يعني ذلك غياباً كبيراً للنصوص المفصلة والطويلة نسبياً التي تمتد على صفحتين هنا، أو ثلاث هناك.

هذا الزواج الموفق جداً ما بين الصورة والنص فرضه الموضوع. هذا الموضوع الذي لا يزال يواجه بعض المشكّكين من ذوي الغايات المختلفة، كما أنه لتشعباته الكثيرة لا يزال يعاني من ضبابية صورته في أذهان الكثيرين. وفي حين أن نشر بعض الصور كان ضرورياً لدعم صدقية المعلومة، فإن بعضها الآخر كان تجسيداً مرئياً لفكرة مجردة يدعم صحتها. فعلى سبيل المثال، نرى على صفحتين كاملتين من هذا الكتاب صورة تبدو الأرض في نصفها صحراء قاحلة، وفي نصفها الآخر تبدو غابة مدارية كثيفة. وفي أعلى الصورة نقرأ: «الطريقة التي تعامل بها الغابات هي مسألة سياسية. هذه هي الحدود



مقابل الجفاف الذي يضرب بعض المناطق (الصورة إلى اليمين من الصين 2005)، تعيش مناطق أخرى فيضانات غير معهودة (لوزان، سويسرا 2005)



من المؤكد أن تغيرات دراماتيكية تحصل في العالم من حولنا، ومعظم الأنهار الجليدية بدأت بالذوبان، وفي الأمر رسالة محددة

ما بين هاييتي وجمهورية الدومينيكان. لهاييتي سياستها، وللدومينيكان سياسة مختلفة».

ونظراً للترابط المعقَّد ما بين كل العناصر المتداخلة في قضية الاحتباس الحراري وسخونة الأرض وما رافقها من ظواهر، فقد جاء الكتاب من دون فهرس بالمحتويات التي يستحيل فصلها عن بعضها البعض، فظهرت على شكل مقالات مستقلة متفاوتة الأحجام، ومقتطفات معلومات مصورة من هنا وهناك. وهذا يسهِّل قراءة هذا الكتاب وفهم محتواه، حتى بالنسبة لأولئك الذين لا يعرفون الكثير عن الموضوع. ولو شئنا أن نفهرس كتاب آل غور على هوانا، لقلنا إنه يتضمن أربعة أقسام رئيسة، هي:

1 – التعريف بماهية غازات الدفيئة وتاريخ رصد سخونة الأرض (ويتضمن ذلك بعض المقتطفات على شاكلة ذكريات شخصية).
2 – ما حصل في العالم فعلاً من متغيرات مناخية خلال العقود الثلاثة الأخيرة تقريباً.
3 – ما يتوقع حدوثه من متغيرات كارثية خلال العقود المقبلة إذا استمر العالم في تجاهل قضية الاحتباس الحراري.
4 – دور السياسة سلباً وإيجاباً في المواجهة، ودور الفرد أيضاً، وبعض الآراء النظرية المختلفة حول ما يمكن القيام به في شأن هذه القضية.

ومن الصعب جداً تقديم عرض كامل لمحتويات الكتاب، خاصة وأنها جاءت أصلاً في صيغة يصعب اختصارها أكثر مما هي مختصرة. ولذا، سنتوقف أمام بعض الأمثلة والعينات ذات الطابع الإخباري، ونعطي فكرة عامة عن ماهية الكتاب.

قصة ثاني أكسيد الكربون

يروي آل غور في الصفحات الأُوَل من الكتاب أن أستاذه الجامعي، روجر ريفيل، كان أول من خطر له أن يقيس نسبة غاز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي. وبدأ بالفعل هذه المهمة عام 1958م مع أحد مساعديه في المحيط الهادئ. وبعد سنوات خمس، جمع ريفيل من المعلومات ما يكفي لوضع رسم بياني يؤكد أن نسبة غاز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي للأرض هي بصدد الارتفاع بشكل ملحوظ.

ويشدِّد الكاتب على أن ثاني أكسيد الكربون هو أهم غازات الدفيئة التي يذكر عدداً منها، هذه الغازات التي تمنع حرارة الأرض من الانطلاق صوب الفضاء الخارجي،


4 صور بالأقمار الصناعية تظهر تقلص بحيرة تشاد إلى 1 على 20 خلال ربع قرن





الإيقاع القديم لتعاقب الفصول يتغير بسرعة مع تعرض بعض المناطق للسخونة الزائدة أكثر من غيرها

فترد جزءاً -وهذا الجزء يتزايد باستمرار- صوب الأرض لتتسبب في ارتفاع حرارة سطحها، مع كل ما يعنيه ذلك من نتائج وتداعيات. واستناداً إلى الرسم البياني في الكتاب، فقد ارتفعت نسبة ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي من 280 جزءاً في المليون قبل الثورة الصناعية إلى نحو 315 جزءاً عام 1958م، وصولاً إلى 381 جزءاً عام 2005م، الذي كان أيضاً -وليس من باب الصدفة- العام الأكثر سخونة على صعيد المناخ في العالم.

وبعد ذلك، ينطلق المؤلف في عرض مجموعة من الظواهر المناخية التي طرأت على العالم بأسره خلال السنوات الأخيرة.

ذوبان الأنهر الجليدية والثلوج الدائمة

يؤكد الكتاب بسهولة على ذوبان الكثير من الأنهر الجليدية والثلوج الدائمة، وذلك من خلال عرض صورتين فوتوغرافيتين للموقع نفسه كما كان قبل سنوات معدودة، وكما هو اليوم. ومنها نهر كولومبيا الجليدي في ألاسكا الذي يتراجع سنوياً، ونهر كولي كاليس في البيرو الذي أصبح عند طرفه بحيرة، والمنطقة المتجمدة في أوبسالا في الأرجنتين التي أصبحت بحيرة، ويتابع جولته على المنوال نفسه وصولاً إلى سويسرا، وجبال الألب الإيطالية، فجبل كليمنجارو في إفريقيا، فجبال الهملايا في آسيا.

الأعاصير.. أقوى بنسبة 50%

في يوليو من العام 2005م، أي قبل شهر واحد من تعرض أمريكا لإعصار كاترينا الشهير، تبنت جامعة «ام. آي. تي» دراسة علمية تؤكد على أن سخونة الأرض تجعل الأعاصير أعنف وذات قوة تدميرية أكبر. ومما جاء حرفياً في الدراسة «إن الأعاصير التي تهب فوق الأطلسي قد زادت من سرعتها وديمومتها بنسبة 50% عمَّا كانت عليه عام 1970م».

أما العام 2004م، الذي شهدت فيه اليابان رقماً قياسياً في الأعاصير وصل إلى عشرة (بعدما كان الرقم القياسي السابق سبعة)، فقد شهد حدثاً كان العلماء يقولون باستحالة وقوعه. ألا وهو إعصار في جنوب الأطلسي. وفي تلك السنة أيضاً، ولأول مرة في التاريخ المسجل، تعرضت سواحل البرازيل الشرقية للإعصار.

الجفاف.. بحيرة التشاد مثلاً

ومقابل الفيضانات والأعاصير التي تضرب بعض المناطق، يؤدي الخلل في المناخ العالمي إلى الجفاف والتصحر في مناطق أخرى. فبحيرة التشاد مثلاً، التي كانت قبل أربعين



الصدع الذي طرأ على الجرف الجليدي في شمال كندا عام 2002



أعداد الحرائق الكبرى ترتفع أينما كان في العالم إلى أضعاف ما كانت عليه قبل عقدين من الزمن



إننا نشهد صداماً عملاقاً وغير مسبوق ما بين حضارتنا من جهة والأرض من جهة أخرى

عاماً فقط سادس أكبر بحيرة في العالم، تقلصت اليوم إلى نحو واحد على عشرين مما كانت عليه، وشارفت على الاختفاء كلياً. ومدينة مثل نغويغمي في النيجر كانت تحيط بها البحيرة من ثلاث جهات، وتعتاش أساساً من صيد السمك، باتت اليوم على مسافة 60 ميلاً من البحيرة.. ويحذِّر الكاتب من العواقب السياسية والإنسانية الخطرة لمثل هذه المتغيرات في الدول النامية، ولا يتردد في حالة بحيرة التشاد في ربط جفافها بالاقتتال الدموي الذي حصل في دارفور.

ويشير الكتاب في أحد رسومه البيانية إلى اتسَّاع المساحات المتصحرة سنوياً من 624 ميلاً مربعاً في السبعينيات، إلى 840 ميلاً مربعاً سنوياً في الثمانينيات، ثم 1374 ميلاً مربعاً في التسعينيات.

أشجار تيبس، ومبانٍ تنهار

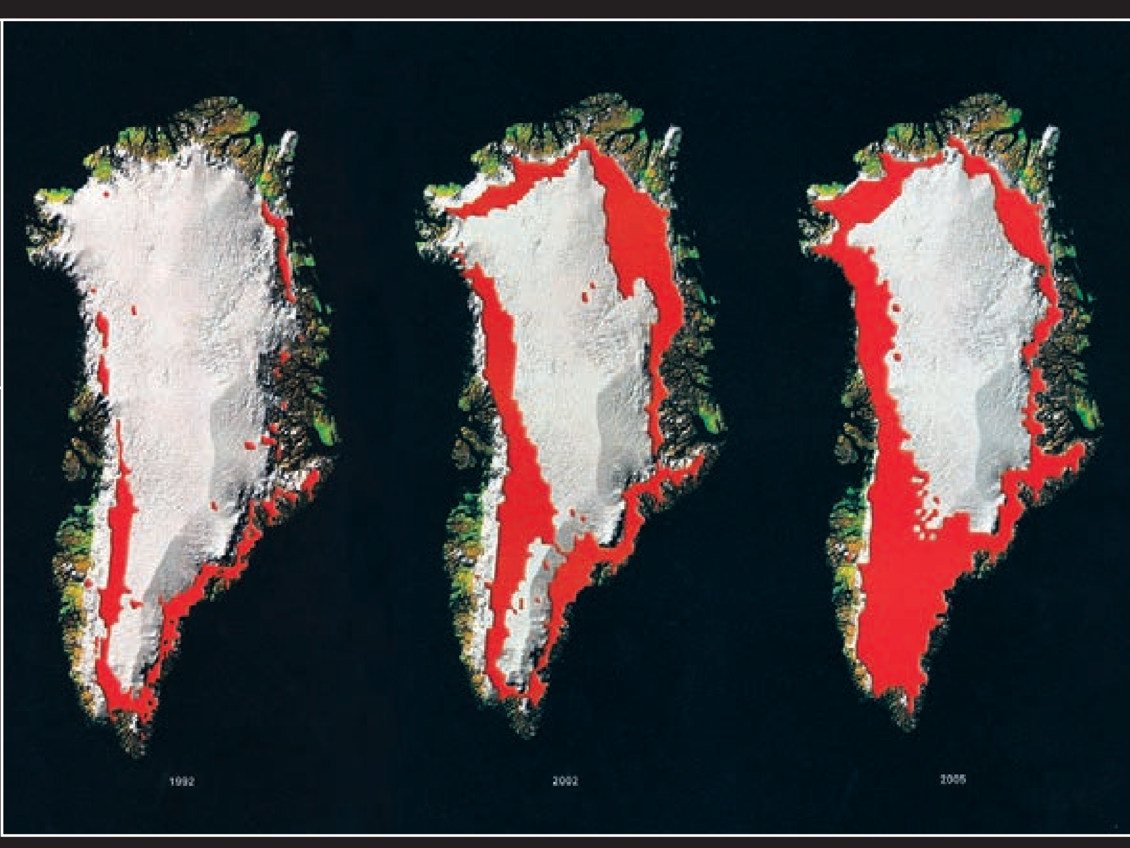
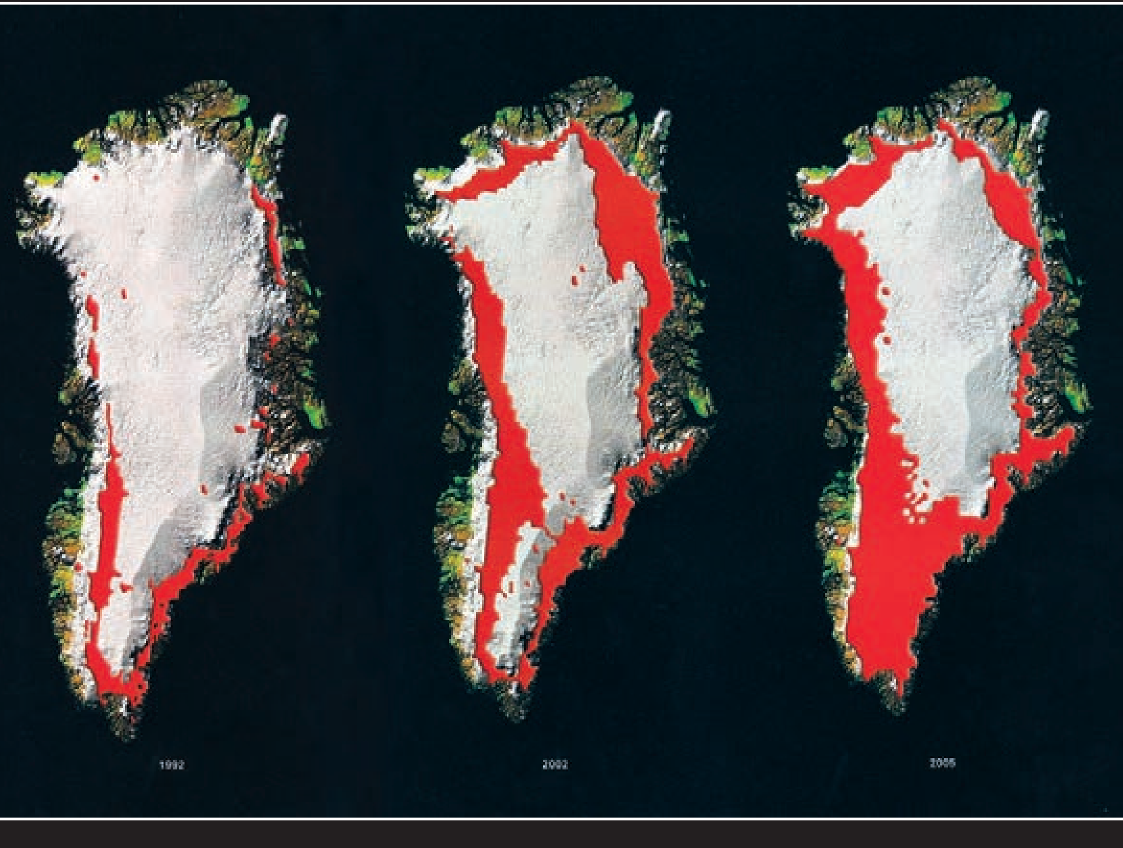
وعلى المنوال نفسه، يتابع الكتابُ عرض عشرات الأمثلة المصورة المفجعة.. ومنها صورة لجزء من غابة صنوبر عملاقة تمتد على مساحة 14 مليون دونم ما بين ألاسكا وكولومبيا البريطانية، وقد ضرب الكثير من أشجارها اليباس بسبب انتشار نوع من الخنافس حيث كان الطقس البارد والشتاء الطويل يبطئ من نشاطها. أما الفارق الحراري المسجل، فهو رغم ضآلته الرقمية، كان كافياً لتنشيط الحشرة إلى درجة تمكنها من الفتك بالغابة.

ومن المناطق الشمالية أيضاً، حيث تأسست البيوت والمنشآت العامة على أساس أن الأرض متجمدة طوال العام، بدأت الكاميرات تلتقط صور المنازل المنهارة في سيبيريا كما هو في ألاسكا، بعد ذوبان الجليد الأرضي الذي يفترض أنه كان دائماً. كما أدى ذوبان الجليد الأرضي إلى تهاوي الأشجار واتكائها على بعضها فيما صار يعرف باسم «الغابات السكرانة»!

الحرائق الكبرى

ويحمِّل الكتاب سخونة الأرض إلى تزايد معدل الحرائق الكبرى سنوياً في العالم. فالحرارة المرتفعة تجفف أوراق الشجر والأرض، والهواء الجاف يتسبب بصواعق أكثر، ويظهر أحد الرسوم البيانية المنشورة ارتفاع عدد الحرائق الكبرى في أمريكا الشمالية والجنوبية خلال العقود الخمسة الماضية.

ففي الخمسينيات والستينيات، لم يزد معدل هذه الحرائق على اثنين سنوياً. بدءاً من السبعينيات بدأ العدد يرتفع إلى أربعة، ثم إلى عشرة في الثمانينيات، وصولاً إلى 47 حريقاً رئيساً خلال التسعينيات!

اللون الأحمر على خريطة غرينلاند هذه، يظهر مساحة الثلوج التي ذابت في الأعوام 1992، 2002، 2005.. الإيقاع مخيف



عادات قديمة
+
تقنيات قديمة
=
نتائج متوقعة..

عادات قديمة
+
تكنولوجيا حديثة
=
نتائج محرَّفة بشكل دراماتيكي

الثلوج القطبية.. تقلصت فعلاً

ويركِّز الكتاب بشكل خاص على الخطر المتمثل في ذوبان الثلوج القطبية. وبعد أن يعرض صورة مفزعة فعلاً لما خسرته غرينلاند من ثلوجها الدائمة خلال السنوات الأخيرة، يوضِّح نوعية هذا الخطر من خلال التبصر قليلاً في نوعية القطبين جغرافياً. فالمحيط المتجمد الشمالي هو عبارة عن ماء مغطَّى بطبقة من الجليد متوسط سماكتها نحو عشرة أقدام فقط. أما الثلوج القائمة فوق اليابسة فتكاد تنحصر في غرينلاند. وبالمقابل، فإن القارة القطبية الجنوبية هي يابسة تحمل فوقها جليداً بسماكة عشرة آلاف قدم. وذوبان الثلوج إما في غرينلاند، وإما في القارة القطبية الجنوبية، أو حتى انزلاقها نحو البحر، سيؤدي إلى ارتفاع مستوى سطح البحر نحو عشرين قدماً. الأمر الذي يعني تغيراً كبيراً في خارطة العالم، ليس أقله على سبيل المثال، غرق أكثر من ثلث ولاية فلوريدا الأمريكية، وتهجير 20 مليوناً من سكان بكين وضواحيها في الصين، و60 مليوناً في بنغلادش وكالكوتا في الهند، واختفاء آلاف الجزر من بحار العالم، لتظهر محلها جزر جديدة كانت فيما مضى جزءاً من اليابسة.

التفسير.. صورة المحرك

يشبِّه العلماء المناخ بمحرك مهمته توزيع الحرارة من المناطق الاستوائية والمدارية باتجاه القطبين، لأن هذه المناطق هي أكثر عرضة لأشعة الشمس، في حين أن المناطق القطبية تبقى تباعاً لمدة ستة أشهر في الظلام البارد. وعملية نقل الحرارة هذه تتم عبر التيارات الهوائية والمائية في المحيطات. وحركة التيارات كما نعرفها اليوم هي نفسها كما كانت منذ عشرة آلاف سنة تقريباً. وأي تغير يطرأ على هذه التيارات ستكون له عواقب يصعب تخيلها أو احتسابها.

ما تمكن العلماء من احتسابه هو أن ازدياد معدل حرارة الأرض خمس درجات فقط، يعني تسجيل درجتين فقط عند خط الاستواء مقابل 12 درجة في القطب الشمالي والجنوبي. وللدلالة على خطورة الأمر، يذكر العلماء بأن سخونة مماثلة حصلت بالفعل قبل عشرة آلاف سنة في الشمال الغربي من أمريكا أدت إلى ذوبان الثلوج واحتقانها خلف سد لبعض الوقت، ومن ثم انهيار السد وتدفق المياه الباردة في المحيط الأطلسي، الأمر الذي أدى إلى تبريد مفاجئ لتيار الخليج الحار، الذي كان سابقاً يدفئ أوروبا الشمالية، فدخلت أوروبا في عصر جليدي استمر لنحو ألف سنة. وهذا ما يفسر لماذا يمكن أن تنعكس سخونة الأرض حراً هنا، وبرداً هناك، جفافاً في بعض المناطق، وأعاصير في أماكن أخرى.

ولاية فلوريدا الأمريكية كما هي اليوم، وما سيبقى منها إذا ذابت الثلوج القطبية، وارتفع سطح البحر 20 قدماً



ما تم رصده حتى الآن يتراوح ما بين ابيضاض المرجان في المحيطات وغزو الحشرات لغابات آلاسكا مروراً بازدياد قوة الأعاصير وعدد الحرائق والفيضانات، والمساحات المتصحرة

إلى العمل قبل فوات الأوان

ويخصص المؤلف الصفحات الأخيرة من كتابه لعرض التعاطي السياسي مع قضية الاحتباس الحراري، والذي يتراوح ما بين التعاطي الواعي، والتغاضي المعتمد لحسابات معينة. وتلفتنا في هذا المجال الصفحتان المخصصتان لخريطة العالم حسب نسب إنتاج ثاني أكسيد الكربون. ومما جاء فيها أن أمريكا وحدها تنتج 30.3% من غازات الدفيئة، تليها أوروبا (مجتمعة) بنحو 27.7%. أما اللافت في هذه الخريطة، ومصدرها إدارة معلومات الطاقة في وزارة الطاقة الأمريكية، أن دول الشرق الأوسط مجتمعة بما فيها كل الدول المنتجة للنفط في الجزيرة العربية إضافة إلى إيران وتركيا لا تنتج أكثر من 2.6% من الإنتاج العالمي من غازات الدفيئة. وفي مكان آخر يفسِّر المؤلف إلى تدني هذه النسبة بالإشارة إلى تطور صناعة الطاقة في الجزيرة العربية بحيث صارت تحبس الغاز الطبيعي المرافق للنفط وتستخدمه في مجالات عديدة بدل حرقه.

كما يتضمن هذا القسم الموجه إلى الرأي العام، تصحيحاً لبعض مفاهيم خطأ وشائعة حول التغير المناخي، ودعوة إلى الأفراد، كل فرد على حدة، إلى تخفيض الحصة التي ينتجها من غازات الدفيئة. وأرفق المؤلف دعوته هذه بجملة نصائح «عملية» في هذا المجال.

وإذا كان المؤلف يعتبر أن لكل فرد دوراً يجب أن يلعبه في مواجهة الاحتباس الحراري، يمكننا أن نتصور قسوة النقد الذي يوجهه في هذا القسم من الكتاب للإدارة الأمريكية الممتنعة حتى الآن (مع أستراليا) عن توقيع اتفاقية كيوتو، علماً بأن 132 دولة وقَّعت هذا البروتوكول، ومعظمها وقَّع طوعاً (مثل المملكة العربية السعودية)، إضافة إلى التوقيع الطوعي لعدد من المدن والولايات الأمريكية دون حكومتها الاتحادية.

أما السمة الرئيسة لهذا القسم من الكتاب، فتكمن في الإلحاح والإصرار على تحمل المسؤولية، إلى جانب التفاؤل بقدرة العالم على أن يكسب هذه المعركة إذا توافرت له الإرادة، مستشهداً بالنجاح الذي حققه العالم في مجال معالجة ثقوب الأوزون. الأمر الذي يعيدنا إلى كلمة أفرد لها المؤلف صفحة كاملة في بدايات الكتاب وتقول: «إن الغلاف الجوي رقيق إلى درجة تسمح لنا بإحداث تغيير في تركيبته». والتغيير المطلوب اليوم يبدأ بالاعتراف الملائم بحقيقة غير ملائمة.

زاد العلوم

1 تغريد العصافير يتمدَّن!

فـي مواجهـة ضوضـاء الحيـاة فـي المـدن، تضطر الطيـور إلى تعديـل تغريدهـا لتتمكـن مـن الاتصـال بأبنـاء نوعهـا، فيصبح صوت تغريدها أعلى، وإيقاعه أسرع.

هـذا مـا خلصـت إليه دراسـة أجراهـا عالِمان مـن جامعة لايدن فـي هولندا، وشملت أنواعاً عديدة مـن الطيور تستوطن باريس ولندن وبراغ وأمستردام.

وسجَّـل العالِمـان للمـرة الأولـى «اللهجـة المدنيـة» التـي تميِّز تغريـد هـذه الطيـور، وبمقارنتهـا بتغريـد الطيـور مـن الأنواع نفسهـا التـي تعيـش في الأريـاف والحقول والغابات، تبين لهما أن «التغريـد المدنـي» يتميـز بارتفـاع الصـوت وسرعـة الإيقـاع فـي اللحن، وذلـك لإيصال الصوت إلى الشريـك وسط ضوضاء وسائل النقل والمصانع. وخلص العالِمان إلى أن الطيور القادرة علـى إبدال تغريدهـا الريفي والقروي بتغريد مدني هي وحدها القـادرة علـى العيش والبقـاء فـي المدن. أمـا الطيـور الأخرى فتضطر إلى هجرة المدن والبقاء في الأرياف.

2 صوت السوط

لمـاذا يصـدر السـوط صوتـاً يشبـه صـوت الصفعـة عندمـا نضربه في الهواء، ومن دون أن يلمس أي جسم صلب آخر؟ الجـواب المفاجـئ يقـول: عندمـا نحـرِّك السـوط بسرعـة وبالشـكل الصحيـح فـي الهـواء، فـإن طرفه الآخـر يتحرك فـي الهواء بسرعـة تزيـد على ضعفي سرعـة الصوت. ولهذا



google

فإن صـوت الصفعة الذي نسمعه يعود إلى المعطيات الفيزيائيـة نفسهـا التـي تجعـل الطائـرة التـي تسير بسرعـة تزيـد على سرعـة الصوت في الهـواء، تصدر صوتاً يشبه الانفجار.

الطريف أن هذه المسألة التي حظيت بمتابعة علمية طوال القرن العشرين، تلقت دفعاً جديداً من الأبحاث بـدءاً مـن العـام 1998م، علـى يد ثلاثة علمـاء ألمان هـم: بيتر كريهل، وديتر شوينـكل، وستيفان إنجمان، الذيـن استفـادوا مـن آلات التصويـر الرقميـة وآلات تسجيـل بالغـة الدقـة، لرصد العلاقة مـا بين حركة السـوط وصوتـه. وتبيـن للعلمـاء أن طـرف السـوط ليـس هـو مصدر الصـوت، بل حركة الجـزء المنحني مـن الخـط الجلدي الطويل التي تتسـارع من قبضة اليـد باتجـاه الطـرف، وتصـل فـي ذروة تسارعها إلى 50,000 مرة تسارع الجاذبية، وهي التي تصدر صوت الصفعة المميز للسوط.

3 «البوجي» حجم صغير وفعل كبير

شمعة المحرك المعروفة شعبياً باسمها الأجنبي «بوجي»، اختراع لم ينل حقه من الأضواء. فمن دونه تتوقف حركتنا اليومية كما نعرفها، ويتجمد العالم في مكانه.
يستطيع البوجي الجيد أن يولِّد نحو 300 مليون شرارة كهربائية طيلة فترة حياته (نحو 20 في الثانية)، وكل شرارة تسبب انفجار الوقود في غرفة الاحتراق بالمحرك، والطاقة الناجمة عن هذا الاحتراق هي التي تحرِّك «البستن»، وبالتالي السيارة. وفي حين أن فولاذ غرفة المحرك يتحمل بسهولة قوة الانفجار، فإن البوجي لو كان مصنوعاً من الفولاذ لما عاش في محرك السيارة لأكثر من إيصال صاحبها إلى أقرب محطة لتغييره.

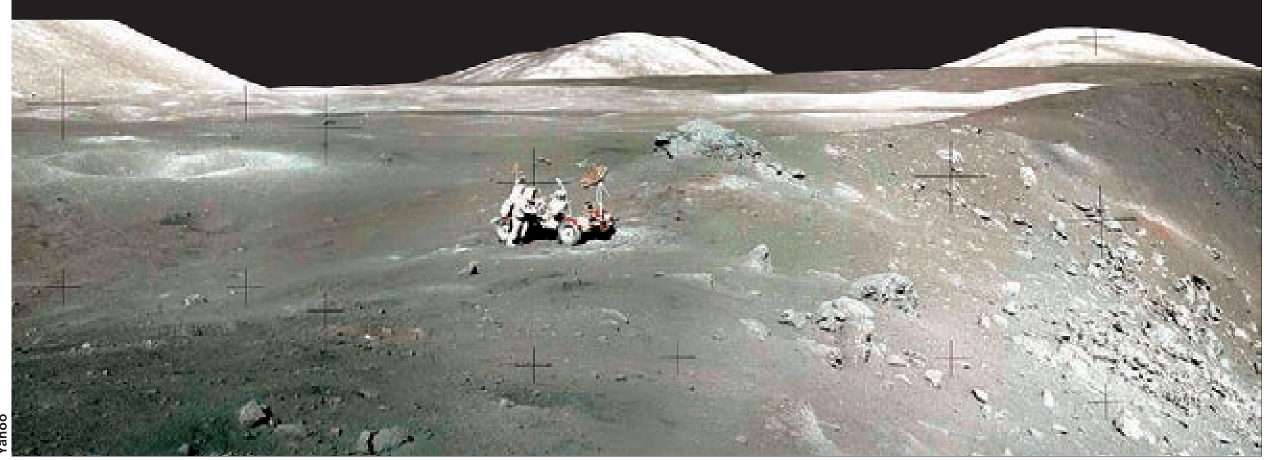
فالشرارات التي يطلقها البوجي من قطب إلى آخر بسرعة تناهز سرعة الضوء، تضرب رأساً معدنياً في القطب الثاني، فترفع حرارته على مساحة صغيرة جداً إلى آلاف الدرجات المئوية، وتتطاير منه في هذه الحالة ملايين الذرَّات التي تُلهب الوقود فيحصل الانفجار. ولكي يتحمل الرأس المعدني مثل هذا الضغط والحرارة، صار يصنع من المعادن الثمينة كالبلاتين والبلاديوم والذهب، التي تتمتع بالإضافة إلى قدرتها على تحمل الحرارة، بمناعتها ضد التفاعل مع الغازات المحيطة بها التي يمكن في حالة المعادن الأخرى أن تؤدي إلى أكسدة سطح المعدن الحار، وفقدان قدرته على استقطاب الشرارات الكهربائية.

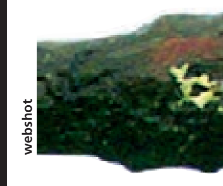
google

4 السباق الثاني إلى القمر

بعد أن انتهى السباق الأول إلى القمر بتوقف سلسلة الرحلات الفائزة «أبولو» والاستعاضة عنها برحلات فضائية إلى مدارات حول الأرض، يبدو أن العامين المقبلين سيشهدان انطلاق سباق جديد نحو القمر، من خلال سلسلة رحلات غير مأهولة لمركبات ستحط على سطحه. والمشاركون في هذا السباق الجديد هم أربعة: الولايات المتحدة الأمريكية، واليابان، والهند، والصين.
فلكل من هذه الدول الأربع مشروعها الخاص القاضي بالتحليق حول القمر، والبحث عن المياه الجوفيه في قطبيه، وزرع كاميرات على سطحه، تمهيداً لإقامة محطة قمرية.

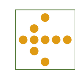
وفي هذا الصدد، يقول العالم بول سبوديس الاختصاصي في الشؤون القمرية في جامعة جون هوبكنز: «إن كل دولة من هذه الدول تطمح إلى وضع علمائها على سطح القمر، وإرسال أقمار صناعية ومركبات غير مأهولة، يبدو خطوة أولى منطقية».
ويضيف: إن هذه الرحلات لا تندرج ضمن استراتيجية مشتركة. إذ إن لكل دولة طموحاتها الخاصة. وفي حين وافقت الهند وأمريكا على تبادل المعلومات التي ستحصلان عليها، فإن المشاريع الفضائية الصينية تحاط بسرية شديدة للغاية. فهناك سباق انطلق.. والفوز سيكون للرجل الآلي الأفضل.


Yahoo


webshot

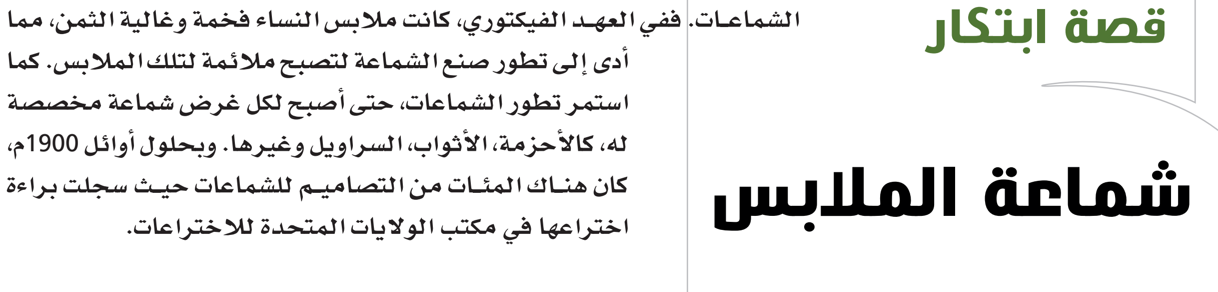
قصة ابتكار

شماعة الملابس



هناك الكثير من الأشياء المبتكرة بسيطة الصنع، ولكنها تصبح ضرورة تسهِّل لنا الكثير في حياتنا. واحدة من هذه المبتكرات هي شماعة الملابس.

لا أحد يعرف بالتحديد من هو مبتكر شماعة الملابس ولا حتى كيف كان شكلها. ولكن المؤرخين يؤكدون أن أول شماعة ملابس في التاريخ كانت خشبية من صنع توماس جيفرسون، الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية. ودليلهم على ذلك أن جيفرسون اخترع الكثير من الأدوات كالمحراث الخشبي، آلة طباعة الصحف المتنقلة، كرسي ويندرسون المتحرك.. وغير ذلك الكثير.



حتى القرن الثامن عشر، كانت الملابس تعلَّق إما على الخطافات، أو أنها تبسط في الخزانة. واستمر هذا الوضع حتى عام 1850م، وبعد ذلك أخذ الناس في استخدام الشماعات. ففي العهد الفيكتوري، كانت ملابس النساء فخمة وغالية الثمن، مما أدى إلى تطور صنع الشماعة لتصبح ملائمة لتلك الملابس. كما استمر تطور الشماعات، حتى أصبح لكل غرض شماعة مخصصة له، كالأحزمة، الأثواب، السراويل وغيرها. وبحلول أوائل 1900م، كان هناك المئات من التصاميم للشماعات حيث سجلت براءة اختراعها في مكتب الولايات المتحدة للاختراعات.

أما الشماعة المعروفة الآن البسيطة الصنع من الأسلاك المعدنية، فهي من اختراع الكندي ألبرت بارخوس.

بدأ ألبرت العمل في شركة محلية تدعى تيمبير ليك المتخصصة في صنع إطارات المصابيح والأشياء المصنوعة من الأسلاك. وقد عمدت هذه الشركة إلى ضم كل الموظفين المبتكرين من أمثال ألبرت. وفي يوم من عام 1903م، وصل ألبرت إلى مكان عمله وأراد أن يعلِّق قبعته ومعطفه كعادته على الخطَّافات المتوافرة للعمال. ولكنه لم يجد أياً منها خاوياً. فوقعت عيناه على قطعة من السلك المعدني، فأخذها وقام بطيها بطريقة طوق مستطيل ثم لف أواخر الطرفين عند المركز، ووضع معطفه على شماعته المبتكرة وباشر في عمله. وما أن رآها باقي الموظفين حتى طلبوا منه نسخة من هذا الابتكار. وسرعان ما أخذت الشركة بتسويق هذا الاختراع. وعلى الرغم من ذلك، لم يحصل ألبرت على أي تعويضات إضافية مقابل اختراعه. كما أن شماعة الملابس المصنوعة عام 1920م لا تزال معروضة في متحف برايتن ببريطانيا.



واتخذت الشمَّاعات لاحقاً أشكالاً وألواناً وأحجاماً مختلفة. حتى أصبحت اليوم متنوعة التصاميم، وضرورة من الضروريات في كل منزل بل في كل مكان وصولاً إلى السيارات والطائرات.

قصة مبتكر

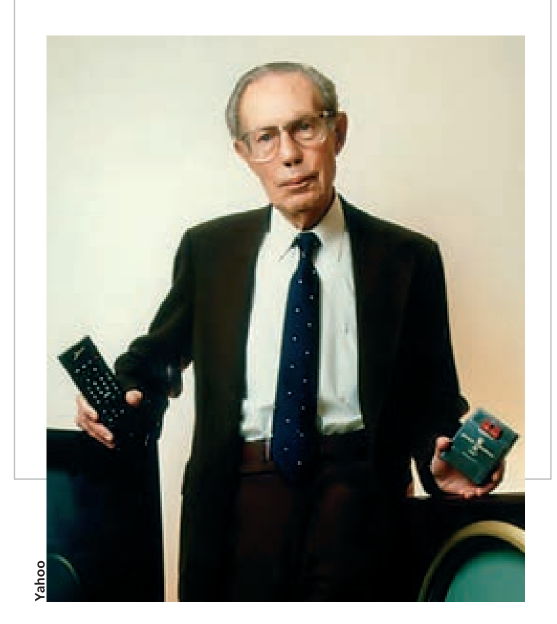
روبرت أدلر

مبتكر جهاز التحكم عن بعد

ولد روبرت أدلر في فيينا بالنمسا عام 1913م. وحصل على درجة الدكتوراه في الفيزياء من جامعة فيينا عام 1937م. وبعد هجرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية واستقراره في ولاية شيكاغو، بدأ العمل عام 1941م في شركة زينيث للإلكترونيات. أثناء الحرب العالمية الثانية، عمل في مجال المعدات العسكرية كالطائرات والدبابات وغيرهما. وبعد الحرب، توجه إلى العمل في تكنولوجيا التلفزيون، وهو المجال الذي أبدع فيه وأضاف إليه الكثير من الابتكارات. وكان أهم ما اخترعه في هذا المجال هو جهاز التحكم عن بعد، اللاسكي المعروف بـ «الريموت كونترول»، إذ قام بتطويره ليصبح كما هو في أيدينا اليوم.

عندما التحق أدلر بشركة زينيث، كانت الشركة مبتكرة جهاز التحكم عن بعد، ولكنه كان متصلاً بسلك، فلم يكن عملياً أبداً. فقام أدلر بابتكار جهاز آخر ليصبح لاسلكياً. وفي عام 1960م كان أدلر يلقب بأبي الريموت كونترول.

في الثمانينيات، باعت شركة زينيث 9 ملايين من التلفزيونات بسبب الريموت كونترول. وعندما كانت الصحافة تسأله عن اختراعه، كان يقول: «من المعقول والمنطقي بأن تتحكم بجهاز التلفزيون من أي مكان تجلس فيه، وهنا تأتي أهمية اختراعي للريموت كونترول». وبعد 35 عاماً من التحاق أدلر بشركة زينيث، انضم إلى قسم الأبحاث في الشركة ولعب دوراً مهماً في هذا المجال. بعد ذلك أصبح يعمل كمستشار للشركة نفسها، بالإضافة إلى انضمامه إلى شركة «إكستيل» حيث كان يشغل منصب رئيس قسم الأبحاث. كما أنه كان محاضراً في قسم الهندسة الإلكترونية بجامعة الونيوس في أوبرانا. وقد عرف روبرت أدلر بشغفه الشديد بتعلم كل ماهو جديد وتعطشه لمعرفة المزيد. فقد حصل على رخصة قيادة الطائرة، كما أنه تعلم اللغة الروسية وذلك لأنه كان ذاهباً مع وفد شركة « أي إي إي إي» إلى موسكو، وحتى يتمكن من إلقاء ورقته باللغة الروسية ليفهمهم ويفهموه جيداً. بالإضافة إلى إتقانه اللغات الألمانية والفرنسية والإنجليزية. وكانت من هواياته تسلق الجبال في فصل الصيف، وظل يمارس هذه الهواية حتى قبل موته بعام، وهواية التزلج في فصل الشتاء التي ظل يمارسها حتى أصبح عمره 89 عاماً. كما أنه كان شغوفاً بالفنون، حيث كان أحد أعضاء معهد شيكاغو للفنون وعضواً فعالاً في مسرح وأوركسترا شيكاغو، بالإضافة إلى شغفه الكبير بالسفر حول العالم سواء أكان للعمل أو للمتعة.


Yahoo

في عام 1963م، تقلد أدلر منصب مدير قسم الأبحاث في شركة زينيث. وتقاعد سنة 1982م ولكنه ظل المرشد التقني لها حتى عام 1999م. حصل على العديد من الجوائز، أهمها جائزة مخترع العام (1967م) تقديراً لاختراعاته في مجالات متعددة منها أجهزة وأنظمة الاتصالات في الطائرات والرادارات، والتلفزيون والراديو، والمنتجات الإلكترونية. كما حصل على جائزة أديسون للهندسة الإلكترونية عام 1980م.

لم يتوقف أدلر من العمل. حتى أنه استحدث وأضاف الكثير من التطورات في تكنولوجيا اللمس في 1 فبراير 2007م أي قبل وفاته بـ 14 يوماً، عن عمر ناهز 93 عاماً، حصل خلاله على 140 براءة اختراع!

اطلب العلم

قريتان عالميتان.. لا واحدة

سميَّة عارف الإدلبي*

التقرير الذي صدر مؤخراً عن وكالة الطاقة الدولية حول «حال الطاقة في العام 2006»، وجَّه صفعة إلى المبالغين في تفاؤلهم بما يمكن لثورة الاتصالات وتكنولوجياتها المتقدمة من تحقيقه على صعيد تحويل العالم إلى «قرية».

فقد أكد التقرير وبكل بساطة أن ربع سكان العالم (1.6 مليار نسمة) يعيشون من دون كهرباء، ولا يفتقرون بالتالي إلى الكمبيوتر والإنترنت والتلفزيون فقط، بل أيضاً لأبسط أشكال الصناعات التي تحتاج إلى الكهرباء.

وإشارة التقرير إلى انعدام المساواة في توزيع الكهرباء عالمياً لا يشكِّل مفاجأة. ففي حين أن «كهربة» العالم المتقدم تصل إلى نحو 100%، تنخفض نسبة الحاصلين على الكهرباء في دول العالم الثالث انخفاضاً ملحوظاً يبلغ الحضيض في الدول الإفريقية الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى، حيث يعيش 554 مليون نسمة من أصل 891 مليوناً من دون كهرباء (98.7% منهم يعيشون في مناطق ريفية). وفي بعض الدول مثل بوركينا فاسو والموزامبيق في إفريقيا وأفغانستان في آسيا، تنخفض نسبة الحاصلين على الكهرباء إلى 7% فقط من السكان، وتشمل المساحات المظلمة (أقل من 60%) جنوب شرق آسيا والهند وباكستان وبعض دول أمريكا الوسطى والجنوبية إضافة إلى إفريقيا طبعاً.

وإذ يفسِّر التقرير واقع الحال في العالم الثالث بعاملين أساسين هما الجغرافيا (توزع السكان بعيداً عن المدن) والنقص في الاستثمارات، يشير إلى أنه من المتوقع بحلول العام 2030م أن ينخفض عدد المحرومين من الكهرباء من 1.6 مليار نسمة إلى 1.4 مليار، ولكن، ليس بسبب استثمارات إضافية، بل لتنامي الهجرة من الأرياف إلى المدن.

ما يعنينا من كل ما تقدَّم أن ربع البشرية لا يزال وسيبقى لسنوات طويلة مقبلة خارج القرية العالمية التي يتحدث عنها المنظِّرون من دون تحفظ للعولمة.

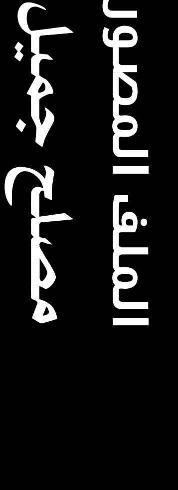
وربع العالم هذا يتوزع على ثلاث قارات، وليس محصوراً في رقعة جغرافية واحدة. ولا يمكن لسكان «القرية العالمية» المضاءة المتواصلين فيما بينهم من خلال التكنولوجيا المتطورة، أن يشيحوا بنظرهم عن هذا الربع الذي يعيش في الظلام.

فلهذا الربع ثقافاته وحاجاته إلى الاستهلاك وقدراته على زعزعة استقرار القرية المضاءة. ولا بد لكل ذلك من أن يؤخذ بالحسبان.

وعندما نضيف إلى ما تقدم أن توزيع الكهرباء يسجل على كل المستويات ما بين 0 و 100% حتى ضمن الدول التي يصل معدل التغطية فيها إلى 80%، وأيضاً الأنماط والمستويات المختلفة في مجال الاستفادة من الكهرباء لولوج عالم الاتصالات والتواصل والتكنولوجيا المتطورة، ندرك كم أن العالم لا يزال بعيداً عن القرية العالمية.. عالم، لو دفعنا تفاؤلنا إلى حده الأقصى لقلنا إنه اليوم قريتان عالميتان.. واحدة مضاءة، والأخرى مظلمة.. ولو تفحصنا الثانية على ضوء الشمعة لوجدناها تتألف من عشرات القرى.

* كاتبة من سورية





تلمس الحياة بعينيك.
تلهو مع الأطفال..
تبحث عن الأشكال الجميلة
تُفاجؤك الألوان.
لكن البحر الأزرق لم يعدك بغصن
يابس يمتدّ سراً..
ويُخرج ورقتين!



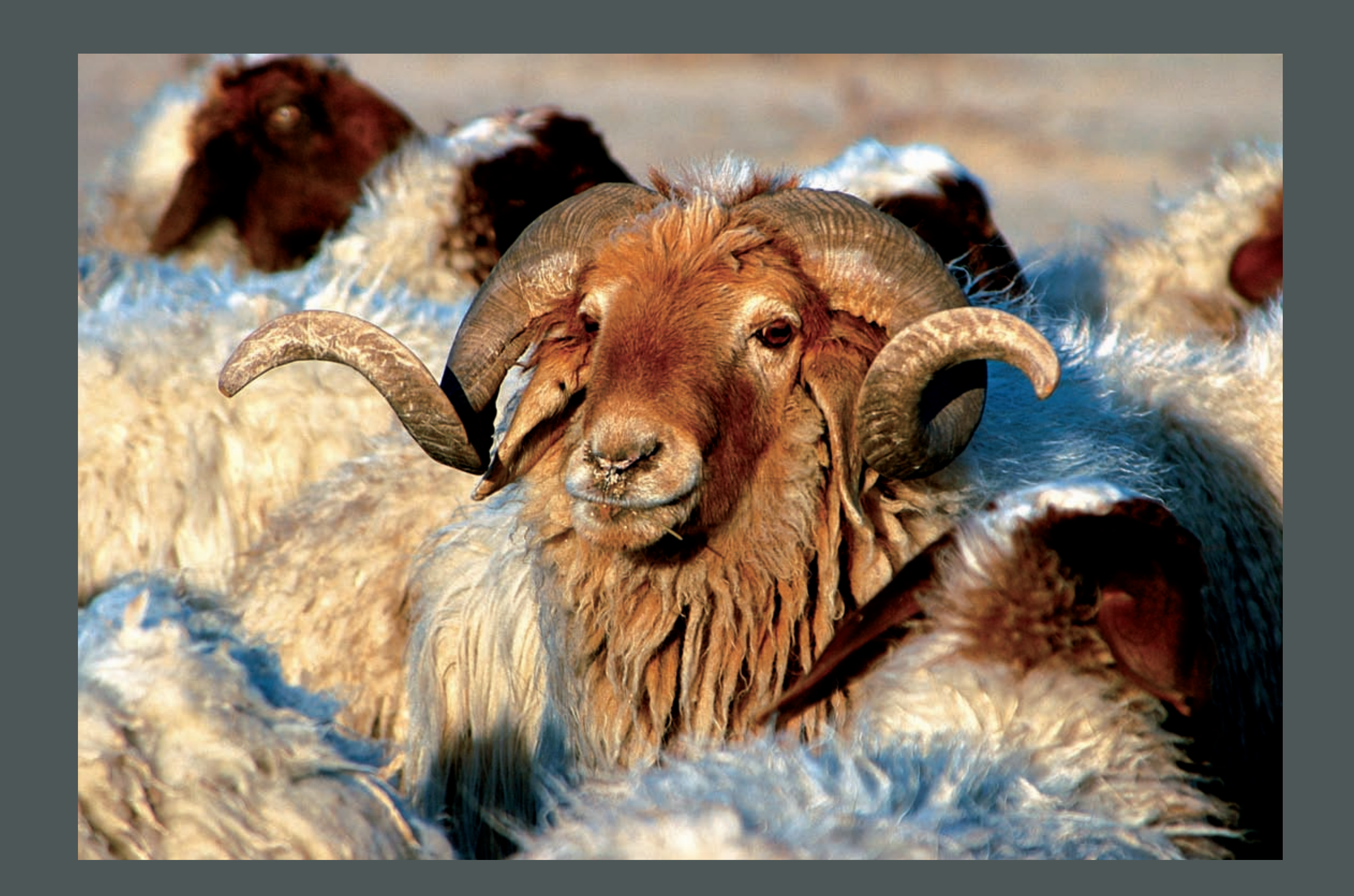




المصور مصلح جميل

قاص ومصور، تعلَّم التصوير عن طريق القراءة المتخصصة وحضور دورات متخصصة في التصوير بأستراليا ودبي، يعمل صيدلانياً بوزارة الصحة ويطمح لدراسة فنون التصوير والفنون البصرية التي يمارسها بشغف. حصل على عدة جوائز في التصوير والقصة القصيرة منها المركز الثالث بجائزة أبها الثقافية 2003م والمركز الثاني في المسابقة الدولية للمجلة الأمريكية المتخصصة بالتصوير «بابيولرفوتوجرافي» في التصوير الإبداعي. يرأس الآن نادي التصوير الضوئي بجمعية الثقافة والفنون في الدمام.





المصور مصلح جميل

عصر الجُزُر الثقافية

زهير بدر الدين*

لو ألقى أي منَّا نظرة على نوعية الاهتمامات «الثقافية» –بأوسع معاني الكلمة– التي تشغل الناس من حوله، للاحظ فوراً توزع هؤلاء على مجموعات صغيرة تتنوع تنوعاً كبيراً ليس فقط على صعيد المادة الثقافية موضع الاهتمام، بل أيضاً على صعيد وسائل النشر الثقافي نفسها. وكان يمكن لهذا التنوع أن يكون دليل غنى ثقافي لولا تنكُّر كل مجموعة لوجود غيرها من المجموعات، واكتفاء كل واحدة بما في ذاتها من دون أي اعتبار لما في المجموعة الأخرى.

فالبعض، من الشبَّان بشكل خاص، يتطلع إلى الإنترنت وكأن شمس الثقافة تشرق منها وتغيب فيها. وهناك من يعتبر الشعر قضية عمره، وهناك من يرى الرواية مجال التعبير الثقافي الأهم والأخطر، وهناك من يرى ألاَّ شيء يستطيع أن يخلع التلفزيون عن عرشه.. المشكلة، هي أن كل مجموعة من هذه المجموعات ترفض التطلع صوب غيرها.. وعندما تفعل، فغالباً ما يكون ذلك مصحوباً بالاستغراب أو النقد.. بدليل أن الكثيرين ممن هم في العشرينيات من أعمارهم حولنا واضطرهم الاستخدام المفرط للكمبيوتر والإنترنت إلى استخدام النظارات الطبية، لم يقرأوا رواية واحدة في حياتهم.. ولا شيء يشير إلى أنهم سيتكبدون هذا العناء في يوم من الأيام. وتأكيداً على صحة هذه الملاحظة، نشير إلى الراديو.. هذا الجهاز الذي لا يقتنيه الكثيرون ممن هم في العشرينيات وما دون، وكأنه من اختراعات العصر الحجري كما قد يدور في أذهانهم.. هذا الراديو لا يزال موجوداً بالفعل، وله جمهوره الذي يشكِّل جزيرة خاصة.

وإذا كان التلفزيون وحده يقتحم أكبر عدد من هذه الجزر الثقافية، فالأمر يعود إلى طابعه الترفيهي وليس الثقافي، بدليل أن متابعي البرامج الثقافية النادرة جداً على شاشته يشكِّلون بدورهم واحدة من أصغر الجزر.

في علم الاجتماع، يستخدم العلماء تعبير «تذرر» للإشارة إلى تفتت كتلة كبيرة إلى مجموعات صغيرة تفقد صفة الاجتماع أو الجمعية –من ذَرَّة– ولعل هذا التعبير هو أفضل المتوفر لوصف عالم الثقافة اليوم.

يرى البعض أن المشكلة لا تكمن في الأداة فقط، بل في المضمون أيضاً. فالراديو الذي لا نعرف شيئاً عن برامجه الثقافية على سبيل المثال –هذا إذا كان لا يزال يبث برامج ثقافية–يحضر بقوة في سيارات الشبَّان فقط للموسيقى التي يبثها، والتي يقتصر دورها على تعبئة فراغ، أو الأصح إلهاء المستمع الشاب عن الفراغ الذي يعاني منه.

والأسفار والرحلات التي كانت العمود الفقري الذي تشكَّلت منه ثقافة الكثيرين من الأدباء والكتَّاب، أصبحت اليوم إما للاستجمام وإما للتسوق.

باختصار، كان هناك عصر تضافرت فيه قراءة الرواية والشعر مع السفر، مع الجريدة اليومية والراديو والتلفزيون والسينما ومعارض الأعمال الفنية، في صوغ الثقافة.. ثقافة الأفراد الذين يتألف منهم المجتمع. أما اليوم، فكل واحد من هذه العناصر الثقافية بات يصوغ ثقافة كل فرد على حدة.

والسبب؟
قد يكون السبب في انهيار الأيديولوجيات الكبرى التي كان يلتف حولها الملايين وشغلت العالم في القرن العشرين وما سبقه، وقد يكون في تعدد قنوات الاتصال واستحداث المزيد منها يوماً بعد يوم.

الأمر يحتاج إلى دراسة متأنية قبل إطلاق الأحكام، ولكن المؤكد أن هذا «التذرر» يشكِّل حجر عثرة كبيراً جداً أمام سطوع نجم أي عمل ثقافي أمام أعين كل الجمهور المستهدف نظرياً. وبالتالي، فإن مقاييس الجودة والنجاح والفشل لم تعد كما كانت حتى الأمس القريب.

* كاتب أردني

ما بين الكتاب والتلفزيون والإنترنت...

الراديو لايزال من دون بديل



بعيداً عن صخب الأحاديث حول آخر ما توصلت إليه تكنولوجيا الاتصالات، ورواج آخر مبتكراتها، لا يزال الراديو يبث، وما زال هناك من يستمع إليه، ويفضله على غيره من وسائل الاتصال والتثقيف والترفيه. والواقع أن المسألة ليست مسألة تفضيل أو اختيار شخصي. إذ إن الراديو يمتلك من المقومات والمواصفات ما يؤهله حتى يومنا هذا، للقيام بدور تعجز وسائل الاتصال الأخرى عن القيام به. وهذا ما يحاول الدكتور فكتور سحّاب أن يسلط الضوء عليه من خلال قراءته للتحول الذي طرأ على الراديو، وعصره، معتمداً في ذلك على خبرة كسبها خلال عمله أكثر من ثلاثين سنة في إذاعة لبنان، وإليه يضيف الباحث المتخصص في وسائل الاتصال والملكية الفكرية جعفر حمزة قراءته لمكانة الراديو في وسائل الاتصال.



الراديو.. تغيَّر الجهاز، والمستمع أيضاً

1 عصر الراديو...
ما انقضى وما لم ينقضِ منه

أداة الكتاب الكلمة المقروءة، ويدخل في بابها الصحف والمطبوعات، تقرؤها من دون أن ترى أو تسمع ما يحدِّثك عنه الكاتب. فإذا وصف لك، فالكتاب يترك لك متسعاً رحباً ليرسم خيالك أنت، الصورة التي تعبِّر عنها الكلمة المكتوبة. وكم من كاتب نبغ، لأنه تحكَّم باللغة والكلمة إلى درجة تطويعها في الرسم بالكلمات، فتحوّل كتابه أو روايته إلى «صندوق فرجة» يكاد أن يؤدي، على ورق أبكم، كل أنواع الصورة والشكل واللون والحركة، بل المشاعر والأحاسيس. وفي هذا النوع من الاتصال بين البشر، امتاز الكتاب في أن دور القارئ ومخيلته حيوي إيجابي.

وإذا بدا القارئ في الكتاب مستلقياً وكأنه يتلقَّى وحسب، فإن ما لا نراه في القارئ هو حركة ناشطة في مخيلته، تعيد رسم الصور وخلط الألوان وتسيير الحركة، وكأنه مخرج سينمائي يضع من جديد على الشاشة ما كتبه الروائي.

مع الإذاعة، لا يزال المجال رحباً لتمريس المخيلة والحلم، لإعادة تكوين الشكل والحركة والمشهد

في الإذاعة تتلقى الأذن كل ما يمكن أن يكون مكتوباً... ومعه الموسيقى والغناء. ولذا فمع الإذاعة، لا يزال المجال رحباً لتمريس المخيلة والحلم، لإعادة تكوين الشكل والحركة والمشهد. وفي هذا تحتل الإذاعة مكانة مرموقة، في تراتب وسائل الاتصال، من حيث صفة كونها بنَّاءة.

فإذا نُظر إلى مراتب الوسائل الثلاث: الكتاب والإذاعة والتلفزيون، فإن المتحمسين للكتاب والإذاعة يرون أن هاتين الوسيلتين تمتازان على التلفزيون في غير صعيد.

«راديو»... شعاعي

كلمة «راديو» في اللغات اللاتينية هي بأدئة معناها: شعاعي، أي ما ينسب إلى الشعاع، وهو نصف قطر الدائرة. ولما كان الشعاع ينطلق من المركز إلى محيط الدائرة، ولما كان البث الإذاعي أشبه بخروج الأشعة من المركز إلى الدائرة، اختيرت كلمة راديو، لتعبر عن آلة بث الصوت، من المركز، أي محطة البث، إلى المحيط الدائري، أي جمهور المستمعين.

ففي صعيد الترفيه، ثمة أسباب للاعتقاد أن الوسيلة التي تحرِّك الخيال، تكون أقدر على الترفيه العميق لا السطحي، لأن الخيال أوسع وأشد تنوعاً من الحقيقة.

ويظن هؤلاء أن الخيال، لما كان أجمل من الحقيقة، فإن قارئ الكتاب والمستمع إلى الإذاعة أقرب إلى السعادة في الإجمال، من مُشاهد التلفزة. وعلى الصعيد التربوي، ليس من شك عند هؤلاء، ما دام الكتاب والإذاعة يحفزان المخيلة أكثر، في أن تمريس المخيلة وتمرينها بالنصوص التي لا تكتمل فيها الصورة، أشد فائدة في بناء وظائف العقل البشري.

أما على الصعيد النفسي فإن الراديو أقدر على أن يقيم علاقة حميمة مع المستمع، لأن المرء إذا كان مستلقياً في آخر يومه، يستعد للنوم، فهو يطفئ النور، ويأخذ في الاستعداد للنوم باسترخاءة حميمة، فيشعل الراديو قرب سريره، ويستمع بل لعله يستمتع بما يختاره من برامج. ولا تستطيع أن تستلقي لمشاهدة التلفزيون على هذا النحو، لأنه يشترط استواء الرأس للمشاهدة، وتيقظ عدد من الحواس. أما إطفاء النور فإن التلفزيون يفسده عليك بومضات ضوئية غير منتظمة، تتراقص لتقطع انتظام هدوئك المستعد للنوم. وكثير من المدمنين على الراديو، هذا الإدمان الممتع، صاروا يتبعون شبه مراسم وطقوس للاحتفال بساعة النوم. وصار الراديو عندهم محوراً ومحركاً أساساً لمواعيد تخرج عن إطار لحظة الاستماع نفسها، لتصبح جزءاً من سياق يومهم ومراحل اليقظة والنوم والحركة والراحة والعمل والاسترخاء.

الصوت والصورة

كانت الإذاعة في عصرها الذهبي منتجاً أساساً للفن الراقي، في كثير من البلدان. وكانت أول إذاعة عربية حكومية قد نشأت في القاهرة في 31 أيار (مايو) 1934م فتولّت بث غناء عربي في أعلى مراتبه. وفي سنة 1938م، أنشأت حكومة الانتداب في لبنان وسورية إذاعة «راديو أوريان» التي صارت الإذاعة اللبنانية. وسرعان ما أنشأت سورية سنة 1942م إذاعتها الرسمية. وكان لهاتين الإذاعتين دور واضح وحاسم في إنتاج فن موسيقي رفيع.

أما في فلسطين فأنشأ الانتداب البريطاني إذاعة الشرق الأدنى سنة 1939م، ثم نشأت فكرة الاهتمام بتمدين موسيقى أرياف بلاد الشام، وهي مهمة انتقلت من فلسطين إلى لبنان، مع انتقال فريق الشرق الأدنى بعد النكبة إلى بيروت. وكان أبرز من تولَّى رعاية الموسيقيين اللبنانيين الشبَّان في المشروع هذا، حليم الرومي، الذي تسلَّم



stockXchange

منصب رئيس المكتبة الموسيقية في إذاعة لبنان، وصبري الشريف الذي كان يشرف على الإنتاج الفني في إذاعة الشرق الأدنى.

اليوم ثمة أنصار للإذاعة يقولون إن التلفزيون خرَّب كل شيء، فحلَّت الصورة وجودتها، محل الصوت والاهتمام بجودته. ويقول هؤلاء إن معايير الفنون البصرية تعاظم دورها في الإنتاج التلفزيوني على حساب معايير الفنون السمعية في كثير من الأحيان.

> **كانت قلة الحيلة في الراديو عنصر قوة، إذ كان على العمل الإذاعي أن يتفوق في ابتكار أساليب الاتصال مع المستمع**

أما أنصار التلفزيون فمنهم من يقول إن الرداءة في الموسيقى العربية سبقت ظهور التلفزيون وطغيانه على الإذاعة، فلا يصح أن نربط الأمرين سبباً بالضرورة. غير أن الشيء الذي لا جدال فيه، هو أن السبيكة السمعية التي كانت الإذاعات توفِّرها أنفس من السبيكة السمعية البصرية في تلفزيونات اليوم العربية، في المعدَّل.

وثمة سبب واضح. كانت الدول وحدها تقريباً، في البلاد العربية على الأقل، هي التي تنشئ الإذاعات. وكانت التكلفة زهيدة نسبياً بالمعدات والمرتبات والإنتاج، إذا قورنت بتكاليف المستوى نفسه من عناصر الصوت والصورة والحركة في التلفزيون، أضف إلى ذلك شبه الوباء، لدى كل من امتلك بعض مال وحوافز لينشئ محطة تلفزيونية. كل هذا دفع إلى الاستسهال دفعاً. كانت قلة الحيلة في الوسائل الإذاعية عنصر ضعف في المقارنة مع التلفزيون بالطبع، لكنها كانت أيضاً عنصر قوة في الوقت نفسه. إذ كان على العمل الإذاعي بوسائله المتاحة (الصوت وملحقاته من مؤثرات صوتية وإلقاء وما إليها) أن يتفوق في ابتكار أساليب الاتصال مع المستمع لنقل كل ما أمكن إليه، من أجل سد ثغرة هذا النقص في الوسائل المتاحة. فكيف يعبِّر لك في الراديو عن الألم أو الحزن أو المشاعر على اختلافها؟ لقد استمد الراديو قوته من سعيه في التعويض. فهل كانت



corbis

..عندما كان اختراعاً جديداً

قوة التلفزيون سبب ضعفه أيضاً؟ لقد سهَّل تنوع عناصر العرض التلفزيوني (الصوت والصورة والحركة واللون وكل ملحقاتها) مهمة العاملين وراء الشاشة الصغيرة، ولم يعد مطلوباً منهم أن يصفوا المشاعر ولا الحركة ولا الحوادث وكيف تحصل، ولا اللون.

في جانب كان ضيق الوسيلة حافزاً على التحسين والترقية وفي جانب آخر كانت سعة الوسيلة متسعاً رحباً للاستسهال. ومن ناحية ثانية، فتحت حاجة العمل التلفزيوني إلى كثير من المال الباب واسعاً ليدخل المال التجاري في الميدان. والمال التجاري لا يأبه للرسالة الثقافية أو الاجتماعية، مثلما تأبه الحكومات. ولذا لم يكن مفاجئاً أن تتقلص حصة الثقافة الجيدة في الفن التلفزيوني عموماً، على الأقل في المعدل العام.

من هم المستمعون والمشاهدون؟

قد يوحي الكلام على التنافس بين الإذاعة والتلفزيون، أن جمهورهما واحد. والحقيقة أن الجمهور واحد وليس واحداً. فثمة أوقات وأماكن تنفرد فيها هذه الوسيلة، ولا تستطيع الأخرى منافستها فيها. ففي السيارة الراديو هو الملك المتوَّج. وفي المقابل لم نعد اليوم نستطيع أن نتخيَّل

منذ الستينيات والوظيفة السياسية للصورة ترجّح كفة التلفزيون





google



magnum

وقابلية الراديو للنقل تبقي كفته راجحة عند المتنقلين

شخصاً يستمع إلى وصف مباراة كرة قدم في الراديو لا التلفزيون. كان الكابتن محمد لطيف المصري، مؤسس فن إذاعة المباريات في الإذاعة، متعة حقيقية لمن تسنَّى له حظ الاستماع إليه والاستمتاع بثقافته الرياضية وخفة ظله. وقد انتقل كثير من أسلوب الكابتن لطيف بعد وفاته، إلى تلاميذه الذين يتولون اليوم وصف المباريات. لكن هؤلاء باتوا يعملون للتلفزة لا الإذاعة.

لم يكن يونس البحري، الصوت العربي في إذاعة ألمانيا النازية، سوى دليل آخر على ما يمكن للراديو أن يفعل في السياسة

لكن هذا التلفزيون الذي يستبد بالمشاهد، لقوة أثر الصورة في الناس في كثير من الحالات، يقف عاجزاً عن المنافسة، حين يكون المستمعون كتّاباً منصرفين إلى التأليف مثلاً أو موظفين في عملهم أو ربَّات بيوت، يطبخن أو يكوين الثياب مثلاً.

الدور السياسي

كان أشهر دور سياسي لعبه التلفزيون في بدايته، عندما أخذ يؤثر في حملات انتخابات الرئاسة الأمريكية، في سنة 1960م، حين خسر نائب الرئيس، وهو رتشارد نيكسون أمام الديمقراطي الشاب جون كينيدي. ففي المناظرة بين الرجلين، ظهر نيكسون بذقنه وكأنها لم تُحلق، فيما ظهر كينيدي بتلك الكتلة الشهيرة من الشعر على جبينه.

«التلفزيون»... الرؤية البعيدة

كلمة تلفزيون (Television)، بلفظها هذا فرنسية، أما الإنجليز فيلفظونها: تليفجن. وهي مركبة من كلمتين أولاهما tele، وهي أصلا كلمة يونانية تعني: من بعيد. وأما الثانية فهي vision، أي الرؤية، في عدد من اللغات الأوروبية. وتُلفظ: فيزيون بالفرنسية، و: فيجن بالإنجليزية.
أما الألمان، فيسمون التلفزيون: فيرنزيه (Fernseh)، من كلمتين ألمانيتين: fern، وتعني بعيد، وseh، وهي من فعل: sehen الألماني الذي يعني: رأى. وفي جميع الحالات تعني الألفاظ هذه: الرؤية من بعيد.

وفي هذه المرحلة، كان التلفزيون قد دخل لتوه الأوطان العربية. لكنه كان لا يزال باهظ الثمن قليل الانتشار. بينما كان ثمة اختراع آخر، ياباني اسمه «الترانزستور»، يمتاز بميزتين: فهو يُحمل في كف اليد، وهو رخيص جداً. ويقال إن الحوافز السياسية القومية آنذاك كانت عاملاً أساساً لانتشاره، سعياً في سماع محطات بعينها.

ولم يكن يونس البحري، سوى دليل آخر، في عصر الراديو، على ما يمكن لهذا الجهاز أن يفعله في السياسة. كان يونس البحري الصوت العربي في إذاعة ألمانيا النازية، الداعي إلى الاصطفاف ضد الحلفاء. وكان نداؤه الإذاعي «حيَّ العرب» شهيراً جداً. أما أشهر إذاعات الحلفاء الناطقة بالعربية، فكانت إذاعة الشرق الأدنى من يافا في فلسطين.

وثمة من يربط بين ظهور الإذاعة في عشرينيات القرن الماضي، وتأجج المشاعر القومية في ذلك العصر، وبلوغها حدود التعصّب المفرط في حالات، لأن الشعوب أخذت تستمع من إذاعة واحدة، إلى ثقافة واحدة بلغة واحدة، هما الثقافة واللغة القوميتان، وتستذوق سبيكة فنية متجانسة.

ولم يتسنَّ للتلفزيون أن يلعب طويلاً هذا الدور، إذ سرعان ما نشأت التلفزيونات العابرة للحدود القومية والثقافات والقارات، مع ظهور الأقنية الفضائية. وصار التلفزيون في نظر البعض عامل تفتيت اجتماعياً، لكثرة السبائك الإعلامية التي يتيحها تعدد المحطات، وعامل توحيد أفقياً بعيد المدى في نظر البعض الآخر، لأن العربي في كندا مثلاً، صار قادراً على مشاهدة معظم التلفزيونات العربية، بفضل صحن صغير ينصبه فوق سطح بيته.


corbis

التلفزيون.. حضور دائم وثابت منذ عقود

أشهر برامج الراديو العربية

اتفقت كل محطات الإذاعة العربية على إذاعة برنامج فكرته واحـدة، وكان يطلق عليه فـي كل المحطات اسم واحد: «ما يطلبه المستمعون». ونادراً ما كانت برامج الإذاعات تتشابه بالاسم، إلا هذا. وكانـت إذاعة لبنان تقدِّم كذلك برنامجاً أسبوعيـاً مساء يـوم الأحد، اشتهر منـذ خمسينيات القرن الماضي، اسمه سهرة مع الأنغام. وكان في كل مرة يستقبل فناناً من الكبار فيحاوره حواراً طويلاً.

أما إذاعـة القاهرة فكانت لها برامج كثيـرة اشتهرت أيضاً. وكانت حفلات أم كلثوم الشهرية، في أول خميس من كل شهر قد بدأت تذاع فيهـا منذ سنة 1937م. كذلك اشتهر برنامج، لعله أطول البرامج الإذاعية العربية عمراً، وهو برنامج ألحان زمان، الـذي كان يعده المـؤرخ الموسيقـي المرحوم محمود كامـل، ولا يـزال يذاع إلى الآن. وكانـت إذاعة القاهرة تزخر ببرامــج تمثيلية، وهي تقدِّم الآن مسلسلات شهرية، وكان من أشهرها سمارة، الذي أبدعت في تمثيله الفنانة الراحلة تحية كاريوكا. كذلك أبدعت زوزو نبيل في برنامج: ألف ليلة وليلة. وكان من أبدع ما أنتجه فن الإذاعة العربي على الإطلاق.

وفـي إذاعـة دمشق اشتهرت فـي برامج تمثيليـة شخصيتا أم كامـل وأبو رشـدي. وكانت أم كامل هــي الفنان السوري المعـروف أنـور البابـا. ويذكرهـا المستمعـون بعبارتهـا الشهيرة: «يوه يوه يوه، ولي على قامتي».

2 الراديو.. في سلَّة وسائل الاتصال



تـدرَّج التفاعل البشـري مع المحيط منذ بـدء الخليقة إلى يومنا هذا، في ثلاث موجات:

- الأولـى: (نحـو 3500 ق.م.) ظهـور اللغـة المكتوبة التي سمحت بالتدوين.
- الثانيـة: (منتصـف القـرن الخامـس عشـر الميلادي) اختراع يوهـان غوتنبـرغ الطباعة وانتقـال المجتمع من الاتصـال الشفوي وحده تقريبـاً إلى الاتصــال المكتوب على نطاق واسع.
- الثالثـة: اكتشاف الحاسوب في ستينيّات القرن الماضي، وانتقال المجتمع إلى مرحلة الاتصال المتفاعل.

ونضيـف موجـة رابعـة هـي موجـة العالـم المفترض (الافتراضـي) فـي الإنترنـت، إذ أصبحـت للحواس بيئة تسمـع وتبصر وتتكلم، وقد تلمس فيها، لتصبح المجتمعات البشريـة – إذا استمـر التضخـم الافتراضـي دون تقنين معقلـن – «كانتونـات» ملونـة ترسم لنفسها حـدوداً وهوية مختلفـة، وعالماً مسوّراً، نتيجة لذلـك التضخم الذي يلغي التفاعل البشري بصورته الطبيعية.

ويشهـد المجتمع المعاصر حضـارة الصورة التي طغت في التلفزيون والفيديو والإعلان والحياة العامة، ونجد ذلك في الأزياء والأثـاث والتزويق والرسوم والمعارض. وقد أضعف هذا العامـل في ذاته فضـاء الثقافة وضيّـق مساحة القيم المرتبطة بالرمزي أو المجرد في المجتمع.

كليلة ودمنة أم توم أند جيري؟

صارت الصورة التلفزيونية تثير مخاوف من سيطرتها على الكلمـة المسموعة، وخصوصاً في ظل تغير طرأ في المجال السمعي، حين تداخل الإنترنت والأجهزة الحديثة مع مسار مثل أجهزة الآيبود.

إن وسيلـة التلفزيون تُلغي التوقـع والرمز والتأويل التي تكون مرتبطـة بالوسيلـة المكتوبـة أو المسموعـة، لينطلق الفرد علـى إثرها إلى ساحـة التفكر والتأمـل والتحليل والتركيب. فالوسائـل البصريـة المعاصـرة تقدم المكافـآت والإشباع حالاً، وبالتالي تفتقر إلى لذة من نوع آخر يبحث عنها الفرد، ألا وهي القدرة على التأمل والتفكيك والتركيب مرة أخرى.

لقد تحولت اللغة قسراً إلى قوالب لتصبح ذات مدلول واحد ومباشر دون عمق، كمـا حال اللغة العربية، فأصبحت اللغة أدوات للدلالـة التقنية ولم تعد جزءاً مـن الثقافة كما يقول الدكتور عبد الرحمن عزي.

ومثل هذه الحال كمثل قصتي كليلة ودمنة وتوم أند جيري، فالأولى مخزون لفظي ودلالي، ومنطلق للتفكير والتأمل ينبثق من اللغة القصصية ، فيما نرى أن توم أند جيري صورة دون لفظ، وحركة دون تعقيب، ومباشرة دون رموز، ويكون هضمها بسيطاً مستساغاً، فلا حاجة إلى التفكير، لأن النتيجة جاهزة والتوقع ربما موجود سلفاً. وبعبارة أخرى توم أند جيري «شطيرة همبرجر» أو «Fast Food» الثقافة البصرية. أما الثقافة المكتوبة والمسموعة فغذاء تقليدي يحتاج إلى جلوس وتمتع بأكله.

مع التلفزيون، تحولت اللغة قسراً إلى قوالب ذات مدلول واحد ومباشر

وعلى الرغم من إدعائنا ضرورة مراجعة الذات في أصل مقدار التلقي من الصورة أو الكلمة خشية تصدّع فعل الاتصال أو إصابته بالصدأ، فإن غَلَبَة البصر وجورَهَ على الحواس الأخرى بات واقعاً، بل طبيعياً على نحو يستلزم قراءة من نوع آخر لفتح دائرة التأمل للحواس الأخرى، بالمضي قدماً في دورها المعرفي في حياة المجتمع البشري المعاصر.

وقد رسم الشعور بالسيطرة والتحكم، من خلال الحاكوم «Remote Control»، ملامح جديدة للتفاعل مع الذات ومعرفة الآخر لدى الإنسان المعاصر، فقد أصبح «تأطير» الحقيقة أمراً مطلوباً ومرغوباً فيه، وبوسائل شتى، وقيل «إن وسيلة التلفاز تقدِّم الحياة مشهداً مرئياً أو عرضاً (Spectacle)، وقد تحولت ميادين الحياة إلى شيء مرئي للاستهلاك الآني». فهذا لا يبعدنا عن أصل التحدي القائم في واقع الاتصال للحاسة الأخرى وهي السمع، وهي مجال حديثنا المقارن.

وعند الحديث عن الإذاعة فإن الخيال يكون الرهان في احتفاظ الإذاعة بهيبتها وتفردها، فضلاً عن توسعها وسهولة انتشارها كالهواء، لتشمل دائرتها المتعلم والأمي، الفقير والغني على السواء، وتتميز دائرة التأثير الإذاعي بأنه أكثر حرية في الحركة من التلفاز، فجمهور الإذاعة يتمتع بإمكان الحركة، والعمل في أشياء متعددة أثناء متابعة الأخبار أو برامجهم المفضلة، بالإضافة إلى قدرتهم الدائمة على الاستماع إلى الإذاعة وهم يتحركون في سياراتهم، وهذه ميزة.

وعند التطرق إلى سر الإذاعة لا بد من معرفة جاذبية الأذن. فالتلفزيون عندما يخاطب العين بالصورة الملونة المتحركة، عن أي حدث إخباري أو ثقافي أو ترفيهي، لا يترك للمشاهد مساحة ولو ضيقة، لتسريح خياله ومشاعره الخاصة، ولكنه يكشف له عن كل شيء، بلا أي حرص على خيال المشاهد الخاص وذوقه وثقافته وأحاسيسه ومشاعره.»

وتتميز الإذاعة بفردها لمساحة من التأمل وتواضعها في شغل اهتمام حاسة واحدة، لتبقى الحواس الأخرى تتفاعل مع المحيط، ويبقى السؤال عن مناهج الاتصال الحديثة وتزاحمها الصُوَرِي للظفر بأوسع الاهتمام عند الإنسان، ولا أدل على ذلك من تقليص حجم التلفزيون ليكون أبعد من مجرد جهاز يحتل مساحة معينة، إذ أصبح جزءاً من جسمك (الهاتف المزوَّد بتقنية الجيل الثالث 3G) وهو الجهاز الذي يتعامل مع الأذن.

وما زال الراديو صامداً، ربما!

طرحت الوتيرة المتسارعة في الابتكار والتطور في مجال الاتصال، الكثير من المشكلات الثقافية والفكرية والإنسانية في طبيعة العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، مع تصاعد محموم لوسائل الاتصال الحديثة، فما هي حال الوسائل التقليدية في الاتصال، ومنها الراديو؟

في الخمسينيَّات من القرن الماضي، وعند انتشار التلفزيون، ساور بعض العاملين في مجال البث الإذاعي القلق من مصير الراديو بصفته أداة اتصال جماهيري. ومع تولّد وسائل جديدة منها الآيبود (iPod)، والإم بي3 (MP3)، فإن لهذا القلق صدىً الآن، وقد تناوله المؤتمر الدولي للبث الإذاعي الذي عُقد في دبي بدولة الإمارات العربية المتحدة، وشارك فيه ممثلو مؤسسات وشركات إذاعة من مختلف أنحاء العالم.

وفي تعقيب على محور المؤتمر، يقول حسن معوض، المدير العام لإذاعتي إم بي سي – إف إم وبانوراما إف إم: «كيف يمكن للإذاعة أن تبقى على قيد الحياة؟ هذا هو السؤال

هل ضاع الراديو نهائياً أمام انتصار الأطفال للبصريات؟



webshot

المطروح في ضوء أدوات الترفيه والإعلام والإخبار الأخرى مـن تلفزيـون وإنترنت وآيبـود وما إليهـا». ويستطـرد بأن «الإذاعـة يمكـن أن تستفيد من التطـور التكنولوجي ليُكتَب لها البقـاء». ويوضح قائلاً: «الآن بالإذاعـة الفضائية التي تعمل من خـلال الأقمار الصناعية، يمكنك أن تُوصـل إرسالك إلى بلـدان أخرى، حيث يمكن أن يُسمع بنقاوة جيدة».

الخيال يكون الرهان في احتفاظ الإذاعة بهيبتها وتفردها

ويبـدو أن الانتظـار والتقييـد الزمنـي دفعا بالإنسـان إلـى اقتنـاء مـا يريد سماعـه من الإذاعـة ليعيد الاستماع في أي وقت وهو يتحكم بما يسمع، ويسمى هذا «Pod Casting» وهو بـث إذاعي مسجل سلفاً يمكن الحصول عليه بالاشتراك مع مؤسسة للخدمات وتنزيلها على الإنترنت.

ويتبين أن الخوف من التسجيل حقيقي وقوي، إلا أن لطارق مامـي، مدير إذاعـة فرنسـا- المغرب في باريـس ورئيس الجمعيـة الفرنسية للإذاعات الرقمية رأيـا آخر، إذ يقول: «نخـاف اليوم أن يمشي كل الناس على الآيبود والإم بي 3». ويوضح سمتين أساسيتين تمتاز بهما الإذاعة على الأجهزة الجديـدة، فيقول: «الإذاعـة تعطيك الخبـر عندما يقع أي شيء، الآيبـود لا يعطيك الخبر؛ الإذاعـة تأتيك بالمفاجأة عندمـا تستمـع إلى الأغانـي، الآيبود لا يعطيـك المفاجأة، فأنت سجلت ما في الآيبود وتعرف ما ستسمع».

الإذاعة وحرية المستمع

ويميـز الإذاعة دون غيرها من وسائل الاتصال، أنها وسيلة الاتصـال الوحيدة التي يمكنـك استعمالها أينما كنت، بكل مـا للكلمة من معنى، لتخاطب مستمعـا أينما كان، إذ تكون دائـرة الحاسة الخاصة بها أوسـع بكثير من دائرة البصر، وبـذا يكون مجال الحركة معها ممكنـاً، فيما تكون الوسائل الأخرى (التلفـزة والإنترنت والصحـف والكتب) محدودة ضمن مـكان التلقي. لقد أصبحت للإذاعات موجات أخرى للبـث، فقد وظفت موجاتهـا لتكون بمثابة موجـات الرادار الحربيـة تارة، وموجـات لخطاب مُثير عنـد البعض ومؤيّد عند البعض الآخر تارة أخرى.

اختـراع الراديـو استخـدم بتوسـع بعـد الحـرب العالمية الأولى سنـة 1920 م. ولقد أصبح الراديو بوجهيه التقليدي (الموجـات MW،SW، FM، AM) والحديـث (Pod Casting، Satellite radio) متمكنـاً أكثر من السابق على الرغـم مـن وجـود أدوات اتصال أخـرى تستأثـر باهتمام الحواس لـدى الإنسـان المعاصـر، وذلـك نتيجـة فِطريّة الاتصال عبر الأذن، إذ ما زال الراديو متفاعلاً مع المستمع باستخدام طرق بصرية أخـرى كالإنترنت، ورسائل النص الهاتفي SMS.



وللراديو تاريخ

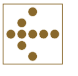
- 1895: تمكـن الإيطالـي النابغـة غوليلمـو ماركونـي، وهـو في الواحدة والعشرين من العمر، من بث أول إرسال لاسلكي، مسافة كيلومترين ونصف كيلومتر، في مدينة بولونيا الإيطالية.
- 1896: عرض ماركونـي اختراعه على البريد الإنجليزي وحصل على براءة اختراعه.
- 1897: أنشـأ ماركونـي أول شركة لاسلكيـة، وسماها سنة 1900 على اسمه ماركوني.
- 1897: صنـع أستـاذ الهندسة الكهربائية في جامعـة أركنساس الأميركية وليام غلادسون، آلة بث لاسلكي تجريبية.
- 1899: أنشـأ ماركونـي أول اتصــال لاسلكي بين البر الأوروبي في فرنسا وإنجلترا عبر بحر المانش. وسافر إلى أميركا.
- 1901: أثبـت ماركونـي أن البـث اللاسلكـي لا يتأثـر باستـدارة الأرض، إذ بـث من كورنـوول في إنجلتـرا، إلى كنـدا، من على مسافة 3380 كيلومترا، عبر الأطلسي.
- 24 ديسمبـر 1906: نظّـم ريجنالد فسنـدن أول إذاعة لجمهور، لمناسبة عيد الميلاد، وتلقى فيه أول إعلان مدفوع يُذاع.
- 1907: افتتـح ماركونـي أول اتصال لاسلكي تجاري بين القارتين الأمريكية والأوروبية (إيرلندا).
- 16 ديسمبـر 1907: أول غناء يبث باللاسلكي، غنته يوجينا فرار، في وداع بحارة أميركيين ذاهبين لمحاربة الإسبان.
- 31 ينـاير 1909: أول رسالة لاسلكية من سفينة غارقة.
- 12 و13 ينـايـر 1910: درفوريـه ينظّم أول بث إذاعي لحفلة أوبرا مـن مسرح متروبوليتـان في نيويورك، كان فيهـا مؤلفات غنائية لبوتشيني وليونكافالو، وغنى المغني الشهير إنريكو كاروزو.
- 7 نوفمبـر 1916: إذاعـة دوفوريـه التجريبيـة تذيـع نتائـج أول انتخابـات رئاسية أمريكية تبث بالراديـو: فوز تشارلز هيوز على وودرو ولسون.



في إطار تطوير مفاهيم التربية السليمة، وإزالة العثرات الكثيرة من أمام حوارات الأهل مع أولادهم، ظهر مؤخراً كتاب جديد من إعداد ثلاثة دكاترة أخصائيين في مجالي علم النفس والتربية، هم: موريس إلاياس، وستيفي توبليس، وبرايان فريدلاند، بعنوان «التربية بواسطة الذكاء العاطفي، كيفية إنشاء أطفال منضبطين قادرين على تحمل المسؤولية ولديهم المهارات الاجتماعية». مهى قمر الدين* تعرض لنا بعض المسائل المهمة التي يثيرها هذا الكتاب.

«التربية بواسطة الذكاء العاطفي»..

كي تصبح أسئلة الأهل في محلها!



قبل الحديث عن المبادئ التي تساعد في بناء الذكاء العاطفي أو تساعد في تحفيز عملية التفكير عند أطفالنا، تجدر الإشارة إلى أن أغلبنا تعلَّم مجموعة من المبادئ العامة أدَّت إلى كمية كبيرة من المشكلات التي يمتد تأثيرها السلبي إلى حجب التفكير والتحليل عند أطفالنا.

وهذه المبادئ المغلوطة تتضمن بعض الحكم المكتسبة التي انتقلت عبر الأجيال، والتي ترتبط في كثير من الأحيان ببعض الخلفيات التراثية. وليس المطلوب تقييم وتصنيف تلك المبادئ بأنها خاطئة أو صحيحة، وإنما علينا التساؤل عن مدى ملاءمتها لمعطيات التربية في عصرنا الحاضر.

ويمكن تلخيص هذه المبادئ الشائعة بما يأتي:

1. أن نقدِّم لأطفالنا كلما سنحت لنا الفرصة عِبَراً من طفولتنا نحن، مثال «عندما كنت في سنِّك...». وهذه الطريقة تقطع الطريق أمام الاحتمالات الأخرى التي قد تبرز أحياناً في عدة مواقف تكون من العصر الذي يعيش فيه أطفالنا.

2. أن نقيِّم أفكارهم وأقوالهم باللحظة التي يعبِّرون عنها، أي أن نعمد على تصنيفها «بالجيدة» أو «السيئة». وهذه الطريقة قد لا تقدِّم في كثير من الأحيان المعلومات الكافية التي يحتاجها الطفل لاستكمال طريقة تحليل الأمور لديه وبلورتها.

3. أن نكون جديين في كل الأوقات، أي أن نفرض عليهم القيام بكل الواجبات مثل المساعدة في الأعمال المنزلية والواجبات المدرسية والاعتناء بإخوانهم الأصغر سناً.. وما شابه، من دون إعطائهم فرصة للاعتراض، مما يخنق لديهم حرية إبداء الرأي، فيعتادون على الخنوع والخضوع للسلطة الأعلى من دون إعمال عقولهم وتشغيلها.

* أخصائية تربية من لبنان

الأهل.. ليسوا مُثلاً عليا

أما عن السبل التي يجب على الأهل اتباعها من أجل تحفيز عملية التفكير عند أطفالهم، فيمكننا الإشارة إلى أنه على الأهل ألاَّ يقدِّموا أنفسهم على أنهم «أشخاصاً كاملين» في جميع الأوقات. إذ يجب أن يظهروا بأنه يمكنهم أن يخطئوا أحياناً. وهناك قلة من الأهل تسمح لأولادها بالاطلاع على ما يدور في أذهانها. وهذا شيء مهم لأنه يجعل الأولاد يدركون أنه من الممكن أن تكون للمرء مشاعر سلبية، وأن يشعر بالحِدَّة، أو أن لا يمتلك الحل الأمثل لكل الأمور في كثير من الأحيان.

وهنالك الوسيلة التي يتبعها الأهل لحثِّ أطفالهم على القيام بمهارات كانوا قد تعلموها سابقاً، إذ ليس من المهم فقط تعليم المهارات، بل يجب ممارستها في حياتنا اليومية. وإحدى الطرق التي تحمل الأولاد على استخدام المهارات بطريقة أكثر استقلالية هي أن نذكِّرهم بها. وهنا يجب أن نراعي الفرق بين التذكير والإصرار على فعل الشيء بطريقة مزعجة. فالتذكير يعترف ويحترم وجود العقل عند أطفالنا، وما نفعله أثناء عملية التذكير هو تحفيز العقل لكي يركِّز.

ومن المهم إعطاء الطفل الخيارات أثناء عملية التذكير هذه مثل: «هل تريد أن تتمرن على طباعة هذه الورقة الآن أو بعد الأكل؟». أما الحث والإصرار المتكرر فيشبه هذه الفكرة، ولكنه يفترض غياب القدرات العقلية وبأننا نحن من يفكِّر ويقرِّر مكان الطفل.

طريقة طرح الأسئلة

ولطريقة طرح الأسئلة أهمية كبيرة في الحوار مع أطفالنا. ففي المبدأ، هناك أربعة أنواع من الأسئلة التي يمكن أن يطرحها الأهل على أولادهم:

1. الأسئلة التي تبحث عن السبب مثل: «لماذا ضربت رفيقك؟» أو «لماذا لا يمكنك أن تتذكَّر ما قلته لك؟» أو «لماذا لا تساعد شقيقتك؟».

2. الأسئلة التي تحمل عدَّة احتمالات مثل: «هل ضربته لأنه استفزَّك بأخذ غرض من أغراضك أو لأنك كنت غاضباً من أمر آخر؟» أو «هل تتذكر الأشياء عندما أعيدها على مسمعك أو عندما أترك رسالة تذكِّرك بها في غرفتك؟» أو «هل تساعد شقيقتك عندما أعطيك مكافأة؟» أو «هل تريدني أن أهددك بإنزال العقاب بك؟».

3. أسئلة الخطأ والصواب مثل: «هل ضربك له خطأ أم صواب؟» أو «هل بإمكانك أن تتذكر الأشياء عندما أقولها لك؟» أو «هل ستساعد شقيقتك أم لا؟».

4. الأسئلة المفتوحة مثل «ماذا حصل بينكما؟» أو «ماذا عساني أن أفعل لك حتى يكون أسهل لك أن تتذكَّر الأشياء المهمة التي أطلبها منك؟» أو «كيف يمكننا إيجاد طريقة يمكنك معها أن تساعد شقيقتك عندما تحتاج المساعدة؟».

الأولاد لا يحبون «لماذا؟»

يجد أكثر الأولاد صعوبة في الاجابة عن الأسئلة التي تحتوي على كلمة «لماذا». لأنها غالباً ما تحمل اتهامات مبطنة لهم، والأولاد كما الكبار، يعمدون على اتخاذ موقع دفاعي إذا ما شعروا باللوم يُوجه إليهم. علاوة على ذلك، يطرح الأهل الأسئلة التي تتضمن كلمة «لماذا» في الأوضاع التي تدور حول المشكلات. وفي أغلب الأحيان يجيب الأولاد بـ «لا أعرف»، أو «لم أفعل ذلك» رداً على ذلك النوع من الأسئلة. وهذا النوع من الأسئلة التي تُطرح لمعرفة السبب، تضع الأولاد في موقع الضعف، لأنهم لا يمتلكون مهارات الذكاء العاطفي المكتملة في تلك المرحلة المبكرة من حياتهم.

وغالباً ما يُسرع الأهل في طرح الأسئلة التي تُعطي أكثر من احتمال أو أسئلة الصح والخطأ إذا ما شعروا بتمرُّد أولادهم. ويضع هذا النوع من الأسئلة الضغوط على الأولاد، ويحرمهم من إمكانية التفكير بأي تعليل آخر يكونون قد توصلوا إليه بأذهانهم.

وهكذا، إذا كانت الضغوط عليهم قوية، فقد تحرمهم من تمرين عقولهم والتعبير والنطق بما يرونه هم الجواب الأمثل.

أهمية الأسئلة المفتوحة

أما الأسئلة المفتوحة، فبالرغم من أنها تستلزم وقتاً أطول، إلاَّ أنها تخلق جواً إيجابياً يشعر معه الأولاد بأنهم يمتلكون الحلول لمشكلاتهم مما يعزِّز ثقتهم بأنفسهم. وليس من السهل التعود على طرح ذلك النوع من الأسئلة، لذلك على الأهل تمرين أنفسهم عليها. وفيما يلي طريقة لتحويل الأسئلة التي تبحث عن السبب إلى أسئلة مفتوحة. 1. ماذا حصل؟ 2. ماذا أردت أن يحصل؟ 3. كيف تشعر؟ 4. ماذا كان الشخص الآخر يفعل؟ 5. ماذا حصل قبل ذلك؟

يشار هنا إلى أن الأسئلة التي تبحث عن السبب، والأسئلة التي تحمل عدة احتمالات وأسئلة الصواب أو الخطأ قد تكون مفيدة في بعض الأوقات. لذلك على الأهل التأكد من إيجاد التوازن المقبول بين ذلك النوع من الأسئلة والأسئلة المفتوحة في حواراتهم مع أولادهم.

وأخيراً يمكننا القول إنه لا يمكن تطبيق أي من المبادئ المفيدة التي تحدثنا عنها، من دون بناء علاقات جيدة تتميز بالثقة المتبادلة بين الآباء وأولادهم وتسمح للآباء بإرشادهم وتعليمهم. إذ إن هناك الكثير من المؤثرات التي يمكن أن يتعرَّض لها أطفالنا، ولا يمكننا معها الظن بأنه يجب على أولادنا طاعتنا والالتزام بما نقوله لهم لمجرد كوننا آباءهم. فشئنا أم أبينا، نحن في عصر الأسئلة. والطريقة الجيدة للإجابة عن تساؤلات أولادنا، هي في عدم التسرع بتقديم الأجوبة. إنما الطريقة الأمثل هي في الكلام الأقل والإصغاء الأكثر واستبدال الفرض بالإقناع، أي ببناء الشخصية من الداخل وليس الطلب بإبراز تلك الشخصية أمام أعين الأهل.. ظاهرياً فقط.


المحترف السعودي

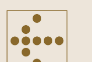
صورة شخصية





« بل تستطيعين.» كلمة قالتها والدة أغاثا كريستي لابنتها فأدخلتها عالم الكتابة الرحيب.. ولكن إذا كنت طفلاً تعيش في إحدى مدن الأطراف البعيدة عن مصادر الثقافة والتلقي، فما الذي يمكن أن يدفعك لتصبح أديباً، تكتب للطفل، وللطفل فقط؟ قد تحصل على الإجابة عندما تقرأ هذه الصورة الشخصية للأستاذ فرج الظفيري، الكاتب والأديب السعودي المتخصص في أدب وإعلام الطفل، والتي ترسمها للقافلة الصحفية السعودية ابتسام رياض.

فرج الظفيري
كاتب للطفل.. وليس سواه



في مدينة حفر الباطن السعودية، القريبة من الحدود السعودية الكويتية نشأ فرج الظفيري.. مدينة شبه منعزلة وبعيدة عن المراكز الرئيسة للبلاد.. عانى أهلها نقصاً شديداً في المطبوعات بشكل عام، سواء أكانت كتباً أم مجلات أم غيرها. ففي السبعينيات، لم يكن هناك وجود لشركات توزيع، بل كان البريد الوسيلة المتبعة للحصول على المجلات والجرائد، رغم ما ينتج عن ذلك من وصول المطبوعة متأخرة شهرين أو ثلاثة من موعد صدورها.

نسخة واحدة من أجلي..

كانت مجلة بساط الريح وبعض القصص المصورة التي تنتجها الشركات اللبنانية هي متعة فرج التي يحرص عليها. قد تأتي أو لا تأتي، فالأعداد التي يحصل عليها ما هي إلا المرتجع من المدن الكبيرة. وكان وصول هذه المجلات يعتبر فتحاً عظيماً في تلك الفترة. يقول فرج: «أنا متأكد أن شركات التوزيع عندما بدأت تجلب هذه المجلات لم تكن تحضرها إلا من أجلي! فالاهتمام بالقراءة كان معدوماً تقريباً».

وبالنسبة لفرج، لم تكن الكتب المدرسية تلبي احتياجاته الثقافية والمعرفية، ومازالت إلى الآن غير كافية.. فوجد في نفسه نهماً شديداً لقراءة أي كتاب يقع في يده، خاصة مع ظهور وانتشار بعض مجلات الأطفال بصورة أوسع عما كانت عليه كمجلة ماجد، ومجلة سعد.. ومع زيادة نهم فرج للقراءة بدأ يهتم بالكتابة وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة من العمر.. ووضع نصب عينيه أهدافاً تحقق بعضها، ولايزال يسعى لتحقيق الباقي. فكلما كبر فرج، كبرت أحلامه التي تحقق بعضها على أرض الواقع، ولا يزال يسعى لتحقيق أحلام هدفها المشترك أن يصبح رائداً في مجال أدب وإعلام الطفل.

الساقط!!

على استحياء عرض فرج القصص التي كتبها على مدرس اللغة العربية بالمدرسة. كان ذلك في المرحلة الإعدادية، وبعد قراءته للقصص علّق الأستاذ كاتباً عليها: «إذا كان هذا الإنتاج من الابن فرج فهو يدل على وجود أديب وكاتب جيد».. شجعت هذه الكلمات فرج على تقديم قصصه لأستاذ آخر وهو الأستاذ أحمد الصقعوب. يقول فرج: «كان للأستاذ أحمد دور كبير في حياتي، فلقد أعطاني جرعة كبيرة من القراءة من خلال مكتبته العامرة بالكتب التي جمعها أثناء سفره للدراسة خارج مدينة حفر الباطن.. وأنا أعترف له بهذا الجميل».

استمر فرج يزور أستاذه في بيته ينهل من مكتبته ما شاء، إضافةً إلى الكتب التي كان يهديها إياه بين فترة وأخرى. إلى أن لاحظ والده استغراقه في القراءة ليل نهار، مما أثار شفقته عليه فقال له: «يا بني أنت ترهق نفسك وتتعبها كثيراً في القراءة التي لا داعي لها، نظرك ضعيف والقراءة لن تفيدك». فقال فرج: «إذا كنت تقصد الفائدة المادية يا أبي، فسترى هذا الورق يتحول إلى مال، وأنا من سيفعل ذلك»، وهو يقول اليوم: «وما توفي والدي إلا وهو يرى أني قد حوَّلت الورق مالاً فعلاً».

كان اهتمام الوالدين منصباً على الدراسة فقط، حتى أن والدته كانت تدعوه بالساقط (الراسب) في إحدى السنوات لأن ترتيبه جاء الثاني وليس الأول كما عوَّدهم دائماً.

مرحلة تكوين الاتجاه..

كانت نهاية المرحلة المتوسطة مرحلة تشكيل الاتجاه. وبما أنه متفوق دراسياً، رغب والداه بدخوله القسم العلمي. أما ابن أخته فهد، فقد رغب أن يصبح خاله طبيباً «حتى ترفع رأسنا بين الجماعة». فرد فرج قائلاً «هدفي أن يمتد اسمي من المحيط إلى الخليج، وليس بين الجماعة فقط». وقرر فرج بعد استشارة مدرسيه، أن يدخل المعهد العلمي (دراسة أدبية وشرعية) حتى يتمكن -من خلال دراسته لألفية ابن مالك والتي درَّسها



فيما بعد- من النحو والأدب، أما العلوم الشرعية فاستفاد من دراسته لها في تقديمه الأدب كرسالة منضبطة بآداب الشريعة.

كانت فترة دراسته في المعهد فترة ركود. فلم يكن وقته يسمح بالكتابة، بالإضافة إلى التذبذب الذي كان يمر به، والتساؤلات التي تجول في رأسه عن القصة، هل هي حلال أم حرام؟ إلى أن وصل إلى اقتناع تام ليس فقط بأن القصة حلال، بل بأهميتها في ترسيخ المبادئ والقيم الفاضلة في المجتمع.

خارج الحدود..

في عام 1997م، تخرَّج فرج في جامعة الإمام محمد ابن سعود بالرياض من كلية الشريعة بتقدير ممتاز. وعاد بعدها إلى مدينة الحفر ليبدأ انطلاقته، بعدما لاحظ أن المجلات الموجودة كالأنيمي الياباني، لا تقدِّم سوى مادة تعتمد على الإبهار فقط. فهي بلا هدف ولا رسالة. فبدأ بإخراج الدفاتر المخبوءة التي كُتبت قبل عشر سنوات. أعاد كتابتها وهذَّب بعضها، وأخذها إلى أقرب مكان للنشر وهو الكويت. كانت مجلة «العربي الصغير» قد عاودت الصدور، وأعلنت عن استعدادها لاستقبال الكتَّاب والرسامين. فأخذ فرج ما كتب وذهب إلى الكويت. وعند وصوله طلب مقابلة رئيس تحرير مجلة العربي الصغير فلم يجده، بل وجد «سنابل المسلم» سكرتيرة التحرير وقتها التي أخذت منه القصص التي كتبها. بعد أسبوع تلقى اتصالاً أبلغه بقبول بعض المواد، ويطلب منه الحضور إلى الكويت.

طلب الدكتور محمد المنسي قنديل -أحد أبرز كتَّاب الطفل المميزين- من فرج تحويل القصة إلى سيناريو، وأعطاه نموذجاً لسيناريو مكتوب.. رأى فرج أن السيناريو ما هو إلا الفكرة نفسها التي خطرت له سابقاً، وهي وصف يقوم الرسام برسمه، وحوار على لسان الشخصيات المرسومة.

بالنسبة لفرج، كانت المسألة واضحة وبسيطة. فانتهى من عمل السيناريو وسلَّمه للدكتور قنديل الذي كان مندهشاً من السرعة التي أنهى بها فرج المهمة. وكانت هذه بداية تعاون استمر ثلاث سنوات بالإضافة إلى تعاونه مع مجلات أخرى كسعد وماجد وبراعم الإيمان وغيرها من المجلات التي كانت كلها من خارج الحدود.

عودة وتحدٍّ

في نقاش دار بين فرج وأحد الأشخاص، قيل له: «لم لا تقدِّم أعمالك لبلدك الذي يعاني من نقص واضح في الأعمال الجيدة بدل العمل خارج الحدود؟». لفت هذا التساؤل نظر فرج إلى أنه لم يحقق هدفه الذي طمح إليه، وهو أن يكون أديباً سعودياً بما أن كل جهده منسوب لغير بلده. فقرر التوقف عن الكتابة كمهنة والاكتفاء بما حققه من نجاح فيها.. في تلك الأثناء قابل الأستاذ محمد عدنان غنَّام -رحمه الله- فأقنعه بالمحاولة وأشار عليه بتقديم مشروع لتطوير مجلة «باسم».

بعد تفكير، استقر رأي فرج على المحاولة. درس المجلة وقدَّم مشروعاً لتطويرها إلى الدكتور فهد الطياش -مدير عام الشركة السعودية للأبحاث والنشر سابقاً- الذي قرَّر بعد الاطلاع على المشروع تعيين الأستاذ فرج الظفيري رئيساً لتحرير مجلة «باسم» وأظهر استعداده لتقديم الدعم والمساندة له. كان فرج أمام تحدٍ كبير إما النجاح وإما الفشل، وبمساندة الدكتور الطياش، أصبحت «باسم» في عهد فرج مدرسة في أدب وإعلام الطفل. كما تميزت بفريق عمل ناجح ومتميز، ولكن هذا الواقع لم يستمر طويلاً، إذ ترك فرج المجلة قبل إتمام ما خطط له.

كانت الأعوام الممتدة من 2001 وحتى 2005م مرحلة زاخرة في تاريخ «باسم»، فقد تميزت المجلة بمحتوى على أعلى مستوى من الجودة، لدرجة أنه تمت مراسلات من وزارة التربية والتعليم بدولة الإمارات لاختيار بعض القصص المنشورة فيها لتوضع في المناهج، وقدَّم مجموعة من دارسي الماجستير رسائلهم عن مجلة باسم في هذه الحقبة.

ولماذا أكتب لغير الطفل؟

منذ 11 عاماً وحتى الآن لايزال فرج يعمل مدرساً للمواد الشرعية بالمدارس الابتدائية، وهو يؤمن بضرورة تغيير المناهج من حيث أسلوب العرض، وليس في المحتوى. «أما العلوم المتجددة فهي فعلاً بحاجة إلى تغيير، فآخر تحديث للمعلومات في بعض المواد كان قبل أن يولد المدرسون» حسبما يقول.

يعتبر الأستاذ فرج أحد المنظرين في أدب الطفل، حصل في العام 2006م على درجة الماجستير في الإعلام من الجامعة الأمريكية بلندن، وهو من أغزر كتَّاب الطفل إنتاجاً في منطقة الخليج، خاصة في مجلات الأطفال. تفرَّد فرج عن غيره بالكتابة للطفل فقط، ولم يكتب أبداً لغير الطفل.. «ولماذا أكتب لغير الطفل؟.. هذه رسالتي وهذا هو المجال الذي أبدع فيه».

طيب يا خال.. نجرِّب

بعدما ذكرنا الدور الكبير للأستاذ الصقعوب والدكتور فهد الطياش في حياة فرج، يأتي دور الشخص الأعمق تأثيراً في نفسية فرج وهو ابن أخته فهَّاد الظفيري.. يقول فرج: «فهَّاد هو الملهم لي في كل ما فعلته من دون أن يشعر. كلما عرضتُ عليه أمراً، يقول: طيب يا خال وماذا في ذلك؟ فلنجرِّب. كلمات بسيطة يقولها بتلقائية. كانت تخطر ببالي كلما ترددتُ في الإقدام على أمر ما. لذا فأنا أعتبره شريكي في كل نجاح. وإن كان الناس يأخذون عادةً ممن هم أكبر منهم سناً، فقد أخذت أنا ممن هو أصغر مني».

مجلة «مكّي» إنجاز آخر، فهي صادرة عن مشروع تعظيم البلد الحرام تهدف لغرس قيم التعظيم في نفوس أطفال مكة، واختير فرج ليكون رئيس تحريرها. صدرت المجلة بأربع لغات -غير العربية- وهي الإنجليزية والأوردو والمليباليم الهندية، وكانت هذه أول مرة في تاريخ مجلات الأطفال تترجم فيها مجلة عربية إلى لغة أخرى، وقد تم توزيعها على الحجاج في موسم حج 1427هـ.

عالم الأطفال

يعمل فرج الآن على تحقيق حلمه القديم.. «عالم للأطفال».. عالم مختلف، على غرار «عالم ديزني» بمنتجاته، بأعماله، بإنتاجه الإعلامي المرئي والمسموع والمطبوع، باحتوائه على كل ما يختص بالطفولة من مصانع وألعاب وكتب وكل ما يمكن أن يخطر على البال، ومحوره الطفل والطفل فقط. وقد بات هذا المشروع في مرحلة الإعداد التي قد تستمر لثلاث سنوات تقريباً، عدا مرحلة التنفيذ التي قد تستغرق بضع سنوات أخرى.

حمد وسعد ولطيفة وطيف هم أبناء الأستاذ فرج.. مازالوا يعيشون في مدينة حفر الباطن التي مازالت -كمدن وقرى كثيرة غيرها- بعيدة نوعاً ما عن قنوات التواصل.. فهل سيجدون من يقول لهم: «أنتم قادرون؟» وهل سنسمع قريباً عن كاتب أو عالم أو مفكر من مدينة كحفر الباطن وجد من يقول له: «بل تستطيع»، لنرسم له صورة شخصية؟!



المشهد الثقافي السعودي

بين انتصار الرواية وبطولة القارئ



تشهد الساحة الثقافية السعودية جملة تحولات نوعية تسارعت في الآونة الأخيرة، وباتت لكثرة الأسئلة التي تطرحها، مادة تشد الأنظار إليها في محاولة لرسم صورتها العامة، إن لم نقل تفرض رسم هذه الصورة. وهنا مساهمتان تسعيان إلى ذلك.

المساهمة الأولى هي من الدكتور صالح زياد[1] الذي يركِّز في قراءته لهذه التحولات على الرواية السعودية، بوصفها المجال الأكثر تعبيراً عمَّا طرأ على الساحة الثقافية من متغيرات في السنوات القليلة الماضية، حتى أصبحت قبل العشرين من عمرها، المادة الأدبية السعودية الأكثر إثارة لاهتمام القرَّاء وجدالهم.

أما المساهمة الثانية، وهي للكاتبة منال العويبيل[2]، فتتناول المجالات الثقافية المختلفة من شعر وفن تشكيلي ومسرح، بعد أن تتوقف بدورها ومطولاً أمام.. الرواية نفسها.

1 ناقد وأكاديمي سعودي
2 صحافية سعودية

1 البحث عن قيمة إنسانية وإبداعية
حقبة الرواية: اكتشاف الحرية

للمرحلة الراهنة في تاريخ الثقافة السعودية ملامح مميزة، تحيلها إلى نقلة نوعية على مستوى التصورات والأشكال، وعلى مستوى الكثافة والتعدد. ويبدو الحد الزمني لهذه النقلة منذ أوائل التسعينيات الميلادية؛ إذ ابتدأت الرواية مع غازي القصيبي وعبده خال وتركي الحمد ورجاء عالم... تشكِّل المنعطف إلى فضاء من الرؤية والبناء والتعبير يتموضع به الواقع كما يتموضع به الكاتب بالشكل الذي يسمح برؤية مجهرية تتجاور فيها الهوامش الاجتماعية مع المتن، وينحل الصوت الواحد إلى أصوات متعددة ومتعاكسة، في تصاعد للنبرة النقدية، وبدايات انكسار لأوهام المثالية والطهورية والنقاء تجاه الذات الاجتماعية.

تكتسب هيمنة الرواية امتيازاً بالقياس إلى مرحلة ازدهار شعر التفعيلة وقصيدة النثر والقصة القصيرة

ولا تختلف -مثلاً- «شقة الحرية» أو «العصفورية» لغازي القصيبي في إضاءتهما لحمَّى الشعارات الأيديولوجية والأوهام الشعبية، عن «أطياف الأزقة المهجورة» لتركي الحمد، بأجزائها الثلاثة: «العدامة» و «الشميسي» و «الكراديب» في غوصها على الباطن الاجتماعي وكشفها عن المختلف والمفارق، في سرد تنكسر فيه المعاني الضخمة في الحس الإنساني، ليعيش أزمة المعرفة والحقيقة، وصراع الأيديولوجيات، وتصادم الواقع والمثال، والحرية والقيد...

استدعى هذا المسار -من بعد- عشرات الروايات والأسماء الروائية التي اكتشفت بروايات القصيبي والحمد أفق الحرية الإبداعية، فولجت إلى تخوم التابوهات الاجتماعية واستبدلت بالصمت وتبادل الإقصاء والإلغاء بين المختلفين صيغاً سردية من الحوار والحضور والتجاور على نحو ما دوَّن علي الدميني في روايته «الغيمة الرصاصية».

ولم يكن التعاطي مع التابوهات، بأكثر دلالة على تعرية الواقع من كثافة تناول الرواية السعودية للأنثى، لتصير الشخصية الأولى في روايات عدد من الروائيين والروائيات، ناطقة بلسان الأنا وليس الغائب، كما في «القارورة» ليوسف المحيميد، و «الفردوس اليباب» لليلى الجهني، و «وجهة البوصلة» لنورة الغامدي، معوضة عن غياب المرأة الاجتماعي، ومعلنةً عن حضور إشكالية حقها الوجودي والإنساني في المجتمع، الحق الذي غدا التعاطي معه علامة على وعي جديد بقيمة المرأة ودهشة الحياة بها ومعها.

قيمة الحب

وهنا تأتي تيمة «الحب» التي يرتبط السرد بها عضوياً. فلا رواية بلا امرأة، ولا سرد بلا حب. وقد توالت في هذا المدار أصناف المغامرات العاطفية والعلاقات التي تحكي عواطف ممتلئة برغبة الحياة وإرادتها وعنفوانها، في تصادم مع عوائق وسياقات، وتقاطع مع سلوكيات الذكورة والفحولة، لتغدو المرأة ضحية الرجل بمعناه الاجتماعي، وربما كانت روايتا محمد حسن علوان «سقف الكفاية» و «صوفيا» ورواية رجاء الصانع «بنات الرياض» و «حب في السعودية» لإبراهيم بادي، أبرز الأمثلة. وهي أمثلة تتداخل، من الوجهة الواقعية، مع طائفة أخرى من الروايات السعودية التي اتخذت المرأة وجهة لموضوعات غير مطروقة، وعلى درجة من الحساسية الاجتماعية والثقافية؛ كالعنصرية والمناطقية والكفاءة في النسب، في «ميمونة» لمحمود تراوري، و «الحفاير تتنفس» لعبدالله التعزي، و «جاهلية» لليلى الجهني، وبعض العادات والأعراف البدوية المهينة للمرأة كالشغار أو زواج البدل والحجِّر وغيرها، كما في روايتي «قنص» و «أو على مرمى صحراء في الخلف» لعواض العصيمي، و «البحريات» لأميمة الخميس، و «هند والعسكر» لبدرية البشر، وروايات قماشة العليان وزينب حفني.

ولأن الرواية «فن التلفت للوراء» كما يقول ميلان كونديرا، فإن بعض نماذج الرواية السعودية في الخمس عشرة سنة الأخيرة، فضلت العودة إلى الماضي القريب، ماضي الطفولة، أو ماضي الأحداث وخاصة حرب الخليج، أو أحداث 11 سبتمبر. فـ «الحزام» لأحمد أبو دهمان حافلة ببدائية القرية وأسطوريتها الفولكلورية، تماماً كما هي معظم روايات عبدالعزيز مشري، حيث التشكيل الفردوسي للماضي وجه للاحتجاج على الحاضر وإدانته.

وقد أتاحت أزمة الخليج كما أتاحت أحداث 11 سبتمبر ونحوهما مساراً للرؤية السردية في اتجاه الإدانة للغلو والتعصب بأشكاله المختلفة، والتفكيك لبنية التطرف وظروف تشكله والقلق النفسي والفراغ الممهور بواقع اللحظة وتداعيات أحداثها وهو ما نقرؤه لدى إبراهيم الخضير في «عودة إلى الأيام الأولى»، وفهد العتيق في «كائن مؤجل»، و «ريح الجنة» لتركي الحمد، و «الإرهابي 20» لعبدالله ثابت.

أمـا عجائبيـة رجاء عالم ولغتهـا الممتنعـة والنخبوية ووجهتها التجريبية، في معظم رواياتها، فتعبير عن المعنى العميق للإبداع والتشكيـل المتحرر من الواقـع والمحلق باتجـاه المعاني الكلية التـي تبدو تهديداً لمقروئيتها وانحسارها في دائرة النخبة، ومع أن ذلك وجـه من وجوه الانسحاب من المواجهة، أو هو التعالي، فإنه لا يشبه الهروب والانسحاب الذي تمثله الأسماء المجازية – كما هو مرجح– لصبا الحرز في «الآخرون» وورده عبدالملك في «الأوبة»، وهاجر المكي في «غير وغير» وطيف الحلاج في «القران المقدس»... والقائمة مرشحة –كما يبـدو– للامتداد، وبوتيرة أكثـر إيغالاً في الفضائحية والتخفي، تحـت سطوة متزايدة من لهـاث دور النشر تجاه غرائبية المجتمعات الخليجية المحافظة وسريتهـا ووضعية المرأة فيهـا، الأمر الذي يهدد صدقيـة الإبداع، وينذر بأعمال سردية ممهورة بمواصفات مطلوبة تسويقياً!.

دواوين الشعر ومجموعات القصص القصيرة لا تزال حاضرة ولكن توزيعها يبقى محدوداً

النقد الثقافي والاجتماعي

هذه الهيمنة المتصاعدة للرواية على ملامح المرحلة الثقافية الراهنة في المملكة العربية السعوديـة، تكتسب امتيازها بالقياس إلى المرحلة السابقة عليها التي امتدت طوال السبعينيـات والثمانينيات من القرن الماضي. وهي مرحلـة ازدهر فيها شعـر التفعيلة وقصيـدة النثر والقصة القصيـرة، فـي اتجـاه مـن التجديد الـذي أمعن فـي النفور من التقليد والمحاكاة والمضاميـن والصور الجاهزة، وغاص عميقاً بحثـاً عن التشكيـل المتفرد أو هياماً بالتجريـب واستشعاراً لقلق الإنسان واغترابـه في العصر وإشكالاتـه الوجودية. فبرزت بنية اللغـة وتشكيلها تشكيلاً يقصد إلـى الموضوعية بتدوين المحتوى النفسي الذي لا يحده منطق.

وبقدر ما شهدت مرحلـة السبعينيات والثمانينيات –وهي التي يشـار إليهـا بمرحلة «الحداثـة»– ولادة الجدل حـول النظرية الأدبيـة والمنهـج النقدي الـذي دشنه كتاب سعيـد السريحي «شعـر أبـي تمـام بين النقـد القديـم ورؤيـة النقـد الجديد» (1983م) وكتـاب عبـدالله الغذامي «الخطيئـة والتكفير: من البنيويـة إلى التشريحية» (1985م) اللـذان أبرزا أهمية اللغة والأسلـوب وما يندرج في إطارهما.. وبقدر ما تصاعدت وتيرة الأمسيات والندوات الأدبيـة، وطباعة الدواوين والمجموعات، واشتعـال الصحافة بنجومية شعـراء ونقاد هذه المرحلة، فقد كانـت شكـوى الغموض والإبهـام شائعـة تجـاه أدب الحداثة ونقدهـا، حتـى ليمكن القـول إنها ظلـت محصورة فـي دائرة الفاعليـن فيها، وقليلاً ما لفتت انتباه القـارئ العادي، بمنطق الاختيار الحر واللذة الذاتية للقراءة.

ولهـذا كان تصاعـد الروايـة فـي التسعينيات ومـا تلاها دالاً مـن وجهـة الانتشـار في مستويـات القـرَّاء العاديـين أي غير المتخصصيـن. فبالرغم مـن أن دواوين الشعـر ومجموعات القصـة القصيرة لا تـزال حاضرة في المطابـع ودور النشر، وما زلنا نعد في كل عام عشرات من إصداراتها الجديدة، فإن توزيعهـا يبقى محـدوداً، وبعض كبريـات دور النشر تمتنع عن نشرها فضلاً عن أن المؤشرات الإحصائية للعام الماضي تدلل علـى الانحسار الكمي نسبيـاً للشعر، والتقـدم للرواية. ولنعد، في هـذا الصدد، إلى بعض إحصائيـات الببليوجرافي خالد اليوسف عـن الإصـدارات السعودية في المجـال الأدبي، ففي عام 2003م بلغ عدد الدواوين الشعرية 64 ديواناً، ومجموعات القصـة القصيـرة 31 مجموعة، في حين بلـغ مجموع الأعمال الروائيـة 27 رواية. ويقفز عدد الروايات فـي عام 2006م إلى 41 روايـة، يقتـرب إنتـاج المـرأة فيها مـن التعادل مـع إنتاج الرجل (20 رواية للكاتبات و21 رواية للكتَّاب)، وبنتيجة أخرى مدهشة هي دخول 20 كاتباً وكاتبة لم يسبق لهم الكتابة في أي مجال أدبي قبل ذلك، وتصاعد لاتجاه النشر في خارج المملكة بمجمـوع 21 روايـة في مقابل 19 رواية فـي الداخل. وذلك في مقابـل 44 ديواناً شعرياً، لـ 39 شاعـراً وشاعرة، لا تزال الغلبة فيها للرجل (34 ديواناً مقابل 10 دواوين للشاعرات)، و17 من الشعـراء والشاعرات ينشـرون لأول مرة، وللنشـر في الداخل الغلبـة بـ 24 ديواناً مقابل 15 ديواناً فـي الخارج، و5 لم يوضح مكان نشرها.

لكـن تصاعد الرواية السعودية المستمر فـي الحقبة الأخيرة، ليـس معـزولاً عـن السيـاق الثقافـي والاجتماعي فـي الداخل والخـارج. فقـد شهدت الفكـرة النقديـة تحـولاً جوهرياً نحو «النقـد الثقافـي» الـذي انصـب على إبـراز العيـوب الثقافية النسقية وتعرية نماذجها فـي السلوكيات والعادات والأعراف، وفـي النصوص التي لم تعـد قيمة جمالية شكليـة بل أصبحت وثيقة ثقافيـة لا تقل النكتة أو الطرفة العابـرة فيها أهمية عن القصيـدة العصماء. ولا تفترق القصة أو الحكاية الشعبية عن المثل أو عن الرواية أو أي مدونات تراثية تتسم بالحكمة وتنزل منزلة نفيس القول.

واتجـه النقد الثقافي، جوهرياً، إلى الكشف عن أبوية المجتمع وذكوريتـه، وعن الاستبداد بوصفه معنى ثقافياً، وشغلت قضية المـرأة والتمييز الجنسي جانباً أساسـاً من اهتمامه، وبرزت، في هذا الصدد كتب عبدالله الغذامي: «ثقافة الوهم» و «المرأة واللغة» و «النقد الثقافي» وكتاب سعيد السريحي «حجاب العادة: أركيولوجيـا الكرم من التجربة إلى الخطـاب» و «نص المرأة» لعالي القرشي، ومقالات سعاد المانع عن «التحيز ضد المرأة» و «تمثيـلات الجسد» لمعجـب الزهراني... وغيرهـا. كما برز الاهتمام بدراسة التحيز الثقافي لدى سعد البازعي في كتابيه: «استقبال الآخر» و «المكون اليهودي في الحضارة الغربية» إلى جانـب الاهتمـام بالمصطلحات والحفر فـي دلالاتها وسياقها المفاهيمي الذي برز في تخصيص مجلة (علامات) حيزاً في أعدادها، وفي مؤلفات ميجان الرويلي وسعد البازعي.

وتبدل ساحة الصحافة أيضاً

ومـا يقال عن الفكر النقدي السعـودي -على مستوى النخبة- في هذه الفترة، يمكن أن يقال عن الصحافة السعودية التي بدأ هامش الحرية فيها يتسع تدريجياً منذ أزمة تحرير الكويت، ويتعزز بشكل أبعد مدى بدخول المملكة إلى ثورة الاتصالات الحديثة ممثلة في تكاثـر وتنوع قنوات التلفزة الفضائيـة، وفسح المجال للإنترنت، ومنـاخ التنافـس الذي طوق المنتـج الصحفي السعـودي في ظل هذا الفضاء المفتوح على العالم واتساع مساحة الاختيار والتنوع، وتتويج ذلك بانضمام المملكة إلـى عدد من المنظمات القانونية والإنسانيـة الدوليـة، وعلـى رأسهـا منظمـة التجـارة العالمية، وتأسيس مركز الملك عبدالعزيز للحوار الوطني.

لا يمكننا أن نفهم انفجار الرواية السعودية من دون فهم تمثله الرواية للمرأة وبها

وكان أبـرز ما حققته الصحافة السعودية، في ضوء هذه العوامل، أن دخلت إلى واقع العصر الذي أصبح وعي القارئ بما يتطلبه هو مصدر القيمـة التي تعلـو بها درجة توزيـع الصحيفة أو تنخفض، ومـن هنـا احتضنـت كبريـات الصحـف السعوديـة كتَّاباً من طـراز نقدي على درجـة من الاختلاف والجرأة، مثل: إيمـان القويفلي، وتركي السديـري، وحسين شبكشي، وحمـزة المزيني، وحمود أبو طالب، وخالد الدخيـل، وخالد الغنامي، وسليمـان الهتلان، وعبدالله أبو السمـح، وعبـدالله بجـاد، وعبدالله بخيـت، وعبـدالله الفوزان، وعبـدالله اللاحـم، وعبدالعزيـز الخضر، وعبدالعزيـز القاسم، وعزيزة المانع، وعلي الخشيبان، وعلي الموسى، وقينان الغامدي، ولطيفة الشعـلان، ومحمد آل الشيخ، ومحمد علي المحمود، ومها الحجيلان، ومشاري الذايدي، ونادين البدير... وغيرهم.

أمـا ظهـور برنامـج «طاش ما طاش» الشهيـر الـذي أنتجه التلفزيـون السعـودي، بصيغتـه الضاحكـة الباكيـة، ومراميه النقدية التي تصل إلى درجـة حادة وساخنة، فدلالته تجاوزت اتسـاع هامـش الحرية إلـى التأشير على نوع مـن حس الذات الاجتماعيـة تجاه ذاتهـا بإحالتها إلى مـادة للتندر والضحك، وإحالـة وحدة تجانسها إلـى تنوع، ووهم وقارهـا وترفعها إلى «الكوميديا السوداء» وما يقارب «واقعية القاع» وقد وجد صدقية معناه ودلالته في جماهيريته المطبقة.

التاريخ والرواية والقيمة

وقـد ترافـق صعود الروايـة باحتضـان معرفـي واحتفالي من الجهـات الأكاديميـة والعامـة، ففي الوقـت الذي ظـل الشعر مهيمنـاً علـى الرسائـل والأطروحـات الجامعية فـي المملكة، وينـدر أن تجد أطروحة فـي الرواية، نجد اليـوم ما يزيد على 25 أطروحـة بعضهـا أنجز وأخرى في طـور الإنجاز، وهو رقم يتصاعـد بتصاعد أعـداد الطلاب المتخصصيـن في السرد والمتقدميـن بمشاريـع درجاتهـم العليا في الروايـة. أما على صعيـد النشاط المنبـري، فهناك محاضرات ونـدوات تتوالى بشـأن الرواية، وقد نظَّم نادي القصيم الأدبي ببريدة ندوة في مارسـ 2003م بعنوان «الرواية بوصفها الأكثر حضوراً» «شارك فيها نحو 16 ناقـداً وباحثاً، وصدرت أبحاثهم في كتاب بعنوان الندوة نفسهـا. كما اتخذت «جماعة حوار» بنادي جدة الأدبي، مـن «خطاب الرواية النسائية السعوديـة» محوراً لقراءاتها في موسـم 2003 — 2004م التي صدرت بعد ذلك في مجلد يضم 17 قـراءة، واتخذت من «المجتمع المحلي في الرواية العربية» محوراً في موسمها 2005 – 2006م، فضلاً عن اهتمامات أبرز النقـاد والأكاديمييـن السعودييـن والعرب بالروايـة السعودية المعاصرة التي تتمثل في كتب وأبحاث ومقالات عديدة.

قد نقول إن هنـاك تفاوتاً بيِّناً في مدى امتلاك الأعمال الروائية في موجة صعودها الأخيرة للتقنيات السـردية، وأن ملمح التشابه يطغـى على عدد منها، وذلك يعني أننـا أمام ظاهرة أقرب إلى الموضة سواء في جهة الاستسهال أو في جهة التجديد الشكلاني المنفصل عـن تجربة الحياة والوعي بالتاريـخ وما يهدد القيم الإنسانية. لكننا نعتقد أنها على أية حال، أصبحت خطاباً قادراً على ممارسة سلطة ما، بأهمية إيجاد مسافة تفصل عن الواقع المصنـوع إعلامياً والمغلق اجتماعياً، إنها شكل من الاحتجاج، أو هـي اكتشاف الحرية والتعبير عنها، ولا بد أن يقود تراكمها، خصوصاً والرواية شكل مرن وقادر على التجدد، إلى إثراء نوعي للثقافـة السعودية، وإلى تطوير كتابة تستوعب العصر وتميز ما ليس ممكن الوجود في أي عصر آخر خارج المدار المحلي.

إن بطولـة المرأة السعودية، سواء كانت كاتبة للرواية أو مكتوباً عنها فيها، هي -كما يبدو- مفتاح الرواية السعودية للبحث عن معنـى التاريـخ أو لا معنـاه، ولا يمكن أن نفهـم انفجار الرواية السعوديـة فـي الحقبة الأخيرة دون أن نأخـذ بعين الاعتبار ما تمثلـه الرواية للمرأة وبها. وبذلـك تصدق نبوءة الطيب صالح الـذي قـال ذات مرة: «إذا كان في الخليـج أدب حديث وأصيل فسيكون مكتوباً على يد امرأة» أو ما كتبه محيي الدين اللاذقاني في جريدة الشرق الأوسط، قائلاً: «إن الفن المرشح للازدهار في الخليـج العربي خلال السنوات القادمة هـو فن الرواية... ولكن الفصل الأكثر إثارة سيكون مكتوباً بالأقلام النسائية».

إن المشكلة التي تواجه، اليوم، كتَّاب الرواية السعوديين، لا سيما المـرأة الكاتبة، تكمن في النقد الصحافي وفي الرقابة؛ فنقَّاد الصحافة الذين يسبغون المديح لأسباب لا علاقة لها بالإبداع والفـن، ويصنعون بالمبالغـة والاستعجال نجومـاً لا قدرة لهم على الإضـاءة والتحليق والصمود، يفسدون المواهب وينزعون منهـا المكابدة والجهد وحوافـز الثقة. أما الرقابة فقد دفعت، من حيث لم تقصد، إلى مسلك للنجومية الرخيصة في الكتاب (الممنوع) الذي أصبح أكثر رواجاً وطلباً، وأدعى إلى الاشتهار والظهور على القنوات الفضائية، وهو في أحيان كثيرة بلا قيمة إنسانية وإبداعية!

2 مرحلة انتقالية فوضوية وخلاَّقة
حمى سردية ومزايدة على العناوين



خلافاً للتشبيه الشائع الذي يصف تساقط قطع «الدومينو».. تشكّل الحالة التي نحن بصدد عرضها ما يمكن ربطه بتصاعد تلك القطع عوضاً عن وقوع أحدها، والتي تجرُّ من بعدها تساقط ما تلاها، فلقد شهدت الساحة الأدبية الفترة الماضية طفرة روائية (نسائية خاصة) تَصَدَّى الإعلام للحديث عنها (وما زال) في حالة لم يسبق حضورها قبلاً، إلا أنَّ الشاهد الذي يتقاطع مع التشبيه السابق يتمثَّل في تجربة الشابَّة رجاء الصانع بروايتها «بنات الرياض» التي أسَّست قطعة «الدومينو» الأولى، والتي أخذت القطع الأخرى تتصعَّد من بعدها: «سارة العليوي/سعوديات»، «وردة عبدالملك/الأوبة»، «صبا الحرز/الآخرون» وغيرهن.

وبعيداً عن الحكم على الأساليب التي اتُبعت في هذه السلسلة من الأعمال، يمكن الاتفاق على كونها تجارب غضَّة ظهرت في الساحة على حين غرَّة بعملٍ أول انتقي له القالب الروائي، تلعب على وتر المحاذير الاجتماعية وما يعدُّه البعض خطوطاً حمراء! مما جعل ذلك العامل المسوِّق الأول لهذه الأعمال، والذي حمل هذه التجارب المغمورة إلى الضوء الإعلامي.



ومن ناحية أخرى نجد أنَّ هذه الموجة واكبها كذلك مدٌّ روائي رجالي، أفرز عدداً من التجارب الشابة التي لعبت في موضوعاتها على المحاذير والتصعيدات ذاتها، وإن اختلفت كمية التعاطي الإعلامي معها، ومثالها: «إبراهيم بادي/حبّ في السعودية»، و «طارق العتيبي/شباب الرياض»، واللتان نجدهما تجربتين إضافة لـ «بنات الرياض» و «سعوديات» تراهنان على العنوان المثير، والرهان بدأته رواية الصانع.

فما المغري بمدينة كالرياض، أو اسم البلاد ككل ليُقحم على غلاف رواية بما يجعلها تتصدَّر الروايات المبيعة على الصعيدين المحلي والعربي؟ مع التأكيد على أنَّ التساؤل لا يتدخَّل في الحرية الإبداعية للمؤلِّف، لكن حين يصبح الأمر مفتعل الحضور دون تقاطع يُثري الحبكات على اختلافها تبرز موضوعية الاستنكار.

ألوان من الجرأة الناضجة

وعلى صعيد آخر نجد أن تجارب يمكن عدُّها أكثرَ نُضُوجاً -وإن عدَّها البعض موجهةً للنخبة القارئة على عكس العرض أعلاه- ما زالت تجد في حضورها الاهتمام نفسه وإن تعرَّضت لخطوط «أكثر حُمرة» في الحساسية، وربما ذلك لعدم قصدها افتعال الضجة الإعلامية التي صارت موضة السرد اليوم. بل تترك لأعمالها الحديث عن نفسها، فمثلاً: عالجت الروائية رجاء عالم في روايتها «ستر» مفاصل مهمة في مجتمع عدد من النساء اللاتي ينتمين إلى الطبقة المترفة (وهي الطبقة التي تعرَّضت إليها الصانع في روايتها)، ويكاد القارئ أن يجزم بجرأة عالم، وحسّها السردي الأنضج، رغم عدم ملاقاة هذه الرواية الاهتمام نفسه، كذلك الأمر مع «ملامح» لزينب حفني والتي لاحظ القارئ جرأتها المفرطة، حتى ينتهي الأمر بـ «جاهلية» للروائية ليلى الجهني والتي نالت نصيباً كبيراً من الضجة قبل أعوام خلت، تزامنت مع إصدارها الأول «الفردوس اليباب» والذي صُنِّف الأجرأ نسائياً في تلك الفترة.

وترافق ذلك مع خط متصاعد من النضج السردي لأسماء أخرى مثل عبده خال الذي كانت آخر رواياته «فسوق»، ويوسف المحيميد بـ «نزهة الدلافين». وإنما تُعد الأسماء على سبيل التمثيل لنخبة الساحة حالياً دون النحو إلى الحصر.

ويمكننا في هذا المقام التأكيد على أنَّ حمى الرواية أخفتتْ حضور القصة القصيرة، التي كانت محل حظوة في السنوات الخمس الماضية تقريباً، مما جعل النقاد يراهنون على أنه عصرها الذهبي، إلا أن الأمر يبدو وكأن القصص القصيرة كبرت بما يكفي لتصبح روايات!.

تراجع الشعر وتقدُّم الشاعرية

على صعيد آخر يواجه ديوان العرب (الشعر) ما يكفي من



الإشكالات التي لم تعد تجعل المتلقي يجده في أفضل حالاته، ما عدا بعض الحالات التي يمكن وصفها بالبقاء على الحال ذاته، إذا أمكننا اعتبار ذلك أمراً جيداً!.

فقد قلَّت نسبة الإصدارات الشعرية مقارنة بالسرد. فمن الواضح لمتتبع المشهد الشعري الحالي أن انشغال الكتَّاب بنقل التفاصيل الحياتية لنصوصهم بصيغة بسيطة الطرح في الكثير من الإنتاجات، إلى جانب غياب القضايا الكبرى والهوية الخاصة، جعل النتاج متشابهاً في الغالب.

ومن ناحية أخرى يمكننا عدّ قصيدة النثر آخر الأساليب التي اعتنت بتطوير الشعر رغم كل الانتقادات التي تطالها، حيث يرى الكثير من النقاد بل وحتى المتلقين أنَّ عدداً كثيراً من الكتَّاب خلطوا في تعاطيهم بين فن النثر وقصيدة النثر، إلى جانب الرفض الذي ما يفتأ أن يخرج إلى السطح جاعلاً النص الخالي من الموسيقى التي تحدثها التقاسيم الموزونة، مغضوباً عليه.

ويرجِّح البعض بالتالي أن موجة استسهال الشعر (وهي ظاهرة على المستوى العربي ككل) كان من أهم أسبابها الاتجاه إلى الشعر المنثور، إلى جانب الإغداق في نصوص الحياة اليومية، بما يشبه صفصفةً من الكلمات التي تخلو من الحس الشعري الذي يخلقه الموضوع واللغة والابتكار بقدر إمكانات الشاعر ورؤاه.

وعلى صعيد الموضوعات، نجد عدداً من التجارب التي تحاول مناهضة الطرح السابق عبر النحو إلى الغموض في الطرح، وانتقاء التراكيب اللفظية الصعبة؛ لإضفاء حسٍّ نخبوي يبعدها عن دائرة المكرر في الأمثلة السابقة. وبالتالي، يختلف التعاطي معها كتجارب تقصد الشعر ذاته، أم تتأتى كرد فعل على حالات شعرية قائمة، بما يشبه الاحتجاج المعلن!

وفي ذات الوقت، نجد غياباً كبيراً للقوالب الكلاسيكية كالشعر العمودي في الفترة السابقة، وحضوراً أقلَّ لشعر التفعيلة، في ظل احتكار كبير لقصيدة النثر للإنتاجات الأخيرة.

من ناحية أخرى، نجد بعض التجارب الشعرية التي اتجهت إلى طرق باب السرد، وإن لم تمتهن المجال. كالتجربة التي خاضها الشاعر علي الدميني في روايته «الغيمة الرصاصية»، وتجربة الشاعر إبراهيم الوافي «ثلاثة رابعهم قلبهم»، إلى جانب التجارب الروائية المشحونة بالشعر كتجربة محمد حسن علوان.

وبقدر الجرأة التي اكتسحت التجارب السردية، نجد أنَّ التصعيد الشعري لم يتقاطع بوضوح مع هذا التوجه، فظلَّ رهين الجرأة التصويرية، متسماً بحضور أقل للصوت السياسي، وقضايا الساعة. أما على صعيد الحضور الشعري النسائي فإننا نجد عدداً من الأسماء التي حافظت على حضورها منذ سنوات عديدة بوتيرة مختلفة من أمثال فوزية أبو خالد، هيا العريني، هدى الدغفق، ثريا العريض... مع حضور أكثر شبابية ومغايرة للاتجاه نسبياً في جرأة حليمة مظفر، والاتجاه الذاتي في قصيدة هيلدا إسماعيل كمثالين أكثر حداثة.

أحداث أنعشت الساحة من ركودها

توالت العديد من الأحداث البارزة التي أسهمت في خلق وسط ثقافي تفاعل به المبدعون والجمهور المتلقي على حد سواء. تبدَّى أجلاه بمعرض الرياض الدولي للكتاب الذي شهد انفتاحاً كبيراً على النوع والكم والتنظيم، مما أوجد معياراً عالياً من الاحترافية والرضا المتبادل بين المنظمين والحاضرين.

فقد فُتح المجال لعدد كبير من دور النشر التي غاب الكثير من إصداراتها عن المكتبات السعودية في فترة سابقة، كالساقي والفارابي والدراسات العربية للنشر...، والمفارقة هنا، أن العديد من منشورات هذه الدور هي لكتَّاب سعوديين يدخلون الحدود للمرة الأولى، كعدد من إصدارات عبدالرحمن منيف، وعبده خال، ويوسف المحيميد، بل وحتى «بنات الرياض» لرجاء الصانع... وهذا ما عدَّه البعض فتحاً مهماً في العلاقة مع الرقابة التي بدت أنها رفعت سقف الحريات الممنوحة، الذي قد يقود إلى مرحلة تعيد الإنتاج السعودي للنشر المحلي عبر دور نشر وطنية كما يؤمل.

الأندية والمؤسسات الثقافية

من ناحية أخرى كان القرار الصادر عن وزارة الثقافة والإعلام لتجديد إدارات الأندية الأدبية في المملكة، خطوة محفِّزة على مرحلة انتقالية في العمل الثقافي. خاصة مع الاعتراف مؤخراً بضرورة مشاركة المرأة الفاعلة. وهذا ما أحيا حضور اللجان النسائية بصورة جادة أخرجتها من حالة الظل السابقة وإن ظلَّ بعضها متفاوت المستوى.

فعلى سبيل المثال، نجد نادي الشرقية يدشِّن آلية ديمقراطية في انتخاب اللجنة النسائية بالتصويت، ويشهد حراكاً فاعلاً

بالتعاون مع عدد من الملتقيات المحلية في المنطقة، ودعماً سبَّاقاً للتجارب السينمائية السعودية الجديدة على كافة المستويات. كذلك الأمر مع نادي الرياض الذي استحدث بيت الشعر كمرفق يدعم الحركة الشعرية بعدد من الفعاليات. إضافة إلى نوادٍ أخرى كجدة، وجازان، وأبها، وغيرها.

السينما والمسرح والفن التشكيلي

ومن ثمَّ جاء تحرّكٌ آخر تمثّل في تغييرات جذرية لجمعيات الثقافة والفنون الراعية للحركة التشكيلية والفنية والمسرحية، والتي يؤمل أن تحتضن مظلتها التجارب السينمائية التي استحدثتها جهود شابة، لتضاف إلى الإنجازات الفنية الوطنية. خاصة وأنها نالت نصيباً من الضوء والاهتمام عبر عدد من الوسائل الإعلامية والمهرجانات السينمائية العديدة، ولكونها تنطلق كحركة تأسيسية لا تستند إلى إرث متراكم من هذا الفن.

التفاتة القارئ مكسب لا يجب هدره، ومسؤولية الكتَّاب في هذا المجال كبيرة

ورغم النخبوية التي لازمت النظرة إلى الفن التشكيلي، والتي جعلته مقصوراً على فئات معينة من الجمهور، نجد أنه مرَّ بمرحلة انتعاش في عدد من الفعاليات بما يقرِّب حضوره إلى مختلف المتلقين، ويتيح الفرص أمام حضور مغاير يضع الجمهور في الصورة، ويوجد محكات مختلفة لرؤى الفنان عبر تواصل جديد مع المتلقين.

أما المسرح فيظل متذبذباً رغم حضوره المحدود في بعض المناسبات كالأعياد. إذ نجد أنَّ الطابع التجاري غلب عليه من حيث سطحية الموضوعات، والميل إلى التهريج باسم الكوميديا، إلى جانب ضعف مستوى مسرح الطفل، وما عُرض من تجارب نسائية تؤدى لأول مرة محلياً، في ظل عزلٍ للتجارب الجادة في عروض جمعيات الفنون، والمشاركة في المهرجانات فقط من دون توثيق تلفزيوني يسمح على الأقل بمتابعة الجمهور له.

وعلى صعيد آخر قامت وزارة الثقافة والإعلام بإحداث نقلة في التعاطي مع أوساط ثقافية أخرى، تمثَّلت، على سبيل المثال، في إقامة أيام ثقافية لبلدان كتونس، وسلطنة عمان، وقريباً أعلن عن فعاليات خاصة بدولة اليمن، إلى جانب ما أقيم في جمهورية مصر من فعاليات ثقافية سعودية مما يوسِّع آفاق المتلقين والمبدعين على السواء.

أنتَ البطل!

دأبت مجلة «التايمز» الأمريكية على انتقاء شخصية سنوية تُصنَّف على كونها «شخصية العام» إلا أنَّها قررت هذا السنة كسر هذه العادة بإرفاق مرآة عوضاً عن صورة الفائز لتجعل بطل هذا العام هو القارئ نفسه. وإنني لأستعير هنا تجربة «التايمز» بأن أرجِّح بأنَّ القارئ الذي وصل إلى هذه المرحلة من هذا الرصد للساحة الثقافية المتقلبة / المتجددة محلياً هو بطلٌ بحد ذاته. إذ إنَّ أصعب المراحل التي قد يعايشها الإنسان على مختلف الأصعدة اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً، هي المراحل الانتقالية بما تحدثه من زعزعة لما اعتاد عليه، فكيف بالصعيد الثقافي!

فعلى سبيل المثال نجد أن القارئ الذي كان متكلاً على صدى النقاد لما يقتنيه من إصدارات، قد يُفاجأ بتذبذب الآراء بين مؤيد للتجربة أو رافض للمجرِّب / الكاتب عبر تداخل الشخصانية واللاموضوعية في النقد. كما أنَّ الكثافة في الطرح لا تسمح بمتابعة موضوعية على المدى البعيد، إضافةً إلى تتبع الإنتاج الخارجي كي لا تنحصر الثقافة بالمحيط القريب فقط.

وفي تساؤل يطرح نفسه: هل وصلت الإصدارات المحلية إلى مرحلة تجعل هذه الإنتاجات محل إقبال الجمهور! نجد أن أوضح الأرقام مؤخراً يشير إلى أن السعودية تستهلك نسبة تصل إلى 50% من الإنتاج المطبوع على مستوى الوطن العربي. وهو رقم لا يُستغرب في ظل هذا التوسع الثقافي على كافة الأصعدة. وهذا ما يتجاوز النظرة التي قصرت الاهتمام على القارئ النخبوي، ليكترث الآخرون شيئاً فشيئاً بالأسباب المختلفة التي قد تدفع بعضهم إلى مجرد الاطلاع على تجارب جديدة، أو إلى الدخول في نقاش مع محيط مهتم. إنها أسباب تختلف في مآربها.



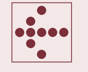
إلا أن المسؤولية المنوطة بالكتَّاب أكبر مما سبقها، فالتفاتة القارئ العادي مكسب يجب عدم تكرار خسارته، من خلال الإسراف في النخبوية، أو في التسطيح الساذج. والوصول إلى هذا المبتغى لم يعد بالهدف البعيد في ظل هذا الانفتاح الإعلامي إذا ما أُحسن استغلاله.

ختاماً، يمكن القول إنَّ الحالة الراهنة حَرِيَّة بوصفها بالفوضى الخلاقة، إلا أن المأمول في هذا المقام هو أن تتحقق مرحلة خلاقة للساحة الثقافية تتعدى الفوضى الحالية.



لا نجد في ديوان الشعر العربي طيراً حظي بالمكانة الخاصة التي حظي بها الحمام. فهو بريد العشّاق وأنيس المحزونين وسمير المغتربين. سهير أبو بكر الشاذلي* تختار لنا عينات من الصور التي ظهر فيها الحمام في ديوان العرب.

بكاء الحمام في ديوان العرب



حظي الحمام بمكانة خاصة في الشعر العربي، وتناوله الشعراء في قصائدهم على مرِّ العصور، لذلك لم نجد طائراً من الطيور كالحمام له كل هذا الرصيد الضخم من الشعر العربي، فهو بريد العشاق وأنيس المحزونين وسمير المغتربين.

وجد العربي في هديل الحمام بكاءً حزيناً يلقى صدى في نفسه الملتاعة، وكثيراً ما سمعنا الشعراء يعاتبون الحمامة لأنها تنوح نواحاً كاذباً، فهي لا تذرف الدموع في حين أن نواح الشاعر يكون مصحوباً بالدمع الهتون، كما هو حال الشاعر عوف بن مُحلم بعد أن سمع نوح حمامة:

وأرقني بالري نوح حمامة
فنُحتُ وذو الشجو الحزين ينوح
على أنها ناحت ولم تذْرِ دمعة
ونُحت وأَسراب الدموع سفوح
ألا يا حمام الأيك إلفُك حاضرٌ
وغصنك ميادٌ ففيم تنوح
أَفِق لا تنح من غير شيء فإنني
بكيت زماناً والفؤاد صحيح

أما الشاعر الوقافُ ورد بن الجعد فيجد نفسه أصدق في بكاء المحبوبة من الحمامة، إنه يواصل الليل بالنهار في البكاء.. أما هي فتهجع!! وهو يبكي حقاً وصدقاً أما هي

* أديبة وشاعرة من مصر

فإنها كاذبة، فيقول:

أحقاً يا حمامة بطن وادٍ
بأنك في بكائك تصْدُقينا
غلبْتكِ في البكاء بأن لَيْلي
أواصله وأنك تهجعينا
وأني إن بكيت بكيت حقاً
وأنك في بكائك تكذبينا

ولأن البعض يعتقد أن الحمامة تدعو في هديلها (بكائها) -ساق حر- وهو ذَكَرُ الحمام الذي تحن إليه باستمرار، وجدنا الشاعر جهم بن خلف المازني يتمثل ذلك شعراً عندما قال في حمام منطقة تبالة في اليمن:

وقد هاج شوقي أن تغنت حمامة
مطوقة ورقاء تصدح في الفجر
هتوفُ تُبَكّي ساق حر ولن ترى
لها دمعة يوماً على خدها تجري
تغنت بلحن فاستجابت لصوتها
نوائح بالأصياف في فنن السّدْرِ
بسرة واد من -تبالة- مونقٍ
كسا جانبيه الطّلح واعتمّ بالزهر

وفي أبيات أخرى لجهم بن خلف المازني:

مطوقة كساها اللـ
ـه طوقاً لم يكن ذهبا
جمود العين مبكاها
يزيد أخا الهوى نصبا
مفجّعة بكت شجواً
فبت بشجوها وَصِبا
على غصن تميل به
جنوب مرة وصَبَا
ترن عليه إمّا مَا
لَ من شوقٍ أو انتصبا
وما فغرت فماً وبكت
بلا دمع لها انسكبا

وأما الشاعر شفيق بن بعلبك الأسدي فقد هيجت حمامة ما حاول كتمانه من الوجد، فدعاها ليتباكيا معاً على ذكريات سلفت وليتبادلا أحاديث الحب والهيام ما خفي منها وما بدا، ثم يطلب منها أن تساعده على البكاء فيبكيا معاً، وإلا فإنه سيبكي وحيداً. فيقول:

لقد هَيجت مني حمامة أيكة
من الوجد وجداً كنت أكتمه جهدي
فقلت تعالي نبْكِ من ذكر ما خلا
ونذكر منه ما نُسرُ وما نُبدي

أما أبو فراس الحمداني وحمامته فهما أشهر من أن يذكرا. فقد استمع إلى هديل الحمامة وهو في الأسر فعاتبها، لأنها تنوح وهي متمتعة بالحرية. ويعجب من حالته التي جعلته يضحك وهو الأسير المكبل بالأغلال، وتبكي الحمامة وهي تنعم بنعمة الحرية التي يفتقدها الشاعر. فهو أجدر منها بالبكاء، ولذا نسمعه يقول:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة
أيا جارتا هل تشعرين بحالي
معاذ الهوى ما ذقتِ طارقة النوى
ولا خطرت منكِ الهمومُ ببالِ
أيا جارتا ما أنصف الدهرُ بيننا!
تعالي أقاسمك الهموم، تعالي!
تعالي تري روحاً لديَّ ضعيفة
تَرَدَّدُ في جسم يُعذّب بالِ
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة
ولكن دمعي في الحوادث غالِ

ويهيج نوح القمري أشجان الشاعر تميم بن المعز وتحرك أشواقه لفراق أحبته. فيقول:

أإن ناح قُمري بغصنٍ بشامةٍ
وغرّد في أعلى الأراك حمامُ؟
أهاج لك التذكار شوقا كأنما
له بين أحناء الضلوع ضرامُ
مطوقة ورقاء تندُبُ شَجْوهَا
وتسهرُ فيه الليلَ وهو تمام
تنوح بلا دمع وللحزن آية
على نوحها مشهورة وغرامُ
ألا يا حمام الأيك مالك والهاً
كأنّك ممن أسكرته مُدامُ
كلانا محب صدّع البين شمله
وكل محب بالفراق يضامُ
سلام على من حجَّبَتْ شخصه النوى
وإن كان لا يغني المحبَّ سلامُ

وفي الختام نورد أبيات الشاعر عبدالله بن الدمينة الشهيرة التي يقول فيها:

ألا يا صبا نجد متى هِجْتَ من نجدِ
فقد زادني مسراكَ وجْداً على وَجْدِ
أإن هتفت ورقاءُ في رونق الضحى
على فنن غض النبات من الرندِ
بكيت كما يبكي الوليد ولم أكن
جليداً، وأبديتُ الذي لم أكن أبدي

المحارب القديم

أحمد إبراهيم البوق*

في الجولة الأولى
فقد ترسه
استعاض بخوذته التي من جلدِ غزال
وواصل القتال..

في الجولة الثانية
تكسرت النصال على النصال
سقط درعه
فشقّ قميصه
كي يواجههم عاري الصدر
حين أبصروا رغبة الموت فيه
أجفلوا برغبتهم في الحياة

* شاعر سعودي



في الجولة الثالثة

هبت الريح عاتية

انحنى كي لا يطال

في الجولة الرابعة

والخامسة

والسادسة

والسابعة

والثامنة

والتاسعة

لم يكن سراً

كرّت الخيل

ثمّ فرّت

ثمّ كرّت

ثم كانت الحربُ سِجال

في الجولة العاشرة

فقد سيفه

فكانت جبهة الخيلِ حسامه

في الجولة ما قبل الأخيرة

نحر خيله

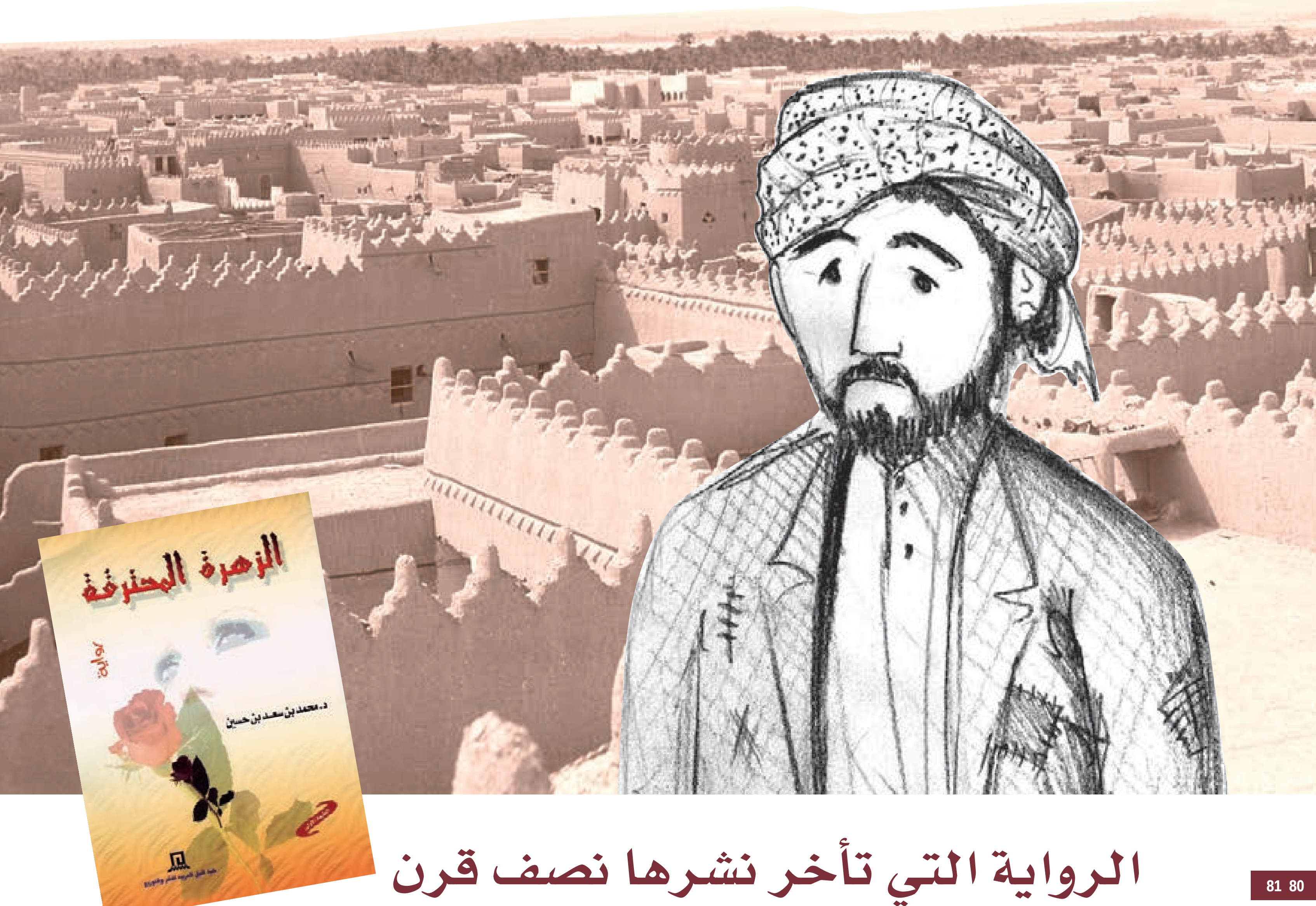
فترجل

وحين طوّقه الدرك

انشقّ ظهر قميصه عن خافقين

وقبلَ أن تدقّها المطارق

خفقت على نقع المعارِك

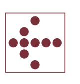


الرواية التي تأخر نشرها نصف قرن

«الزهرة المحترقة»

إنها الرواية الوحيدة للدكتور محمد بن سعد بن حسين. كتبها في العام 1958م، ونشرها في مطلع العام الجاري. الدكتور حسين علي محمد* يقدِّم قراءته لهذه الرواية التي تأخر نشرها نصف قرن، مضمِّناً النص الذي كتبه حولها بعض المقاطع المطولة نسبياً منها، مما يغني عن نشر مقتطفات مختارة بشكل مستقل كما درجت عليه العادة.

* أستاذ الأدب الحديث في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



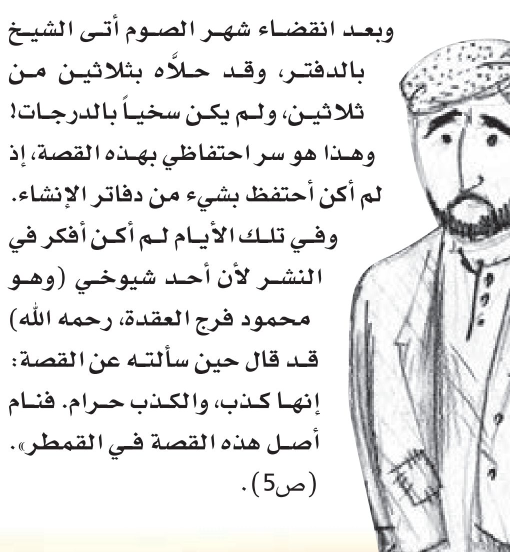
كتب الدكتور محمد بن سعد بن حسين هذه الرواية وهو طالب عام 1958م، ويشير هذا التاريخ إلى أسبقية كتابتها على رواية حامد دمنهوري «ثمن التضحية» (1959م) بعام، وبينها وبين ما اتفق على أنها أول رواية سعودية «التوأمان» (1930م) للكاتب عبدالقدُّوس الأنصاري ثمانية وعشرون عاماً. وهو يعد بذلك أحد كتَّاب الجيل الثاني من كتَّاب الرواية السعودية.

لماذا هذا التأخير؟

وسبب كتابتها، ثم سبب عدم نشرها حتى الآن (أي بعد تسعة وأربعين عاماً من كتابتها) يوضحه المؤلف في المقدمة:

«كان الإنشاء مادة مقررة علينا في كلية اللغة العربية، إحدى كليات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وكان الشيخ عبدالرؤوف اللبدي -متَّعه الله بالصحة- هو أستاذنا في هذه المادة، وقد كلفنا في أحد الأيام من عام 1378هـ (1958م) بأن يكتب كل واحد منَّا قصة لم يحدد موضوعها، فكان. وفي الموعد المقرر جمعنا الدفاتر فأخذها الشيخ، وبعد أسبوع أتى بها إلا واحداً هو دفتري. فلما سألته قال: سوف أقرؤه في رمضان، وكنا في آخر شعبان.

وبعد انقضاء شهر الصوم أتى الشيخ بالدفتر، وقد حلاَّه بثلاثين من ثلاثين، ولم يكن سخياً بالدرجات! وهذا هو سر احتفاظي بهذه القصة، إذ لم أكن أحتفظ بشيء من دفاتر الإنشاء. وفي تلك الأيام لم أكن أفكر في النشر لأن أحد شيوخي (وهو محمود فرج العقدة، رحمه الله) قد قال حين سألته عن القصة: إنها كذب، والكذب حرام. فنام أصل هذه القصة في القمطر». (ص5).



قصة صعود اجتماعي

وتتحدث هذه الرواية عن طارق الذي جاء من إحدى القرى إلى الرياض، وهو لا يعلم فيها أحداً، ولا يعرفه فيها أحد. جاء إلى مدينة يتلفت فيها وهو سائر يميناً وشمالاً فلا يرى إلا وجوهاً يُنكرها، ويأخذ منه التعب كل مأخذ فلا يجد يداً تمتد لمساعدته.

ولكن طارقاً في هذه الرواية يرينا صعود السلم الاجتماعي -من الفقر إلى الثراء- بمساعدة أهل الخير؛ فقد بدأت الرواية ونحن نرى طارقاً لا يمتلك شيئاً يعينه على الحياة:

«مضت أيام وأيام باع فيها طارق زوادته وأكل ثمنها، وعاد بعد ذلك خالي الوفاض من كل شيء إلا من تلك الآنية التي أعاره إياها المؤذن. مرت أيام عجاف وطارق فيها لا يقتات إلا من تلك التمرات التي زودته بها أمه يوم سفره، ليتها كانت كثيرة، إذن لخففت على المسكين آلام الجوع، ولكن المسكين فجع بانتهائها بعد أن كان يأكل منها كل يوم ثلاث وجبات، كل وجبة ثلاث تمرات» (ص21).

وكان في تلك الفترة لا يجد ما يرميه في فمه سوى الماء **«وكان في إمكانه أن يطرق باباً من تلك الأبواب الكبيرة حيث يتيسر فضل الطعام، وما أكثر تلك الأبواب لو أراد، ولكنه كان يرى أن في ذلك جرحاً لكرامته وإهانة لشرفه. ولكم نازعته نفسه وإرادته أن يضع حداً لألم الجوع عن طريق التسول، ولكنه كان يغلبها»** (ص21).

وبعد ثلاث ليال يختبره شيخ في الخامسة والسبعين عدة اختبارات، وبعد أن يطمئن إليه، يُخبره أن لديه خمس بنات، ويريد منه أن يقوم على تعليمهن، وسيعطيه على ذلك أجراً لا بأس به: **«عشرون ريالاً كل شهر، أي أربعون ومئتا ريال في السنة. وستأكل وتشرب هنا، وتنام إن شئت، ولك مني كسوتان في السنة»** (ص29). ولا تنتهي الرواية إلا بعد نجاحات حققها، فنرى أنه يمتلك **«معرضاً كبيراً لا تقل معروضاته عن ستمائة ألف ريال»** (ص96).

وما كان يتم له ذلك لولا وقوف أسرة إبراهيم معه، وقد تزوج -فيما بعد- ابنته فاطمة، التي احترقت في نهاية الرواية.

دور الوصف

يقوم الوصف بدور لافت، منذ الفقرة الأولى في الرواية، حيث يستحضر لنا الروائي مدينة الرياض قبل ستين عاماً على افتراض أن أحداث القصة أخذت خمس عشرة سنة منذ مجيء طارق إلى الرياض حتى احتراق زوجته - أو زهرته كما يطلق عليها المؤلف.

حجرة متواضعة ليس بها من فرش سوى حصيرين صُنعا من خوص النخيل يبدو عليهما أثر القدَم وطول المكث

يصف الروائي مدينة الرياض حينما قدم البطل (طارق) إليها: «**كان الليل قد مدّ أجنحته الحالكة السواد، وطوى تحتها تلك المدينة التي كانت في ذلك الوقت لا تبعد كثيراً عن حياة القرية إلا ببعض المظاهر اليسيرة، كالحركة العمرانية المفاجئة التي تجتاحها على غير نظام. الهدوء يسود جو المدينة، فلا ضوء سوى بصيص نور المصابيح المعلقة في الشوارع والميادين المهمة، أو مصابيح الكهرباء الصادرة عن بعض القصور الملكية**» (ص9).

فالذاكرة تستدعي هنا صورة الرياض منذ أكثر من ستين عاماً، كما تستدعيها في أماكن أخرى لتكون فضاءً لأحداث هذه الرواية. ويصف الروائي الشيخ الأعمى الذي صحب طارقاً إلى بيته، ووجد فيه صورة لابنه الذي غرق في البئر: «**وفي زقاق ضيق، وأمام باب قديم صُنع من جذوع النخل توقف الشيخ، ثم طرق ذلك الباب طرقةً واحدة، فتح إثرها، فدخل وأمر طارقاً بالدخول، وأومأ له إلى حجرة عن يمين الداخل، وهي مكان جلوس الضيوف. وكانت حجرة متواضعة، ليس بها من فرش سوى حصيرين صنعا من خوص النخل يبدو عليهما أثر القدم وطول المكث، وبها وجار فيه نار وضع بالقرب منه أبريق الشاي ودلة القهوة، وعلى حافته وضع وعاء كبير مملوء بالتمر ووعاء آخر بجانبه فيه أكواب الشاي والقهوة**». (ص19).

ويقوم الوصف بدوره في رسم الشخصيات والتعبير عنها، ومنه هذه الفقرة التي تتحدث عن فاطمة التي أحبت طارقاً، ومرضت في بعده عنها بالطائف:

«**وبعد ساعة قضتها الأم على أحر من الجمر جاء الطبيب فأخذ في فحصها. وبعدما انتهى من ذلك أعطى الأم ورقة فيها دواء وقال:**

- إنها مضطربة الأعصاب، وهي في حاجة إلى هدوء تام ومواظبة على العلاج، وسأفحصها كل يوم فلا تضايقوها.

مضت الأيام، وقامت فاطمة من فراشها ولكنها لم تعد إلى ما كانت عليه من مرح ولم تعد تملأ البيت بحيويتها ونشاطها.. إنها شاردة الذهن، مشغولة البال دائماً، مما جعل أمها وأباها في حيرة من أمرها. لقد فقدوا السعادة التي كانت تملأ بها البيت بين الابتسامة الحلوة، والضحكة العذبة، والروح المرحة المتفائلة وحل بدلاً من ذلك ذهول وشرود ذهن، ومسحة من الكآبة يطفح بها وجهها الغض الذي استحال إلى لون الوردة التي صهرتها الشمس فأحالتها إلى ما بعد الذبول من شحوب وجفاف. ولم تترك الأم سبيلاً في الاحتيال على فاطمة لفهم السبب في هذا الشرود الذهني والانحراف النفسي الطارئ» (ص58).

ويصف الروائي بعض الأماكن مثل الشوارع والمساجد، وصفاً يمتلئ بالحيوية والدقة ويضيء الأحداث. يقول في وصف المسجد الذي لجأ إليه طارق في اليوم الثاني لوصوله إلى مدينة الرياض: «**وأذّن الظهر فلم يكن له بد من دخول المسجد للصلاة، فلجأ إلى أول مسجد؛ كانت فيه حجرتان: إحداهما تحت الدرج الجنوبي للمسجد، والأخرى تحت الدرج الشمالي، وأمام كل واحدة منهما حوض مصهرج علقت فيه بعض القرب**» (ص12).

الصورة الفنية والحالة النفسية

ويرتبط فضاء المكان بالتعبير عن الحالة النفسية للبطل؛ فهو ليس مكاناً مجرداً؛ إنه يتصل بالزمن، ويتقاطع مع



الشخصية التي يُعبر عنها. يقول عن طارق عندما قدم إلى الرياض لا يعرف أحداً:

«طارق يسير مطرق الرأس، وكأن سحابة من الشقاء المُظلم قد وُكِّلت به؛ تسير معه حيثما سار! إلى أين يذهب هذا الشاب البائس؟ وإلى متى سيبقى سائراً؟ الدنيا صيف، وها هي الشمس قد ألهبت بسياطها الكاوية وجه الأرض فأحالته إلى جحيم يهري الأقدام الحافية. الناس يفرون منها إلى بيوتهم، أو يتفيؤون السقوف التي تظلل بعض الأزقة، وبعضهم يلجأ إلى المساجد ليقضي بها ساعات الهجير. ومع ذلك فمازال طارق يسير من حارة إلى أخرى، ومن شارع إلى شارع والعرق يسيل من جسمه غزيراً، كأنما على رأسه فم قربة لا ينتهي ماؤها» (ص11).

المكان ليس مكاناً مجرداً؛ إنه يتصل بالزمن ويتقاطع مع الشخصية التي يعبِّر عنها

كما يفيد الروائي من الشعر، حيثُ تغص الرواية بالأساليب الجميلة، التي تُثري بناء القصة، وتُضيف لمسة جمالية على الوصف فيها، ومنها: **«بدأ الليل يطوي ستائره مؤذناً بالرحيل، وتبعته الشمس تقذف بشباكها في كل مكان لتصطاد بها أفواج الظلام، ثم تقذف بها بعيداً»** (ص11).

إن الصورة الفنية هنا لها وظيفتها، فهي صورة مناسبة للجو النفسي للبطل طارق الذي ترك قريته التي كان يعيش فيها هانئاً بين أبويه وأسرته ويعرف كل فرد فيها، وقد قدم إلى الرياض التي لا يعرفها ولا يعرفُ فيها أحداً، ولا يعرفه فيها أحد.

لقد جاء البطل إلى مدينة كبيرة يتلفت فيها وهو سائر يميناً وشمالاً فلا يرى إلا وجوهاً يُنكرها، ويأخذ منه التعب كل مأخذ فلا يجد يداً تمتد لمساعدته.

كما يميل الروائي إلى استخدام أسلوب الاستبطان الداخلي، ليُطلعنا على خبيئة الشخصية، ومنها هذا الجزء من الفصل الثاني الذي يدور في نفس الأم خوفاً على الابن من غضب أبيه:

«أما عائشة فقامت متثاقلة من فراش زوجها الذي كانت جالسة على حافته حينما ناداها واتجهت إلى غرفة فاطمة فوجدتها مازالت نائمة. فجلست على حافة فراشها تفكر في ابنها الذي هرب من البيت. ما الذي جعل حامد يتضايق من وجود طارق بهذا الشكل؟ هل نخسر ابننا من أجل ولد ناس آخرين لا لشيء؟ غير أنه أنقذ فاطمة من النار، وهل هذا قليل؟ ولكن هل يبرر تضييعنا ابننا؟ الله يهديك يا حامد، ما كان الأمر يحتاج إلى هذا كله؟

وانفجرت تبكي وخرجت من غرفة فاطمة التي مازالت تغط في نومها ولاذت بفراشها لتسقيه بكل ما في عينيها من دموع الأمومة، وكان وقت صلاة العصر قد حان فقامت وهي تستعيذ من الشيطان وتمسح ما سرب على خدها من دموع، فذهبت إلى الحمام فتوضأت ثم رجعت إلى فاطمة فأيقظتها للصلاة، ثم تناولت السجادة من على الدولاب ففرشتها وصلت.

قعدت تفكر في حل يعيد إليها ابنها. لماذا لا أحتال في إبعاد طارق؟ ولكن كيف؟ نعم سآخذ له بعض النقود وأغريه بالسفر إلى أهله ولن يعود إلينا بعد ذلك.. ثم افرضي أنه عاد لا نستقبله إلا باستقبال لا يطمعه في البقاء عندنا. واتجهت إلى خزانتها ففتحتها وتناولت منها بعض النقود ثلاثمائة ريال من الفضة ثم أغلقتها». (ص42، 43).

لكن الروائي -في بعض أجزاء الرواية- يختزل بعض الأحداث والوقائع في جمل محدودة، ومنه هذا الوصف السريع لبعض الأحداث التي تلت عودة طارق من الطائف



إلـى الرياض: «وتمـر الأيـام سريعـة، ويستأجـر إبراهيم الـدكان، ويصـل طـارق مـن الطائـف بأقمشتـه وملابسه النفيسـة، ويفتـح الـدكان، ويشتـغل فيـه بـكل نشـاط، ويساعـده الحظ بفضـل صدقه وأمانتـه وحسن معاملته وتوفيقـه فـي اختيـار نـوع البضاعـة؛ فيقبل عليـه الناس ويحـوز شهـرة عظيمـة، فيضطر إلـى نقل دكانـه الصغير إلى معرض كبير بشارع الوزير» (ص75).

تقاطع مع الفن المسرحي

علـى الرغم مـن أن هـذا النص مـن النصوص الروائية المبكـرة، إلا أن فيـه بعض جماليات القص، ومنها إفادته من أجناس الإبداع الأدبي الأخرى، وهذا ما يُشار إليه بـ «تعدي النص»، حيثُ يتعدى هذا النص الروائي «الزهرة المحترقة» ويتقاطع مع فن المسرحية، فيصبح في بعض أجزائه أقـرب إلـى النـص المسرحي؛ حيـن يلجأ الروائـي إلى استعمال الحـوار الذي يضيء الحـدث، أو ينميـه، أو يدفـع بـه إلـى إنارة أجـزاء معتمة من الشخصية التي يتحاورها الحدث، ومنه هذا الجزء من الفصل الثاني:

«تتوقـف السيـارة فينزل حامد فيراه أبـوه متجهمَ الوجه فيظن أنه قلق على طارق فيبادره بقوله:

- إنه في ...

ولكـن الكلمـات تمـوت علـى شفتيـه وتحتبس فـي صدره. فقـد فوجئ بمنظر الدم الطافح في ثيـاب ابنته وزوجته. فصرخ بحامد:

- ما هذا يا حامد؟

فيجيبه في سخرية وتهكم:

- بركاتك أنت وهو.

يغلـي مرجل غضـب الأب، فيصفع حامـداً صفعة شديدة ترمـي به على الأشجار المجـاورة للرصيف فينهض وهو يقول: أظن خسارة -الله يحييك- أن أسقط على الأشجار التي أمام غرفة طارق فأكسرها.

فيركلـه الأب برجله ركلة أفظع من الأولـى فيتدحـرج بعيداً فيلحق به ليضربـه فتحول دونه أمـه وأختـه، وتأخـذ الأم بيد زوجهـا مهدئة لـه إلى داخل البيـت لتقص عليه كل ما جرى فـي الطريق. لكن منظر الـدم الـذي يكسوهـا يربـك إبراهيم فينزع يـده من يدها ليسـرع إلى الهاتف طالبـاً الدكتور ثم يعـود إليها ليسمع الخبـر، ومـا هـي إلا لحظـات أطلعته فيها علـى كل شيء» (ص38، 39).

> **أجاد الروائي استعمال الحوار في أجزاء كثيرة من الرواية لينمِّي الحدث ويكشف عن دخيلة الشخصيات ويعبِّر عنها**

الحوار لتنمية الحدث

وقـد أجـاد الروائي استعمـال الحوار في أجـزاء كثيرة من الروايـة، لينمِّي الحـدث، ويكشف عن دخيلـة الشخصيات ويعبِّـر عنها، ومنه هذا الحوار الذي أجراه بين زوجة الشيخ إبراهيـم وطـارق، وهـي تُريـد أن تساعـده بثلاثمائة ريال فضيـة ليذهب إلى أسرته ويستقر معها شهرين، حتى تخف حدة التوتر بينه وبين ابنها (حامد).

«لـم تكـد تدنو مـن الغرفة حتـى سمعت بكاء يخـرج منها فارتجـف قلبهـا، وخافت أن يكون المسكيـن قد علم شيئاً، ودخلت وهي تقول:

- طارق ماذا بك؟

رفـع رأسـه مـن الوسـادة مذعـوراً. واعتـدل علـى فراشه وقد أضفى غترته على وجهه ليخفي الدمع المتناثر على خديه:

- أم حامد؟! .. لاشيء يا أمي.

عصفت تلك الكلمة بقلبها عصفاً عنيفاً (أمي):

- لا يـا طـارق .. لمـاذا تبكـي؟ هـل ضايقك أحـد؟ والله لا يرضينا شيء من هذا فأنت ابننا وهذا بيتك مادمت راغباً فينا.



- أبداً والله ما حصل شيء.
- إذن لماذا تبكي ولم أرك قبل اليوم باكياً؟
- إني أحس بكابوس ثقيل جداً يضغط على قلبي وأخاف أن يكون مكروهاً قد أصاب أهلي.
- استعذ بالله من الشيطان أهلك بخير وأنت هنا لست بغريب.

ونظرت إلى النقود المربوط عليها في ذلك المنديل الأحمر المزركش وقالت لنفسها:

- ابن يفكر في أهله وأهل يفكرون في ابنهم إن خطتي هذه خطة ناجحة مائة في المائة فلأنفذها إذن.
- طارق..
- نعم.
- رأيي أن تذهب إلى أهلك وتقيم عندهم شهرين أو ثلاثة ثم تعود. ونحن أهلك هنا وهذه ثلاثمائة ريال اشتر بها بعض الحاجات لهم. أما كسوتك فسأعد لك من ثياب حامد ما يكفيك في مدة غيابك عنا.
- لقد قبلت ببقائي عندكم وتكرمكم بمعالجتي وخدمتي، لأني فقير وغريب ففعلتم معي أكثر مما قد يفعله أهلي لو كنت عندهم. وتريدين مني الآن أن آخذ مالكم أيضاً، لا يا أم حامد.
- ألم تقل لي منذ قليل يا أمي؟
- بلى. وإني لأحس بمحبتك في قلبي وكأنما تريد أن ترجح بمحبة أمي التي ولدتني، ولكن هذا لا يعني أن أطمع في أكثر مما فعلتموه.
- إن ما تجده في قلبك من محبة لي أجده أنا في قلبي بالنسبة لك. ولهذا فإني لمحبتك لي أرجو أن تأخذ هذه النقود. والله لن أعود بها وسأضعها في حقيبتك.

ثم سحبتها وفتحتها ثم ألقت بالنقود وأغلقتها وطارق صامت، وقد غرق في بحر من الخجل لا يدري بماذا يقابل هذا الكرم الذي عاش فيه منذ الحادث حتى هذه اللحظة» (ص 44، 45).

ترتبط الرواية بالاتجاه الواقعي في الرواية السعودية أكثر من أي اتجاه آخر، رغم إفساحها مكاناً لوصف العواطف المشبوبة

يختلط الحوار بين الشخصيات أحياناً بالحوار النفسي الداخلي، ومنه ذلك الحوار الذي دار في نفس طارق حينما ذهب إلى بيت الشيخ إبراهيم ليطلب منه يد ابنته فاطمة:

«في الصباح الباكر ذهب طارق إلى بيت إبراهيم فوجده مع زوجته يشربان الشاي، فقدما له فنجاناً فرفض شربه إلا إذا لبيا طلبه فوعداه بذلك فتناوله وهو يقول:

- يا عم، إني أطلب يد فاطمة.. إني ابنكم وتعرفون عني كل شيء، وهي أختي.. ما أظن أحداً سيسهر على راحتها أكثر مني.

رفع إبراهيم رأسه وكان مطرقاً أثناء حديث طارق ونظر إلى زوجته التي سرت في جسدها رعشة، وهي تشد على أصابع يدها بالأخرى.. لا تدري ما الذي سيقوله إبراهيم. وتبودلت نظرات تساؤلية بينهما.. أما طارق فصار يلوم نفسه على هذا التسرع ويحدث نفسه بتكهنات وتوهمات.. هل تسرعت حقيقة؟ إنهما قد تشاجرا مع ابنهما البارحة، ومازال أثر هذا الشجار في نفسيهما. لو تأخرت يوماً أو يومين ألم يكن أنسب؟ إن صمتهما يخيفني.. إن طلبي لم يوافق هوى في نفسيهما وإلا لماذا هذا الصمت؟.. ولماذا هذه الحيرة التي تظهر على وجهيهما؟!! رباه أكاد أفقد أعصابي. لماذا لا يتكلمان؟ على أي حال انتهى الأمر ولابد من جواب» (ص87، 88).

ابنة الاتجاه الواقعي

ترتبط هذه الرواية المبكرة بالاتجاه الواقعي في الرواية السعودية أكثر من أي اتجاه آخر، رغم إفساحها مكاناً لوصف العواطف المشبوبة، والأحداث المأساوية التي يُواجهها البطل.. يقترب بها اقتراباً حميماً من تخوم الرومانسية.

ونحن لا نعني بالواقعية هنا «الواقعية التي يشهد بصدقها المؤرخون، وتقوم الوثائق دليلاً على صحتها، ولكنها الواقعية التي تلقي في روع القارئ أنها صحيحة»، ويمكن أن يقع مثلها في واقعنا المعاش.



قول آخر

أنا البحر في أحشائه الدر كامن.. فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

ياسر اليحيى

أثار فيلم وثائقي أردني بعنوان «العربيزي» الجدل في الأوساط المثقفة. السخرية الفائحة من عنوان الفيلم (العربي + الإنجليزي = العربيزي) تخبرنا عن تعرُّض الفيلم لمسألة شيوع التحدث باللغة الإنجليزية بين الشباب في الأردن، وكيف طغت مفردات «لغة» العولمة على أحاديث الأسر. يحاول الفلم تسليط الضوء على هذه الظاهرة بكونها انعكاساً وليس سبباً لثقافة ونمط تفكير وأسلوب حياة.

ولا بد من الكتابة عن هذه الظاهرة المتوقعة، ظاهرة انبعاث لغة جديدة لا شيء يجمع بين شتاتها، لغة لها حروفها وأبجديتها، ولها أساليبها وتراكيبها. لكنها هجينة. وقاعدتها الأولى في تركيب أية جملة من مفرداتها هي أنه «لا قاعدة»، كل ما عليك أن توصل المعنى للمقابل بالطريقة التي تحسنها ويستطيع هو فهمها!

ربما يكون هذا واضحاً أكثر ما يكون في رسائل الجوال وبرامج المحادثة الكتابية على الإنترنت، التي أسهمت بدورها بشكل كبير في تقليص الأبجدية العربية والأجنبية على حد سواء: فبدلاً من الابتسامة يكفيك أن ترسم وجهاً ضاحكاً، وبدلاً من أن تكتب الكلمة بحروفها كاملة، يكفيك من حروفها تلك التي تعبِّر عن المعنى. غيضٌ من فيض: هذا ما يؤكده شبان المملكة الذين استحدثوا هم وشبان العالم العربي لغة خاصة بهم يتحدثون بها ويتجادلون عبرها، ويخوضون بها نقاشاتهم التي تبدو -بسببها- غير جادة للآخرين، بينما يبدو مجرد استهجانها سلوكاً عقيماً في نظر الشباب العربي الذين يمثلون الشريحة الأكبر من بين الـ 75 مليون حامل للهاتف الخلوي في الشرق الأوسط. بل أكثر من ذلك، يبدو باعثاً للسخرية، فالشباب العربي يتساءل عن جدوى مقاومة هذه اللغة الهجينة، ويتساءل أكثر عن سر اليقظة المتأخرة.

يحكى أن معلماً شاباً للغة العربية كان يحاول جاهداً لفت نظر طلابه المنشغلين بأي شيءٍ آخر عدا ما سماه «إبداعاً» من قبل «امرؤ القيس» في معلقته الشهيرة، حين سأله أحد الطلاب: هل تظن أن امرَءَ القيس سيفوز بلقب شاعر المليون لو أنه شارك بهذه القصيدة؟ المعلم قبل الطالب كان يعلم أن ثلاثة أرباع الجمهور المتابع لبرنامج شاعر المليون لن يفقه مفردةً من مفردات قصيدة امرئ القيس التي علقتها العرب على أستار الكعبة كجائزة مجازية تفوق قيمة المليون التي فاز بها الشاعر الشعبي (ابن فطيس) في البرنامج الجماهيري.

يعلم المعلم والطالب أن آخر عهد اللغة العربية بذائقتها الأدبية التقليدية كان قبل أكثر من قرن على الأقل. ويعلم الجميع كذلك أن الإنسان العصري قد قام بعملية إعادة انتشار لخارطة القيم الإنسانية على مستوى الحضارات جميعاً. بعد كل هذا سيكون أمر مقارنة امرئ القيس بشعراء برنامج شاعر المليون -إضافة لسطحية هذه المقارنة- أمراً من دون فائدة. فذائقتنا الأدبية لم يسرقها أحد لأننا أصلاً لم نتعرف عليها ابتداءً، كوننا ولدنا على وقع الحروف الإنجليزية المعجونة بنكهات مختلفة ربما كان أكثرها وضوحاً اللغة العربية. لكننا نبقى -في نظري- مشردين لغوياً كنتيجة تلقائية لكوننا لاجئين حضارياً. بمعنى آخر: إن كنا نريد استعادة الحالة العشقية المتبادلة بيننا وبين لغتنا الحبيبة علينا أن نعود ثقافياً إلى أنفسنا، وحتى ذلك الحين، سيبدو حديث امرؤ القيس عن الليل في معلقته، في نظر الكثير من شبابنا، هذياناً محضاً.

* كاتب سعودي



في ظلال البستان

من بين الأراضي الزراعية التي يجتمع فيها الشجر والماء والزهر والثمر، هناك صيغة فريدة تختلف عن غيرها: البستان

فللبستان سمات خاصة وغامضة تجعله مختلفاً عن الحديقة وعن المزرعة، فهو صاحب «شخصية» لا نجدها إلا في الشرق، من ساحل المتوسط وحتى آسيا الوسطى؛ حيث يشكِّل العنوان الثابت والدائم للخير وهناء الحياة اليومية مع كل ما يمكن أن ينعكس من ذلك على الثقافة والفنون والآداب.

واستكشاف ملامح هذه الشخصية ودورها في تاريخ حياتنا وثقافتنا ماضياً وحاضراً، هو ما يسعى فريق التحرير إلى استكشافه ما بين الأشجار المثمرة والزهور الفطرية، بالقرب من الماء، وتحت الأغصان.



البستان في المخيلة الشرقية

للبستان في المخيلة الشرقية ملامح مرسومة. وبمجرد سماع كلمة «بستان»، تظهر أمام الإنسان الشرقي صورة لمساحة أرض صغيرة متنوعة الأشجار، يتجاذ بها النسيم والنور. وأول شجرة يقع عليها النظر ربما تكون شجرة البرتقال، فإذا التفتَّ يساراً ترى شجرة التفاح. بعدها شجرة تين. ثم إلى الطرف الأيمن عريشة عنب. وهناك شجرة صغيرة لم تكبر بعد، وخلفك شجرة صفصاف لم تلاحظها.. عالية كبيرة، تلقي بظلها على مقربة منك. وإذا استوطنت مساحة الظل ستجد بعض شتلات الورود المرتفعة، وزهوراً صفراء صغيرة.

البستان في المخيلة الشرقية ليس مكاناً منجَزاً. وليس مكاناً مهندساً. بل هو حيز على شيء من غير التحديد، فيه اختيار زارع محب لشجرة ما، في موسمٍ ما. زرعها ونسيها.. فاستقبلته وقد نمت، وأنشأت علاقة بالأشجار الأخرى التي سبقتها من دون تخطيط معروف، وأثمرت بعد حين. إنه ليس مكاناً كل شيء فيه محسوب أو مرسوم، بل أقرب إلى مكان تكونت معالمه «الشجرية» مع الوقت. تارةً بالرغبة، وتارة بالصدفة. وإن وجدت خريطته النهائية، فهي في الخيال، ليس من السهولة أن تعود إليها وفي يدك مسطرة قياس عادية. وقياسه الوحيد هو صاحبه واختياراته الحميمة. هذا لا يعني أن مساحات توزع أشجاره ليس لها قياس، لكنه قياس محسوب بالحس. وربما يكتشف الدارس المدقق أن حساباته لها نسب خاصة وإن كانت لا تتطابق مع الحسابات البسيطة. بل ربما يكتشف أنها عاصية على الحساب البسيط، وحسابها أعمق وأقرب إلى منهج حسابي آخر موجود في النسب الطبيعية التي هي المرجع الأصلي لهذا الكائن.. «الطبيعي».

فدخلوا البستان فإذا هو بستان بابه مقنطر عليه كروم، وأعنابه مختلفة الألوان. الأحمر كأنه ياقوت، والأسود كأنه أبنوس، فدخلوا تحت عريشة، فوجدوا فيه الأثمار صنوان، والأطيار تغرِّد بالألحان على الأغصان..



الخير والراحة والحب

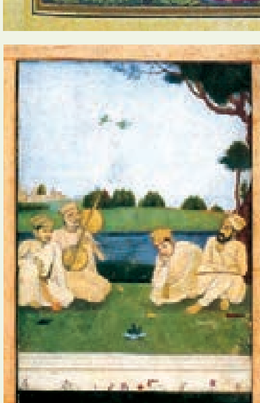
البستـان ليس حديقة، تنتظم فيها الأشجـار والزهور في صفوف متراصة. ليـس حديقـة أوروبية يجتـاز ممراتهـا المستقيمـة أحد أصحـاب الشأن، مستعرضـاً متباهياً. الإنسـان الشرقي يحب البستان ويحـب في البستان. البستـان يستحـوذ علـى مشاعـره، يمتّعه، يؤثّر فيـه، ويثير مخيلتـه. متعةٌ للنظر، متعةٌ للروح، مسرحٌ للخيال وامتدادٌ للتأمل.

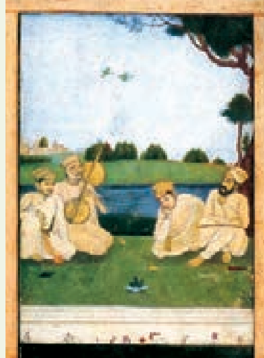
البستـان الشرقي الذي قد يخبئـه سورٌ عال، حين تدخله إنما تدخل حرماً. حـرمٌ شرعته يضعها القلـب لا العقل. وللبستان عندنـا مكانة عالية، تشعر أمامها بفرحـة يخالجها الخشوع. ومن يجلس في البستـان، إنما يشعر أنه يجلـس بجسمه وبروحه معاً. في البستـان يتواضع الإنسان. فيه يفرح سواء كان أميراً أو قاضياً أو شاعراً أو تاجراً كبيراً. يقطف ثمرة أو زهرة صغيرة، يحـدِّث من حوله بفرح طفولي، ناسياً الفـوارق والطبقات. يفترش العشب، وينظر بإعجاب إلى كل شجرة وزهرة على حدة. يغمض عينيه ليسمع أصوات ورق الشجـر، وخرير المياه، وتغريد عصفور بعيد. يتصرف بتواضع. ولكن تصرفاتـه فـي البستان تختلف. إذ إنه في البستـان لا يتواضع، بل هو يزيل عـن كاهله عبء المكانة. ليـس حباً في التواضع، بل رغبـةً في التحرر من «المنصب» كي يستمتع بالبستان بحرية الإنسان غير المقيد بشيء.



وفرحـة النـاس بفاكهـة البستـان هـي تعبيرٌ عـن فرحـةٍ بشكلهـا وبلونها وبعطرهـا.. أكثر مما هـي فرحة تصدر عـن رغبة في أكلهـا. إنها احتفاء بالتنوع والوفرة والخير. لا فرق فيها بين فاكهة وزهر وطير. وحتى حين تعد لـلأكل، فأكلها يكون تتمة للاحتفاء بها، متوجاً بمذاقها! البستان الشرقي ليـس حيـزاً مخططاً له. إنه فـي شكله المثالي حيزٌ متغيـرٌ دائماً، اجتمعت مكوناته فيه عبر مراحل مختلفة. ليست له دائماً بداية من صفر، ونهاية من مئـة. يضاف إليه، وقد يزال منه للاقتراب إلى صـورة موجودة في الشعور والخيال، أكثر مما هي موجودة في خريطة مرسومة ومتسقة.







البستان، ثيمة شبه ثابتة في المنمنمات الإسلامية



للطير والزهر والثمر

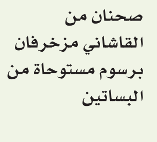
ولا يذكـر البستان إلا ويتبع ذلك التأكيد على تنـوع الثمار والزهور والطيور فيـه. فهذه لازمـة لا تفارق ذكـر البستان الشرقـي. فالوفـرة والتنوع تأتي دائمـاً مصاحبة للحماسة في وصفه. وربما تكون صورة البستان التي تتكرر فـي ألف ليلـة وليلة من أكثر الصور الحسية تعبيراً عـن البستان في الرؤية الشرقية:

«... فدخلوا البستـان فإذا هـو بستـان بابه مقنطـر عليه كـروم، وأعنابه مختلفـة الألـوان. الأحمـر كأنـه ياقـوت، والأسود كأنـه أبنوس، فدخلوا تحت عريشة، فوجدوا فيه الأثمار صنوان، والأطيار تغرِّد بالألحان على الأغصان، والهـزار يترنم، والقمري ملأ بصوته المكان، والشحرور كأنه في تغريده، إنسـان، والأثمار قد أينعت أثمارها مـن كل مأكول، ومن كل فاكهـة زوجـان. والمشمش مـا بين كافوري ولـوزي ومشمش خراسان، والبرقـوق كأنـه لون الحسـان، والقراصية تذهل عقـل كل إنسان، والتين مـا بيـن أحمـر وأبيض وأخضر مـن أحسن الألـوان، والزهر كأنـه اللؤلؤ والمرجان، والورد يفضح بحمرة خدود الحسان، والبنفسج كأنه الكبريت دنا من النيران، والآس والمنتور والخزامى مع شقائق النعمان، وتكالمت تلـك الأوراق بمدامـع الغمـام. وضحـك ثغر الأقحـوان، وصـار النرجس ناظراً إلى ورد بعيون السودان، والأترج كأنه أكواب، والليمون كبنادق من ذهـب، وفرشـت الأرض بالزهر من سائر الألـوان، وأقبـل الربيع فأشرق ببهجتـه المـكان، والنهـر في خرير والطير في هديـر والريح في صفير، والطقس في اعتدال والنسيم في اعتلال...».

وكلما تكاثرت أنواع الفاكهة والزهور والطيور، حضر البستان ببهائه الكامل، الـذي يزداد كمـالاً بالمياه الجارية فـي البرك والنوافيـر والممرات المائية والسواقي. كما يظهر ذلك في مقطع آخر من ألف ليلة وليلة، جاء فيه:

«قالـت شهـرزاد: بلغنـي أيها الملـك السعيـد أن أولاد التجار لمـا دخلوا البستـان، رأوا فيه كل مـا تشتهي الشفة واللسان، ووجدوا العنب مختلف الألـوان صنوانـاً وغيـر صنـوان.. ثـم انتهوا إلـى عريشة البستـان، فرأوا رضـوان بـواب البستـان جالسـاً فـي تلـك العريشـة كأنـه رضـوان خـازن الجنـان... وفـي ذلـك البستـان فواكـه ذات أفنـان، وأطيـار مـن جميـع الأصنـاف والألوان مثل فاخت وبلبل وكيـروان وقماري وحمام يغرد على الأغصـان، وأنهـار بهـا المـاء الجـاري، وقد راقت تلك المجاري بأزهارها وأثمـار ذات لـذات. وفيـه تفـاح سكري ومسكي يدهش النـاظر، ومشمش لـوزي وكافـور وجيلانـي وعنابي. وفيـه برقـوق وقراصيا وعنـاب تشفي السقيـم مـن الأوصاب والتين فوق أغصانه أحمـر وأخضر يحير العقول والنواظـر. وفيه من الكمثـري الطوري والحلبي والرومي ماهو مختلف الألوان صنوان وغير صنوان...».





صحنان من القاشاني مزخرفان برسوم مستوحاة من البساتين



والقمري ملأ بصوته المكان، والشحرور كأنه في تغريده، إنسان، والأثمار قد أينعت أثمارها من كل مأكول، ومن كل فاكهة زوجان. والمشمش ما بين كافوري ولوزي ومشمش خراسان..

البستان اليوم.. لم يتغير كثيراً

انتهى عالم ألف ليلة وعصرها، ولكن البستان الذي تغنَّت به شهرزاد لا يزال ينبض بالحياة، وما زال يحتفظ بشخصيته القديمة نفسها التي عجزت هندسة الحدائق عن طمسها، وبمكانته نفسها عند صاحبه وكل من يجول فيه.

فلو دخلنا أي بستان من آلاف البساتين في بلاد الشام مثلاً، للاحظنا فوراً أننا في مكان يقترب بشخصيته مما ورد سابقاً عن صورة البستان في المخيلة الشرقية، أكثر بكثير مما هو على صلة بأية حديقة منزلية نعرفها أو بأية أرض زراعية أخرى.

فما زالت الأشجار المثمرة تشكِّل قوام البستان. وإن استدعت الدوافع التجارية طغيان نوع واحد من الأشجار المثمرة على باقي الأنواع، فمن شبه المؤكد أن هذا الطغيان لا يلغي بالكامل مبدأ التنوع الذي يبقى أقوى من جاذبية التجارة.

ففي بساتين الزيتون مثلاً، لا بد وأن تحضر بضعة أشجار تين، وبضعة أشجار رمَّان تزرع على حافة المدرجات التي لا تصلح للزيتون، وعند حدود البستان يمكن أن تعلو شجرة سنديان تسلقتها عريشة عنب. أما السور الذي قد يكون حجرياً، أو من الأسلاك الشائكة، فيزرع عنده الورد الجوري الصالح للتقطير، أو تتسلقه شجيرات التوت البري.

ومن الذي زرع هذا البستان؟

بخلاف الحدائق، تبدو هذه البساتين قديمة جداً، وكأنها كانت دائماً موجودة في مكانها. قد تشير الشجيرات الصغيرة إلى أن صاحب البستان الحالي قد زرعها، بعد أن انقضى عمر الأشجار التي كانت في موضعها. فهل هي من النوع نفسه؟ وماذا عن الأشجار المعمرة التي زرعت قبل عشرات ومئات السنين ولا تزال خضراء باسقة؟

معظم البساتين في الأرياف تنتقل من أب إلى ابن، وتشكِّل في الواقع أغلى ما يمكن أن يتضمنه ميراث عائلة. وتزداد مكانة هذا الميراث إذا كان صاحب البستان هو نفسه فلاحه ومزارعه. إذ تصل عندها العلاقة ما بين صاحب البستان وكل زاوية وشجرة فيه إلى درجة من الحميمية، تجعلها في منزلة البيت وأفراد العائلة. وكم من حكاية شعبية متوارثة في هذه الأرياف تتحدث عن مآس حلَّت بأناس تخلوا عن بساتينهم أو تنكروا لها، أو تصارعوا على امتلاكها.

بعض الاختلافات

وربما بسبب تفتت الملكيات الزراعية الكبيرة إلى مساحات صغيرة، بات أصحابها من متوسطي الحال وليسوا من علية القوم، لم تعد البساتين تحيط بالقصور والدور الكبيرة وتشكِّل امتداداً لها. بل تراها تنتشر في الأرياف، وغالباً ما تكون منفصلة عن بيوت أصحابها. وفي هذه الحالات، غالباً ما يضم البستان غرفة حجرية متواضعة تستخدم لتوضيب المعدات الزراعية. وغالباً ما نجد وسط هذه المعدات أرجوحة، يطيب لصاحب البستان أن يعلقها ما بين جذعي شجرتين، ليقضي فيها قيلولته، أو يستقبل بها زوَّاره. فشخصية البستان المرحبَّة، المريحة، المطمئنة، الهادئة، لا تزال هي نفسها. والبستان الذي يمتلكه اليوم مزارع أو قروي متوسط الحال، ليس أقل بهاءً من بساتين علية القوم.

بين النبع والساقية

بعض البساتين لا يزال يقوم حول نبع ماء. ولكن بساتين كثيرة قامت في أوقات مختلفة بعيداً عن الينابيع. وإذا كان وجود النبع يكاد يضاعف أهمية البستان في كل شيء بدءاً ببهائه وصولاً إلى قيمته، فإن البساتين المتوسطية التي تحتاج إلى الري خلال أشهر الصيف، تدبرت أمرها، وبطريقة لا تقل شاعرية وجمالاً عن شاعرية النبع وجماله: الساقية.

والساقية هي خندق لا يزيد عرضه على 40 سنتيمتراً وعمقه على 20 سنتيمتراً، ينطلق من النبع الأغزر في المنطقة ويتعرج حول بساتينها. وفي أيام الصيف الحارة، عندما يحتاج بستان ما إلى الري، تطلق المياه في الساقية من النبع، وعندما تصل إلى البستان، توجه إلى داخله بواسطة سد حصوي وترابي صغير، وهناك تتلوى الساقية لتعرج على كل الأشجار. ومن عاش تجربة الري بالساقية، لا بد وأن تبقى في ذاكرته إلى الأبد، صورة ذلك الجدول الذي يصل أولاً موحلاً بعض الشيء، ومن ثم يصفو ماؤه الذي لا يعكره إلا لعب الأطفال والأولاد المبتهجين بهذا النهر الصغير الذي لا يرونه إلا لأوقات محدودة خلال الصيف.

التنوع لا يزال حاضراً

التنوع الذي تغنَّت به شهرزاد في حديثها عن محاسن بستانها الأسطوري، لا يزال حاضراً في البساتين الشرقية اليوم، ويشكِّل سمة من سماتها الأساسية.



صورة بستان زيتون متوسطي نموذجي

نقـول البساتين الشرقيـة، لأن الغايات التجارية جنحـت ببساتين بعض البلـدان عمَّا كان يميزها من تنوع. فبساتيـن الزيتون في إسبانيا تنتشر لأميال وأميال ولا تحوي غير شجر الزيتون المزروع في صفوف منتظمة. الأمـر نفسه ينطبق على كـروم العنب في فرنسا. أما في شرق المتوسط والمشـرق العربي عمومـاً، فما زال البستان بستانـاً، ليس بتنوع أشجاره المثمـرة ومجاورتها لبعض الأشجار غير المثمـرة، بل أيضاً في اتساعه للعديـد مـن ألوان الحيـاة الفطريـة واحتوائـه عليها. فتحـت الأشجار المثمـرة تنبت عشرات الأنواع من الأعشاب والزهور البرية، التي يطغى حضـور بعضهـا على البعض الآخر حسـب المواسم: شقائـق النعمان، الريحـان، الخبيـزة، الحميضة.. وغيـر ذلك الكثير. ومـا بين أغصان الأشجار الباسقة تبني الطيور أعشاشها. ولا شيء يمنع أن يخبِّئ العشب اليابس صيفـاً، واحدة من الأفاعي أو السحالـي التي تستوطن الحفافي الحجرية.

فبمثل هذا التنوع، يحتل البستان مكانه الوسطي ما بين الحديقة المنزلية، والطبيعة الفطرية، جامعاً في الوقت نفسه محاسن الاثنين، متفوقاً عليهما، بشخصيته المستقلة والفريدة.

اسم البستان

وكل شخصيـة مستقلة وفريدة تستحـق اسماً. ولكل بستان تقريباً اسم علم يميـزه عن البساتيـن المجاورة. ولا يلعب طغيان نوع مـن الأشجار المثمرة فـي بستان معين أي دور فـي إعطائه اسمه. فلا نجد بستانـاً اسمه بستان الليمـون، أو بستان التفاح وإن كان هو فعلاً كذلـك. فالبستان يستحق أكثر من ذلك.

بعـض البساتين يحمـل اسم صاحبه، وغالبـاً ما يكون اسـم أحد أصحابه قديمـاً، فنجـد بستان أبـو أحمد، أو بستـان سعاد، إذ لا فرق فـي أن يكون صاحبـه رجلاً أم امرأة.. وقـد يعود اسم البستان إلـى حادثة معينة جرت فيـه مثل «المشنوق» لأنه حصل قبل قرنين من الزمن أن عُثر فيه على رجل مشنـوق! أو «بستـان العروس»، لأنه دُفـع قبل قرن ونصف مهـراً لعروس.. ويبقـى اسم البستان نفسه من جيل إلى جيل، ولا يتغير إلا بوقوع واقعة أهم مـن السابقة التـي أعطته اسمه. ولكننا لـو سألنا الكثيرين اليـوم عمَّا إذا كانـوا قد شهدوا في حياتهـم تغيير اسم بستان أو إطـلاق اسم جديد على بستـان جديد، لم نجـد أحداً منهم يذكـر شيئاً من هذا القبيـل. وكأن كل البساتين المعروفة تحمل أسماءها الحالية منذ غابر الأزمان.

.. والبرقـوق كأنـه لـون الحسـان، والقراصيـة تذهـل عقـل كل إنسـان، والتيـن مـا بيـن أحمـر وأبيـض وأخضـر مـن أحسـن الألـوان، والزهـر كأنـه اللؤلـؤ والمرجـان، والـورد يفضـح بحمـرة خدود الحسـان، والبنفسج كأنه الكبريت دنـا من النيران، والآس والمنتور والخزامى مع شقائـق النعمـان، وتكالمت تلـك الأوراق بمدامع الغمام.





بستان يدخل في البيت وبيت يخرج إلى البستان

صدر في لندن عام 2004م كتاب روبرت إيروين «الحمراء»، عن القصر الذي شيِّد في جوار غرناطة، في العصر العربي في الأندلس. وقد اقتطعت القافلة من هذا الكتاب مقتطفات عن الجنائن والماء الجاري في القصر، وبعض ما أحاط بها من قضايا، على ما يوضح مفاهيم العرب حيال البستان ووظيفته في العمارة وتنظيم العمران وحياة الناس.

يقوم قصر الحمراء على نتوء صخري في جبال سييرا نيفادا الأندلسية، وقد وصف ابن بطوطة الرحَّالة العربي حين زار غرناطة في أوائل القرن الميلادي الرابع عشر، القصر بقوله: «تحيط به من كل جانب البساتين والجنائن والمروج والقصور والكروم». وكانت سييرا نيفادا، في عهد سلاطين بني النصر، الذين حكموا غرناطة بين سنتي 1232 و1492 للميلاد، مجالاً محرماً للملوك وحدهم يصطادون فيه. وكان بنو النصر يمضون معظم وقتهم في الخلاء، فلم تكن قصورهم في الحمراء أكثر من «فيلا» ريفية لمنامتهم في الليل.

خلاصة مفهوم العمارة والبستان العربي

من على هذا القصر الذي يحضن عدداً من برك الماء والجداول والينابيع، كانوا يطلُّون على الجبال إلى الشمال، وعلى بساتين القصر إلى الجنوب، وفي كل وجوه هذه العلاقة بين الماء والمبنى حيثما وجدتها هنا، خلاصة مفهوم العمارة وفن البستان العربي. وقد وصف الكاتب الأمريكي واشنطن إيرفنغ في القرن الميلادي التاسع عشر، كيف دخل القصر، قال: «كان الانتقال شبه سحري. وبدا وكأننا نُقِلنا فجأة إلى حقبة أخرى ومملكة أخرى، لندخل في مشهد القصة العربية. وجدنا أنفسنا في فناء كبير، أرضه رخام أبيض، وتزين طرفيه من كل جانب أبهاء منيرة إسلامية الطابع. وفي وسط هذا الفناء بركة عظيمة فيها صنوف السمك، طولها مئة وثلاثون قدماً، وعرضها ثلاثون، وتكثر فيها أسماك ذهبية اللون، وتحيط بها أسيجة ورد. وفي أحد أطراف هذا الفناء برج يسميه الإسبان برج كومارس».

الآس والبرتقال

لم يكن الورد من زرع العرب، بل شاهده هناك إيرفنغ في أوائل القرن التاسع عشر. وكان العرب أحاطوا البركة في الأصل بنبات الآس وشجر البرتقال، مثلما قال سفير البندقية أندريا نافاجييرو، الذي جال في المكان في أوائل القرن السادس عشر الميلادي. وقد أمضى المؤرخ الفيلسوف العربي الأكبر عبدالرحمن بن خلدون السنوات بين 1363 و1365م في غرناطة، ومنها أرسله السلطان محمد الخامس في مهام دبلوماسية، وقد ارتبط هناك بصداقة عمره مع السياسي والشاعر والمثقف الكبير لسان الدين بن الخطيب. وفيما بعد، في القاهرة، كتب ابن خلدون في تحفته الخالدة: «مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والأعاجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، كتب عن شجر البرتقال وأنه نذير انحطاط اجتماعي. إذ رأى أن كثرة زرع شجر البرتقال في مدينة ما، ينبئ بدمارها الوشيك. لم يكن ابن خلدون ساذجاً ليتطير من البرتقال

البستان والحديقة والجنة في القرآن الكريم

لم ترد كلمة بستان على ألفاظ القرآن الكريم.
أما كلمة حديقة فجاءت ثلاث مرات في صيغة الجمع: حدائق. قال عز وجل في سورة النمل: ﴿**وأنزلَ لكم من السماءِ ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها**﴾ (60 النمل). وقال سبحانه في سورة النبأ: ﴿**إن للمتقين مفازا. حدائق وأعنابا**﴾ (31 و32 النبأ)، وفي سورة عبس: ﴿**أنَّا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقَضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غُلبا. وفاكهة وأبًّا**﴾ (25 – 31 عبس). ويبين الله في كتابه العزيز في هذه السور المباركة، أن الحدائق من نعمه الكثيرة، تبارك وتعالى.

وجاءت كلمة روضة مرتين، إحداهما بصيغة المفرد والثانية بصيغة الجمع. ففي سورة الروم قال الله تعالى: ﴿**فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يُحبَرون**﴾ (15 الروم). في لسان العرب: أي يُسَرُّون، وقال الليث: يُحبَرون ينَعَّمون ويكرَّمون. وفي سورة الشورى: ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات**﴾ (22 الشورى). وبذلك يتضح من كتاب الله أن الرياض والحدائق ثواب ونعمة من لدنه. وخلافها العذاب الأليم.



وفي التنزيل العزيز ذكرت كلمة الجنة بصيغة المفرد هذه 66 مرة. من ذلك قول الله عز وجل: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم أن لهم الجنة**﴾ (111 التوبة). وذُكرت كلمة جنتين وجنتان بصيغة المثنى 7 مرات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال**﴾ (15 سبأ). وذُكرت كلمة جنـات، بصيغة الجمع 70 مرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿**ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها**﴾ (22 المجادلة). وجاءت كلمة جنة مضافة إلى ضمير متصل، 3 مرات: جنتك وجنته وجنتي، وذلك في قول الله عز وجل: ﴿**فادخلي في عبادي وادخلي جنتي**﴾ (30 الفجر).

أو يتشاءم منه، أو أي شيء من هذا القبيل، بل كان يشبِّه زرعه بزرع شجر السرو الذي لا تقدم عليه إلا مجتمعات حضرية انصرفت إلى حياة الرفاه والتنعم. لم تكن تلك الأشجار تثمر برتقالاً يؤكل، بل كانت تزويقاً لمشهد البستان. وكان ابن خلدون يرى، مثلما كتب في مقدمته فيما بعد، أن التوسع في مظاهر التنعم والاستزادة بأطايب العيش لدليل على أن السلالة الحاكمة مقبلة على طور الانحدار والوهن، فلا تقوى على الحكم بعد الجيل الثالث وتندثر، لتحل محلها عصبية جديدة حاكمة أقدر على تحمل شظف العيش والشدة التي تقتضيها أمور الملك والحكم. وحين وصف ابن خلدون برتقال البساتين في غرناطة بأنه لا يؤكل، لم يكن من نمط المهووسين في مسائل الطعام والأكل، إذ كان محقاً في شأن هذا البرتقال الإشبيلي، الذي كان مر الطعم، ولا يستخدم إلا في الطهو. أما البرتقال الحلو المذاق فيأتي به البرتغاليون إلى أوروبا والمشرق العربي في القرن الميلادي السادس عشر. ومن وحي رأي ابن خلدون هذا، كتب المستعرب الشاعر ديك ديفيس قصيدة عنوانها: مدينة شجر البرتقال. وقال فيها:

المدينة المليئة شجر برتقال
مآلها، إذا فسَّرتَ، يعني
أن كل هذا التنعم والرفاه
عقابه الآتي إلى خراب

الماء لذاته، لا للسباحة

ومع أن إيرفنغ يروي أنه سبح في بركة باحة الآس، فلا شيء ينبئنا أن مسلمي الأندلس في عصور الازدهار، كانوا يسبحون في البرك. فمع أن الحمَّامات تعد من التراث العربي الملازم لعمارة العرب وحياة مدنهم في كل العصور، إلا أنها كانت تستخدم لأغراض الوضوء والنظافة العامة أيضاً. وكان العرب يأنفون السباحة في برك مقفلة، لأنهم كانوا يرون أمراً غير محمود، أن تستحم في ماء يصير قذراً من فوره. أما الماء الجاري فليس فيه هذا المعاب. فالبركة كانت إذن عنصراً مطلوباً لمائها في ذاته، وما يحدثه من تلطيف للجو المجاور.

لم يكن زرع الورد بدل الآس التحوير الوحيد، الذي أحدثه الإسبان في القصر بعد سقوط الأندلس، بل أحدثوا الكثير من التغيير. إلا أن من أهم ما بدَّلوه في مفهوم الحديقة عند العرب أنهم أنشأوا النوافير التي تقذف الماء في الهواء، على جانبي الممرات في القصر. ولم يكن هذا من صنع العرب، الذين كانوا يفضلون الينابيع الفياضة على النوافير.

في فناء الأسود، في قصر الحمراء، الذي يجمع الخبراء على أنه واحد من أجمل ما شيد الناس في العالم، يلاحظ المهندسون دقة الحساب الهندسي ورهافة الحس الفني في التزويق المعماري، إلى درجة تخطف الأنفاس. ويتضاعف هذا الإحساس إذا دخلت الفناء في الليل، والقمر في كبد السماء. فالإحساس حينئذ يوحي لك أن الخط المعماري هابط عليك من السماء، ولا يستند إلى الأرض التي بني عليها. ذلك أن الرخام المحيط بالمكان يعكس الشعاع فينشئ صورة مجسمة تأخذ باللب وكأنك لا تشاهد أمراً طبيعياً. وفي وسط الفناء بركة تبدو كأنها تقوم على اثني عشر أسداً من صخر. ويتضاعف عدد هذه الأسود، حين يعكس الماء صورتها إلى ناظريك. وحين تشرق الشمس تكتشف أن الأسود الإثني عشر لا يحملون البركة في الواقع. وإن هو إلا خداع بصر مؤثر في النفس. وتنطلق من الينبوع في وسط البركة أربع قنوات ماء تشق الفناء في أربعة أجزاء، طول كل منها ضعف عرضه. وأما الإحساس الذي لا يمكن أن يقاوَم فهو ألفة المكان وطابعه الحميم. ويقول مؤرخون إن وسط البركة في وقت من الأوقات كان بستاناً مزروعاً أزهاراً وشجر برتقال. وكان البستان غائراً في الأرض كيلا يخفي عن الناظرين مشهد الينبوع في الوسط، وكانت أربعة ممرات تلتقي عنده من أطراف الفناء. ويقول نص في وصف فناء الأسود هذا، كتب في سنة 1602 ميلادية، إن كلاً من أجزاء الفناء الأربعة كانت مزروعة فيه ست شجرات برتقال، تحيط بها أزهار من كل صنف.

ويرى خبراء العمارة في فناء الأسود، زوال الحد الفاصل بين الداخل والخارج. ففي داخل القصر، حيث المكان الحميم، تجري قنوات الماء، وتنتصب الأشجار وتنبت أنواع الزرع، فيدخل البستان في البيت ويخرج البيت إلى البستان. فقنوات الماء تتفرع من الينبوع إلى الغرف شرقاً وغرباً، ولذا كانت أدوات المعمار في قصر الحمراء هي البستان والماء والضوء، قبل الحجر. وقد وصف روبرت هلنبراند هذا التفاعل بين عناصر العمارة ببلاغة فقال:

«يجمع قصر الحمراء قوى الطبيعة معاً في تفاعل عند كل مفترق وزاوية: فالمياه تتحرك: تقطر وتجري وتتساقط وتتدفق، أو تستقر بهدوء في مستقر، بين الشجر والآجام وحدائق الزهر، فيأخذ هذا المشهد مكانه في إطار بين الجبل والمطلَّات الخلابة، فيمسي جزءاً من هذه اللوحة، شديد الانسجام معها، مستغلاً خطوطها مستفيداً من لعبة الضوء فيها. إن قصر الحمراء يتلاعب ببراعة وعناية بتضاد النور والظلام، بفضل مداخله المتقوسة وانتقاء زوايا استقبال أشعة الشمس في الداخل، والفيء في ممرات تنفتح فجأة عن أفنية مفتوحة تسطع فيها الشمس بقوتها، أو يشع فيها النور تعكسه برك مستقرة، أو بلاط لامع جميل».

وقد قيل في قصر الحمراء إنه مكان أنشأه الشعراء وأقام فيه العلماء.



الماء من أساسيات البستان



بساتين أندلس الأمس كما تبدو اليوم

غرناطة في شهر أغسطس: صف طويل بطيء من السياح، يجر أقدامه بتثاقل نحو بوابات الدخول الكبرى إلى قصر الحمراء. وباستثناء موظف بلباس أسود يقطع التذاكر للداخلين، وشرطي ملول من الحرس المدني، لا تجد هنا أي إسباني. فالسكان المحليون الحذرون يمكثون في منازلهم ومكاتبهم بعيداً عن القيظ، في عز الصيف، ولا يبدأ تدفقهم إلا عند الغسق، لإحياء صخب الشوارع في جنوب إسبانيا.

لقد كان نويل كاورد على خطأ. فالكلاب المسعورة والإنجليز لا يغامرون وحدهم في الخروج تحت أشعة شمس الظهيرة، بل الفرنسيون والألمان واليابانيون والأمريكيون والدنماركيون كذلك.

ينقضي بعد الظهر، وكذا نشاطنا، فنأخذ في التقدم منهكين ننفث لهاثنا في لزوجة الحر، مقتربين من البوابات، فيما تختلط أصوات جوقة أولياء الأطفال وهم يحثونهم بألف لهجة ولهجة، على التزام النظام، وإلا.

وأخيراً عبرنا المدخل إلى عالم بارد لطيف الجو رذاذه منعش، يظلله الشجر، فيحميه من وهج الشمس، ويزيده سحراً خرير الماء. وباستمتاع لا يوصف، نكتشف فجأة انحسار الحر 17 درجة مئوية تقريباً بين جو البستان في الداخل، والجو في الخارج، حيث كنَّا نجر أنفسنا متهالكين. والنتيجة سحرية، والانفراج مدهش. ماذا حدث إذن وما التفسير؟

هل يمكن أن يكون التبدل طبيعياً؟ هل هو شيء ما في سر فن البستان؟ ومَن هم تُرى أولئك الذين استطاعوا أن يطوِّعوا سطوة الشمس نفسها؟

إنه سر لم يُفشِه سوى جمال المرمر وروعة أعمدة الرخام المزدوجة اللون في قناطر القصر وما تفيء به على الناس: لقد بنى قصر الحمراء وأنشأ بساتينه العرب الذين حكموا وأعمروا هذه الديار من إسبانيا 800 سنة، فشعَّت حضارتهم هنا كما لم تشع في أي مكان منذ عام 1492م. لم تزدهر فنونهم في مجال العمارة الرائعة فقط، بل لمعت كذلك براعة البستاني العربي، الذي تفوق في فن اتقاء المناخ الجائر.

حكام الأندلس العرب هم الذين ابتكروا في غرناطة فن البستان المرتبط بالماء وجريانه. كان ذلك الفن الرفاهية القصوى عند العربي الآتي من الصحراء، الباحث عن ركن حميم منعش من الحر، في وسط قيظ لاهب. عندما دخل العرب إسبانيا، أحضروا معهم براعتهم في إنشاء جنائن وبساتين، جامعين الشجر كبيره وصغيره، مع الماء، فمنه ما يجري في قنوات ومنه ما ينبع من الأرض ومنه ما يسقط شلالات. في البستان تدخل عالماً تثرثر فيه المياه الزاهية، لترتمي في أحواض ومجار، مصنوعة من المرمر الأزرق يزيد إحساسك بعمقها. وكل هذا يحيي الجسم وينعش العقل والقلب.

وقدَّر المؤرخون، أن بلاد الأندلس في أثناء حكم العرب كانت تضم نحو 50000 منزل تحيط بها الجنائن والبساتين في مقاطعة إشبيلية وحدها.

وكانت البساتين تجر الماء لري صنوف الزرع المتنوعة، التي عشقها العرب. ولذا اختلط الزهر بالثمر والخضر بلا أي تمييز. وكان البستاني العربي يرى الجمال سواء بسواء، في البصل أو النبات المعترش أو الأرضي شوكي أو النبات الاستوائي. كذلك زرع النبات المائي وربَّى الأسماك، في الأحواض. فتلك كانت مأوى آمناً من بطش الشمس الكاسح. ويشكِّل هذا الآن جزءاً مشرقاً من إرث إسبانيا وروحها اليوم.

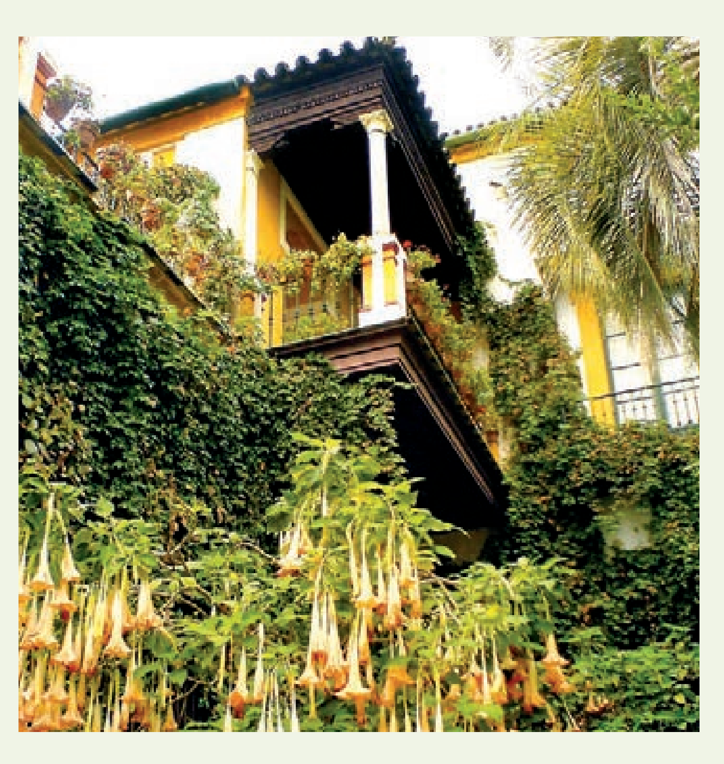
ها هو الشاعر الإسباني الحديث، فيديريكو غارثيا لوركا، وهو من غرناطة ينشد:

«أخضر. أحبك أخضر.
نسيماً أخضر، وغصنا أخضر».

وها هم موسيقيو إسبانيا الكبار: ألبنيتز ودي فايَّا وغرانادوس، يحتفلون في موسيقاهم بصفق المياه أو يصورون مشهد ترقرق الجداول البراق وهمس النسيم العليل على صفحاتها.

وها هو سرفاندو ألفارث، المسؤول في قسم هندسة ميكانيك السوائل والطاقة في كلية الهندسة الحرارية بجامعة إشبيلية، يقود فريق علماء يستنبطون حلولاً: فقد شرح أن علماءه العاملين مع خبراء تخطيط المشاهد، يأملون في استحداث «بيئة مصغرة» (ميكرو بيئة) تمتد إلى خارج جنائن قصر الحمراء، في الممرات والرياض المحيطة والمعارض. ولذا فهو يريد إحياء المهارة التي تميز بها الأسلاف العرب، وربطها بتكنولوجيا الغد، ليسعى فريقه في بعث بستان الماء التقليدي ضمن مشاريع هندسة المشاهد (Landscape)، في كل أنحاء العالم، فيتحول البستان العربي من مجرد بستان منزلي متواضع إلى رياض واسعة طموحة في مساحة أراض شاسعة.

بتصرف عن دونالد سكار - سبتمبر - أكتوبر 1991م، «أرامكو وورلد»



البستان في الفن.. الإسلامي أولاً

كل من ألقى نظرة خاطفة على الفن الإسلامي يعرف الدور الذي لعبه عالم النبات في صوغ شخصية هذا الفن. أما البستان بحد ذاته، فما من فن في العالم أتقن استيحاءه والاستفادة منه كما هو حال الفن الإسلامي، حتى أنه قد لا يكون من المبالغة أن هذا الفن احتكر لنفسه استغلال البستان كمصدر للوحي الفني متعدد الأشكال.

الرسم والمنمنمات

فمنذ فجر الفن الإسلامي ظهرت بساتين دمشق في الموزاييك الذي يزيِّن جدران باحة الجامع الأموي، ومنذ ذلك الحين، لم يغب البستان عن معظم الفنون الإسلامية، وإن كان وضوح صورته يتفاوت بين فن وآخر وحين وآخر. ولعل الرسوم والمنمنمات الإسلامية التي ظهرت ما بين بلاد فارس والهند هي أشهر أشكال الفن الإسلامي في نقل صورة البستان وبشكل مباشر وواضح، وأطول هذه الأشكال عمراً. فالأكثرية الساحقة من هذه الرسوم هي إما ذات موضوعات تدور أحداثها في البستان: صيد، مجلس لهو، اجتماع أعيان وغير ذلك، وإما تتضمن نصاً محاطاً بزخارف مستوحاة بوضوح من نباتات البساتين وغنائيتها. وما وصلنا من هذه المنمنمات والرسوم يفوق القدرة على إحصائه.

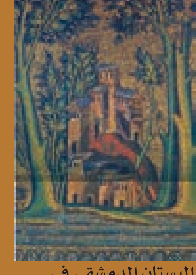
وللتأكيد على دور البستان في مجال فني آخر، يمكننا أن نعطي مثالاً يمكن أن يتلمسه القارئ بسهولة. ففي أي متجر يبيع السجاد اليدوي الفاخر، نلاحظ أن هذا السجاد يتوزع إلى فئتين رئيستين: الفئة الأولى وتضم السجاد المعروف بـ «القبلي» وهو الذي تنتجه القبائل الرحَّل في آسيا الوسطى، غير المرتبطة بالأرض ولا بالبساتين، في أماكن مثل بخارى والقوقاز وتركمانستان..ومعظم الزخارف التي تزين هذا السجاد هي هندسية مجردة، ومن النادر أن نرى حضوراً واضحاً لحيوان أو نبات مثمر.

أما الفئة الثانية فتضم السجاد المصنوع في المدن: كاشان، تبريز، أصفهان.. التي تتضمن زخارف مستوحاة بشكل واضح من نباتات بعضها زراعي مثل الورود والزنابق، ومن الثمار مثل الرمان والتفاح والكرز، إضافة إلى بعض النباتات الفطرية وأشجار الزينة مثل السرو وما شابه.. أي من الخلطة النباتية التي لا تتوافر إلا في البساتين، وبانتقالها إلى السجادة، تصبح هذه السجادة صورة «مؤسلبة» عن صورة البستان.

إلى ذلك، هناك أشكال تعبيرية عديدة في الفن الإسلامي استوحت جزءاً صغيراً أو جانباً محدداً من البستان لتبتكر شكلاً تعبيرياً، وإن ابتعد عن الأصل، فهو يبقى مديناً لهذا الأصل. ومن ذلك فن القاشاني الذي بلغ ذروته في إزنيك بتركيا، حيث كان يتم تزيين الخزف برسوم مستوحاة من خلطة نباتية محدودة مختارة بعناية لمواصفاتها الشكلية واللونية. الأمر نفسه ينطبق على فن السيراميك في المغرب العربي الذي لا يزال إنتاجه مزدهراً حتى عصرنا هذا.

في المقابل، ظلَّ الأوروبيون يرسمون الطبيعة والغابات منذ عصر النهضة وحتى القرن التاسع عشر. فتارة تكون هذه الطبيعة متخيلة بشكل لائق بالموضوعات الأسطورية، وتارة تكون غابات واقعية. فحتى القرن التاسع عشر كانت ألوان الرسم الزيتي مصنوعة من مسحوق يجب خلطه بالزيت، ولذا كان الخروج إلى الطبيعة أمراً صعباً، بسبب المتاعب التي يسببها تحضير الألوان في الهواء الطلق.

قرابة العام 1870م، ظهرت الألوان الجاهزة في أنابيب صغيرة مصنوعة من الألمنيوم. فسمح الأمر بخروج الفنانين إلى الطبيعة لرسمها مباشرة. فظهر البستان في بعض أعمال كورو وبيسارو وسيزان.. واستمرت بعض أجزائه في الظهور حتى ما بعد الانطباعية عند بونارد وغيره. ومع ذلك، لم يحتل البستان المكانة التي يمكن أن نتوقعها في الفن الانطباعي. فحيثما ظهرت بساتين -وهي محدودة العدد جداً- يبدو ظهورها وكأنه كان عرضياً، وبقي أقل حضوراً من حضور الغابة، أو المنظر الطبيعي العام. الأمر الذي يؤكد أن البستان بصفته جزءاً أساساً من الحياة اليومية هو مفهوم شرقي أولاً وأخيراً.



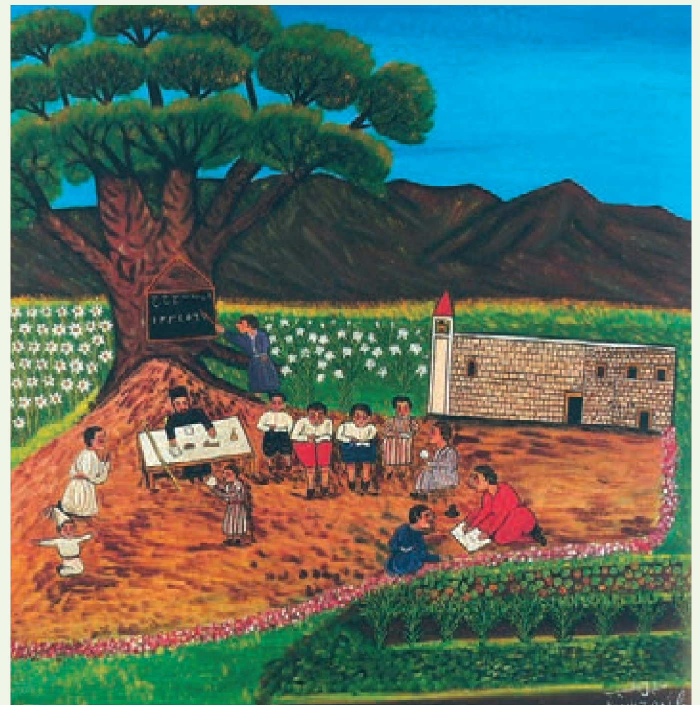


مشهد بستان للفنان ميشيل كرشة

البستان الدمشقي في موزاييك الجامع الأموي



البستان مصدر وحي رئيس للسجاد الفارسي الفاخر


مدرسة القرية للفنان خليل زغيب



البساتين والحدائق في الموسيقى من دوفيَّا الإسباني إلى أسمهان

ما سقناه سابقاً عن فن الرسم يكاد ينطبق تماماً على فن الموسيقى والغناء. فحتى ظهور الانطباعية في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، كانت الموسيقى الأوروبية تستوحي الطبيعة بشكل عام، كما هو حال «السمفونية الريفية» لبيتهوفن، أما البساتين بمعناها الدقيق فلم يكن لها أي أثر واضح.

غير أنه مع الانطباعية في الرسم، وصلت الموسيقى التصويرية إلى ذروة ازدهارها. وهنا أيضاً كان من أشهر العباقرة في هذا المجال، الإسباني الأندلسي مانويل دوفيَّا (Defalla)، الذي ربما يكون اسمه مشتقاً من اسم أجداده الأندلسيين «ضيف الله»، وهو صاحب أحد أهم مؤلفات الموسيقى الكلاسيكية الإسبانية، التي تحمل اسم «ليال في حدائق إسبانيا». يتألف هذا العمل من ثلاثة أقسام، يحمل آخرها اسم «في حدائق قرطبة».

لقد قضى المؤلف الإسباني «دوفيَّا» حقبة من حياته في باريس في خضم ازدهار موجة «الفن الانطباعي»، فتأثر كثيراً بجمال هذه المدرسة، كما تجلت في روائع لوحات عباقرة الرسم، وعقد صداقة وثيقة مع اثنين من أكبر المؤلفين الموسيقيين الفرنسيين المجددين، اللذين انخرطا تماماً في المدرسة الانطباعية، وكانا من أهم رموزها في الموسيقى، كلود دو بوسي وموريس رافيل.

ومع أن الباحث الموسيقى الإسباني فيليب فدريل، الأندلسي أيضاً، كان قد وجه دوفيَّا إلى التعمق في الاطلاع على الفولكلور الأندلسي قبل الانطلاق في نشاطه التأليفي الموسيقي، فإن هناك إجماعاً بين النقاد على أن دوفيًّا لم يستخدم جملاً فولكلورية أندلسية معينة، بل عمد إلى تمثل روح الفولكلور الأندلسي فيما وضعه من موسيقى. كذلك لم يعتمد أسلوب الوصف المباشر لحدائق إسبانيا، بل فضَّل التعبير عن الانطباع الحسي الذي تحدثه هذه الحدائق في نفس زائرها.

فإذا انتقلنا إلى الموسيقى العربية الكلاسيكية، فإن موسيقيين ومطربين كثراً استوحوا الحدائق في أعمالهم، إما بوصفها مباشرة، أو بوصف الأثر الذي تتركه في نفس زائريها، لا سيما إذا كانوا من المحبين. ولعلنا نكتفي في هذه العجالة، بالتذكير بنموذجين شهيرين في الغناء العربي المعاصر، كانت الحدائق مصدر الوحي فيهما، للشاعر والملحن والمغني.

النموذج الأول هو المونولوج الشهير لمحمد عبدالوهاب «بلبل حيران»، الذي صاغه شعراً بالعامية المصرية أمير الشعراء أحمد شوقي، وروى فيه قصة الطير الذي وقع في غرام وردة، فدفعه غرامه إلى أن يغرس شوكها في قلبه، الذي ظل ينزف دماً حتى الموت، مع وصف شاعري مدهش للحديقة وأغصانها وبلابلها.

أما النموذج الثاني، فهو أحد أشهر أغنيات أسمهان، وقد لحنها مدحت عاصم: «دخلت مرة في جنينة». وقد روت الأغنية حكاية غرام بين بلبلين (ذكر وأنثى) انتهت بمأساة الخيانة، بعد وصف شاعري جميل، شعراً ولحناً وغناءً، للحديقة وشجرها وسكانها من طير وبلابل.

أما في بلاد الشام، فلا يمكن إغفال الحضور الكبير للحدائق والبساتين في الموشحات والقدود الحلبية. نذكر واحداً من أشهرها وهو موشح «زارني المحبوب في رياض الآس». كما أن حضور البستان أو الحديقة يكثر أيضاً في موضوعات معينة من بعض القدود الحلبية مثل «قدك المياس» وفيه المقطع الشهير الذي يقول: «أنا وحبيبي في جنينة.. والورد مخيِّم علينا».

وإلى جانب أغنيات فيروز التي تتحدث عن «الكروم» وهي بساتين العنب، مثل «يا كرم العلالي» و «اطلعي يا عروسة»، غنَّت صباح للجنينة العربية أغنية ظريفة من تلحين فيلمون وهبي، تقول فيها:

«جنينة حبيبي مليانيتفاح وعنب لبناني
ومانغا مصرية بلونينومشمش شامي يخزي العين
وفستق حلبي وسوداني

ولا بد أن نذكر أن الفنانين، إذا كانوا يستوحون من الحديقة والبستان مشاعر الحب، فإن بعضهم سار في الاتجاه المعاكس وخرج بالنتيجة ذاتها. فلمحمد عثمان، الموسيقار العربي الكبير في القرن التاسع عشر، دور شهير مقامه الصبا الحزين، وعنوانه: بستان جمالك. وهو مثلما يتضح، يبدأ بوصف الحبيب، ليشبهه بالبستان، ولا يبدأ من البستان لينتهي عند الحبيب.

هذا بعض ما تفعله الحدائق بالفنانين والمستمعين، على السواء.



ضوء وظل وزيتون وأقحوان



البستان في الشعر العربي

يستحيل حصر كل ما ورد في الشعر العربي حول البستان في هذا المجال المحدود، ونكتفي بذكر عينات تظهر التنوع الكبير الذي ميَّز تطلعات شعرائنا إلى البساتين.

فقد مرَّ **المتنبي** ذات يوم بشِعْب بَوَّان بإيران، و هو موضع كثير الشجر والماء ويعد من متنزهات الدنيا، فقال واصفاً إياه:

مَغاني الشِعْبِ طِيباً في المغاني
بِمَنزلةِ الرَّبيعِ مِنَ الزمَانِ...
غَدَونَا تَنفُضُ الأغصَانُ فيها
على أعْرافِهَا مثلَ الجُمانِ(1)
فسِرتُ وقد حَجَبْنَ الحَرَّ عني
وجِئْنَ منَ الضِّيَاءِ بما كفَاني
وألْقَى الشَّرْقُ منها في ثيابي
دنانيراً تَفِرُّ مِنَ البَنَانِ(2)

ولا يملك من يَجُولُ في بستانٍ قد اكتملَ حُسنُهُ وبهاؤه، إلاَّ أن يتذكر أحبابه، ويحن إلى وصالهم... إذ لا يكتمل السرور إلا بوجود الوجه الحَسَن. ولذا، عندما دخل **ابن زيدون** مدينة الزهراء، هاجت له الذكرى، فقال يصفها ويصف أشواقه:

إنِّي ذكرتك بالزهراء مُشتاقا
والأفقُ طَلْقٌ ومَرْأى الأرْض قد رَاقا...
نَلهُو بما يَسْتَميلُ العينَ من زَهَرٍ
جَالَ الندى فيهِ حتى مَالَ أعنَاقا
وَرْدٌ تألَّقَ في ضَاحي منابتهِ
فازدادَ منه الضُّحَى في العينِ إشْراقا

كلٌّ يَهِيجُ لنا ذِكْرَى تَشَوُّقِنا
إليكِ لَمْ يَعْدُ عنها الصدرُ إنْ ضَاقا

وربما كان بستانُ حُسْنِ الحبيب، أجملُ من بستانِ الشجرِ والهواءِ الطلق، و كانَ وردُ الخُدودِ أشهى من روضةِ الياسمين والنرجس... وهنا يرسم لنا **ابن نباتة** المصري هذه الصورة الجميلة لمحبوبته:

لا تَسْألوا في الحُبِّ عن شَاني
فقد كفى تَعبيرُ أجْفاني
هَوَيْتُ من طَلْعَتُهُ رَوْضَةٌ
فَفَاضَتِ العَيْنُ بِغُدْرَانِ
غُصنٌ مِنَ البَانِ إذا ما انْثَنَى
أبْصَرْتُ فيه ألفَ بُسْتَانِ
أشْبَهْتُ في حُبِّهِ وِرْقَ الحِمَى
فكلُّنا نبكي على البَانِ

وقد اشْتُهِرَ **ابن خَفاجة** الأندلسي بوصف الرياض ومناظر الطبيعة، ولا عجب في ذلك، فمن يعش في ربوع الأندلس لا بد أن ترقَّ مشاعره، وتتفتّقَ قريحته عن أعذب الكلمات، مما يدل على تأثير البيئة على تكوين من يسكن فيها. وهو هنا يصف أحد مجالس اللهو مع أصحابه، فعندما يَضُمُّ المَرْءَ مَجْلِسٌ مع أصحاب أكْفَاء، في بستانٍ تغنّي طيورُهُ وتترقرَقُ مياهُه، تسقط الكُلفة بين الندماء، ويغلبُ السرور على البصر والفؤاد...

سُقْيَاً ليوم قد أنَخْتُ بِسَرْحَةٍ
رَيّا، تُلاعبُها الشَمالُ فتَلعَبُ(3)
سَكْرَى، يُغَنّيها الحَمَامُ فتَنْثني
طَرَباً، ويَسقيها الغَمَامُ، فتَشرَبُ

والـرَّوْضُ وَجْـهٌ أزْهَـــرٌ، والـظـلُّ فَـرْعٌ
أسْـــوَدٌ، والـمــاءُ ثَـغْـرٌ أشْـنَـبُ [4]
فـي حَـيـثُ أطْرَبَـنـا الـحَـمَـامُ عَـشيَّـةً
فـشَدا يُـغـنِّـيـنـا الـحَـمَـامُ الـمُـطـربُ
واهـتـزَّ عِـطْـفُ الغُـصْـنِ مـنْ طـرَبٍ بنا
وافْــتَــرَّ، عـن ثَـغْـرِ الـهِـلالِ، الـمَـغْـرِبُ
فـي فِـتْـيَـةٍ تَـسْـري، فـيَـنْـصَـدِعُ الـدُّجَـى
عَـنـهـا، وتَـنْـزِلُ بـالـجَـديـبِ، فَـيَـخْـصِـبُ
كَـرُمـوا، فلا غَـيْـثُ الـسَّـمَـاحَـةِ مُـخْـلِـفٌ
يَـومـاً، ولا بَــرْقُ الـلَّـطَـافَـةِ خُلَّـبُ [5]

وقد كثر اقتران ذكر البساتين، بمجالس اللهو والأنس... وربما حَلّتْ أنغامُ العُود ضيفاً على مجلس اللهو ذاك، مع وُجودِ صافي الشراب، وفاكهةٍ دانيةٍ قطوفها، كما يصفه **السالمي**:

فـلِـلّـهِ بُـسْـتـانٌ بـهِ الـحُـسْـنُ أزْهَـــرَا
قـطَـعْـنـا بـه الـلـذاتِ كـأسَـاً ومِزْهَرا [6]
على طِـيـبـهِ تَـمَّ الـنَّـسِـيـمُ الـذي سَـرَى
نُـدامَـايَ لا تَـنْـسُوا الـحـديثَ الـذي جَـرَى
على جِـهَـةِ الـرُمّـانِ مـنْ أسْـفَـلِ الـعُـودِ

وفي الشعر المعاصر، ظهر البستان صورة للوطن ومجالاً للاعتزاز بالانتماء إليه. حتى أن ثماره وأزهاره صارت بدورها رموزاً لا للجمال والخير فقط بل للهوية الوطنية أيضاً. وقد يكون **نزار قباني** واحداً من أشهر أصحاب هذه النظرة الشعرية الجديدة إلى البستان بشجره وزهره. ففي وصفه لحال فلسطين تحت الاحتلال، يقول في إحدى قصائده:

ولـيـمـون يـافـا يـابـس فـي حـقـولـه
وهـل شـجـر فـي قـبـضـة الـظـلـم يـزهـر؟

أما في «القصيدة الدمشقية» فيقول:

«أنا الدمشقي لو شرَّحتم جسدي
لسال منه عناقيدٌ وتفاحُ
مآذن الشام تبكي إذ تعانقني
وللمآذن.. كالأشجار.. أرواح».

ويتكئ الشاعر على الشهرة الواسعة التي تحظى بها البساتين الدمشقية، ليرى فيها وفي أزهارها وثمارها هوية المدينة ككل. ففي «قصيدة غرناطة» يروي قصة لقائه بفتاة إسبانية من أصل عربي، يقول عندما تسأله الفتاة عن دمشق:

ودمشق، أين تكون؟ قلت ترينها
في شعرك المنساب.. نهر سواد
في طيب «جنات العريف» ومائها
في الفل في الريحان في الكباد

1 أعرافها: أي أعراف خيولنا، والعرف هو شعر عنق الفرس. يقول: سرنا بين أشجارها صباحاً وقد تساقط الندى من أغصانها، فانتفض على أعراف الخيل كأنه الجمان، أي الفضة.
2 البنان: أطراف الأصابع. يريد بالدنانير ما يتخلل الأغصان من ضوء الشمس، فإنه يقع مستديراً.
3 الشمال: الرياح التي تهب من الشمال.
4 الفَرْع: الشعر، يُشبّه الظل بالشعر الأسود الطويل.
5 البَرْق الخُلّب: هو البرق الذي لا يهطل بعده المطر. ويُضْرَبُ مثلاً لمن يَعِدُ ولا يفي بوعده.
6 المِزْهَر: آلة موسيقية هي آلة العود.

وربما كان بستانُ حُسْنِ الحبيب، أجملُ من بستانِ الشجرِ والهواءِ الطلق، وكانَ وردُ الخُدودِ أشهى من روضةِ الياسمين والنرجس..





البستان في طوق الحمامة

تنزهت أنا وجماعة من إخواني من أهل الأدب والشرف إلى بستان لرجل من أصحابنا، فجلنا ساعة ثم أفضى بنا القعود إلى مكان دونه يتمنى، فتمددنا في رياض أريضة، وأرض عريضة للبصر فيها منفسح، وللنفس لديها مسرح، بين جداول تطرد كأباريق اللجين وأطيار تغرد بألحان تزري بما أبدعه معبد، والغريض، وثمار مهدلة قد ذللت للأيدي ودنت للمتناول، وظلال مظلة تلاحظنا الشمس من بينها فتتصور بين أيدينا كرقاع الشطرنج والثياب المدبجة، وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة وأنهار متدفقة تنساب كبطون الحيات لها خرير يقوم ويهدأ، ونواوير مونقة مختلفة الألوان تصفقها الرياح الطيبة النسيم، وهواء سجسج، وأخلاق جلاس تفوق كل هذا، في يوم ربيع ذي شمس ظليلة، تارة يغطيها الغيم الرقيق والمزن اللطيف، وتارة تتجلى، فهي كالعذراء الخفرة والخريدة الخجلة تتراءى لعاشقها من بين الأستار ثم تغيب فيها، حذر عين مراقبة. وكان بعضنا مطرقاً كأنه يحادث أخرى، وذلك لسر كان له فعرض لي بذلك، وتداعبنا حيناً فكلفت أن أقول إلى لسانه شيئاً في ذلك، فقلت بديهة، وما كتبوها إلا من تذكرها بعد انصرافنا، وهي:

ولما تروحنا بأكناف روضة
مهدلة الأفنان في تربها الندي
وقد ضحكت أنوارها وتضوعت
أساورها في ظل فيء ممدد
وأبدت لنا الأطيار حسن صريفها
فمن بين شاك شجوه ومغرد
وللماء فيما بيننا متصرف
وللعين مرتاد هناك ولليد
وما شئت من أخلاق أروع ماجد
كريم السجايا للفخار مشيد
تنغص عندي كل ما قد وصفته
ولم يهنني إذ غاب عني سيدي
فيا ليتني في السجن وهو معانقي
وأنتم معاً في قصر دار المجدد
فمن رام منا أن يبدل حاله
بحال أخيه أو بملك مخلد
فلا عاش إلا في شقاء ونكبة
ولا زال في بؤسٍ وخزيٍ مردد



كلمات من «لسان العرب» والعجم ذات صلة بالبستان

لو عدنا إلى كلمتي «حديقة» و«جنة» لوجدنا أنهما تشتقان من أصل واحد. فكلمة جنة بالإنجليزية مثلاً (Paradise) تتحور من أصل فارسي «الفردوس»، التي تتحدر بدورها من الفارسية القديمة (pairi-dea-za) التي تعني «منتزه محاط بسور» والكلمة البابلية «باراديسو» ليست سوى شكل لاحق للتعبير السابق، ومعناها حرفياً «السياج»، أو «السور»، أو بكل بساطة «ملكية محددة».

ويتضمن «لسان العرب» لابن منظور وغيره من المعاجم الكبرى شرحاً دقيقاً لكل المفردات ذات الصلة -القريبة أو البعيدة- بالبستان، علماً بأن استعمالاتها تعرَّضت لشيء من التغيير بمرور الزمن. ومنها على سبيل المثال:

- **البستان**: الحديقة (في لسان العرب: مادة بست). وقيل الحديقة كل أرض ذات شجر مثمر ونخل. وقيل الحديقة البستان والحائط، وخصَّ بعضهم به الجنة من النخل والعنب. وقيل كل بستان كان عليه حائط فهو حديقة، وما لم يكن عليه حائط، لم يقل له حديقة.

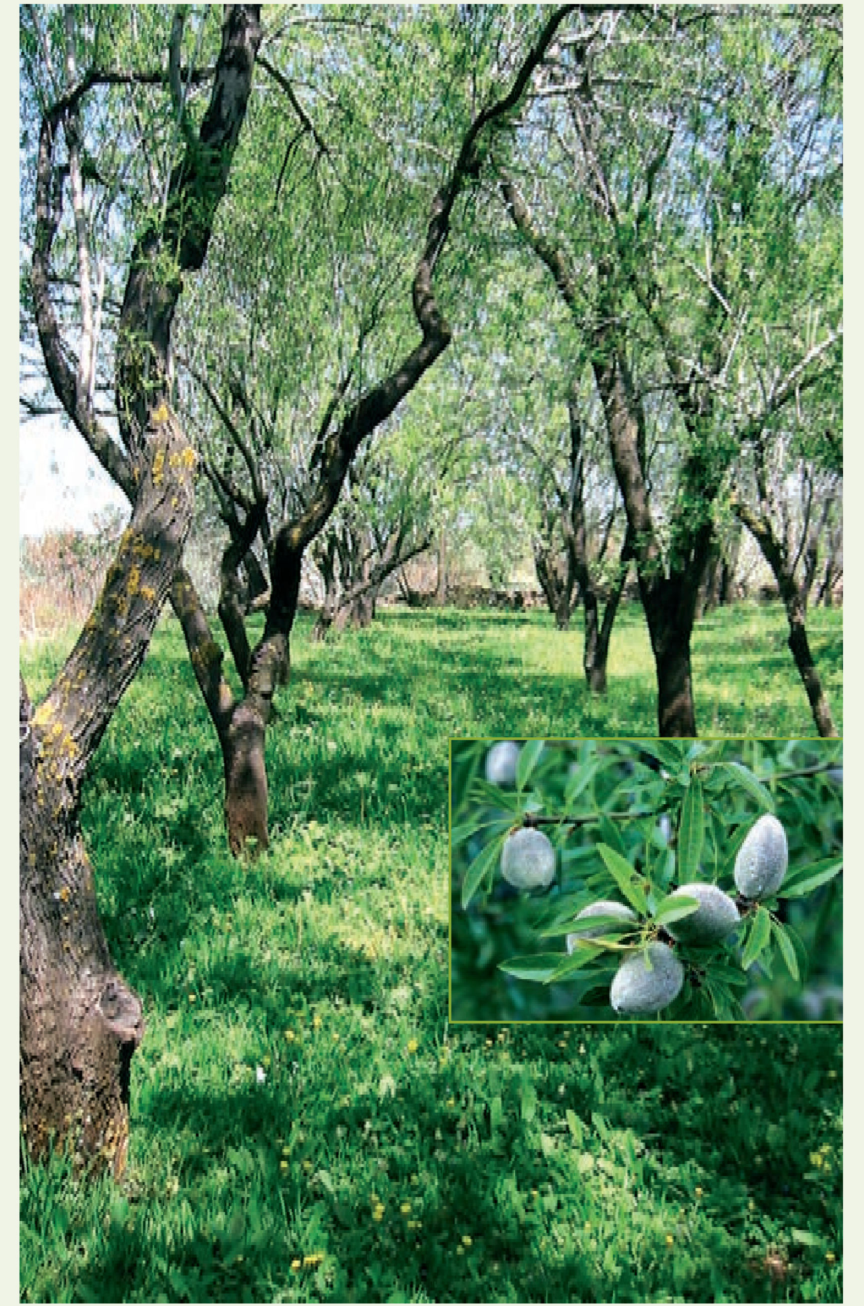
- **الجنة**: البستان، ومنه الجنات، والعرب تسمي النخيل جنة. والجنة الحديقة ذات الشجر والنخيل، وجمعها جنان. ويقال للنخل وغيرها. وقال أبو علي في التذكِرة: لا تكون الجنة في كلام العرب، إلا وفيها نخل وعنب. فإن لم يكن فيها ذلك، وكانت ذات شجر فهي حديقة وليست بجنة. والجنة هي دار النعيم في الآخرة، من الاجتنان لتكاثر أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها.

- **الروضة**: الأرض ذات الخضرة، الروضة البستان الحسن، والموضع يجتمع إليه الماء يكثر نبته. ولا يقال في موضع الشجر روضة. وقيل الروضة عشب وماء ولا تكون روضة إلا بماء معه أو إلى جنبه. وأصغر الرياض مائة ذراع. وقوله -صلى الله عليه وسلم-: بين قبري -أو بيتي- ومنبري روضة من رياض الجنة. والجمع من ذلك كله: روضات ورياض ورَوض ورِياضٌ.

- **الدوحة**: الشجرة العظيمة المتسعة، من أي الشجر كانت، والجمع دوح. وأدواح جمع الجمع. ويقال داحت الشجرة وتدوح وإذا عظمت فهي دائحة. وكل شجرة عظيمة دوحة.

- **الأجمة**: منبت الشجر كالغيضة، وهي الآجام. والأُجُم القَصر بلغة أهل الحجاز. واحدها أُجُم. والأجمة الشجر الكثير الملتف، والجمع أُجَم وأُجم وأُجَم وآجام وإِجام. وتأجّم الأسد دخل في أجمته. وقال الجوهري: الأجمة القصب، والجمع أجمات.

- **الغيضة**: الأجمة، وغيّض الأسد ألِف الغيضة. والغيضة مغيض ماء يجتمع فيه فينبت فيه الشجروجمعها غياض وأغياض.



- **الغابة**: الأجمة التي طالت ولها أطراف مرتفعة باسقة. وقال أبو حنيفة: الغابة أجمة القصب. والغابة الأجمة ذات الشجر المتكاثف، لأنها تُغيِّب ما فيها. وقال ابن الأثير: الغابة شجر كثير وهي على تسعة أميال من المدينة.

- **الغوطة**: الوهدة من الأرض المطمئنة، وغوطة موضع بالشام كثير الماء والشجر وهو غوطة دمشق، وذكرها الليث معرفة بالألف واللام. والغوطة مجتمع النبات والماء، ومدينة دمشق تسمى غوطة.

- **الواحة**: (من المفصل لجواد علي) موضع الآبار والمياه في البوادي، هي رحمة للإنسان ومنظر تقر به العين. فالواحة في البادية، لؤلؤة وكنز وجنة، لا يدرك جمالها ولا يعرف قدرها إلا من اضطر إلى ركوب البوادي وتعرض لرياح السموم ووهج الشمس وعواصف الرمال. وفي هذه المواضع يستعيد المسافر نشاطه ويتجدد أمله.

القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
مايو – يونيو 2007
المجلد 56 العدد 3

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com